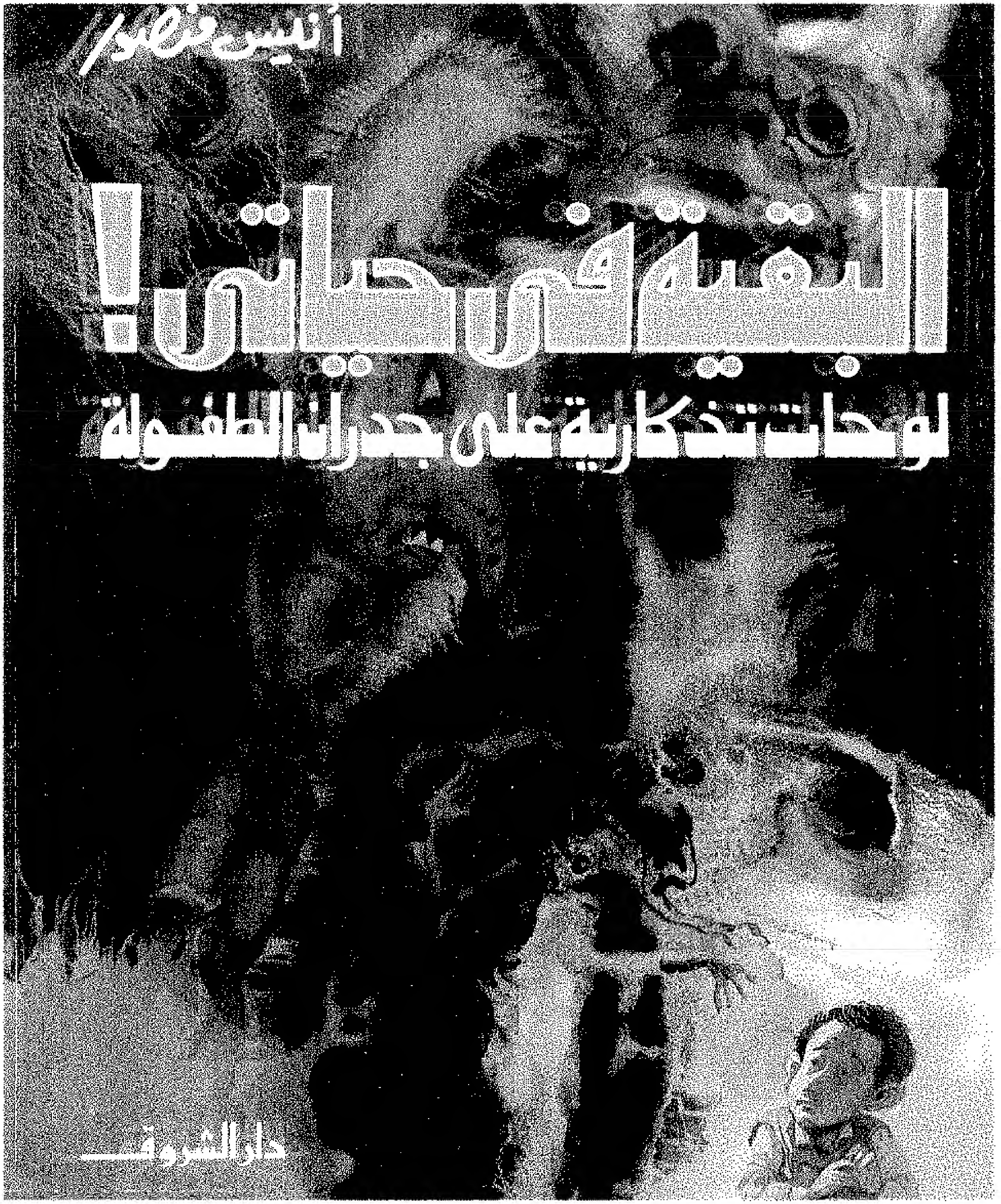
أنيس منصور
البقية في حياتي!
لوحات تذكارية على جدران الطفولة
دار الشروق

البقية في حياتي!

لوحات تذكارية على جدران الطفولة

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م
الطبعة الثانية
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٢
فاكس: ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس 93091 SHROK UN
بيروت: ص. ب ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

أنيس منصور

البقية في حياتي!

لوحات تذكارية على جدران الطفولة

دار الشروق

كلمة أولى !

من الخوف من أمي والخوف عليها ، عرفت أبي ..

ومن القلق على أبي والشوق إلى صوته الجميل يرتل القرآن ، ويتغنى بالشعر ، ويقلب الكتب بأصابعي ، عرفت نفسي ..

هذه ـ إذن ـ ينابيعُ الشعور ، ووميضُ الفكر في طفولة كانت الماضي الذى لا يمضي ، والحاضر الذى لا يغيب ،

وكانت الطريق الذى إذا التوى كان علامة استفهام ، وإذا استقام كان علامةَ تعجب ..

والطريق لم ينته بعد ولا علامات الدهشة على جانبيه .. فلا حدود للاستفهام والفهم ، والتعجب والاعجاب ..

هذه ـ إذن ـ صور تذكارية لشلالات القلق ، وجنادل الأرق ، ووديان الفزع .. أعرفها .. تعرفني .. بغير نهاية ..

فالبقيةُ ما تزال في حياتي ! ..

القاهرة ١٨ اغسطس سنة ١٩٩٠

يارب إنى خـائـفٌ ، كما ترى
والقلب منى حـائرٌ ، كما ترى
وقبـلتى ضـائعـةٌ ، كما ترى
فما ترى يا رَبنا ، فيما ترى ؟!

« . . . »

وضاقت الأرضُ حتى كادَ خائفهُم
إذا رأى غيرَ شـىءٍ ظنـه رجـلا !

« المتنبى »

ما هذا الإنسان ؟ إنه عود من القش .. إنـه أضعف المخلوقات .. ولكنه عود قش عاقل . والكون أقـوى منه . والكون ليس فى حاجة إلى سلاح لكـى يقتل هذا الكائن العاقل .. قطـرة ماء تقف فى حلقه كافيـة لقتله .. ولو سحق الكـون هذا الإنسان ، سوف يبقـى القتيل أعظم مـن القاتل . لأن القتيـل يعرف انه أضعـف ويعرف أن الكون أعظم .. بينما الكون لا يعرف لا يفهم لا يعقل شيئًا من قوته أو من ضعف الإنسان .. فعظمة الإنسان فى فكره . ولذلك فالإنسان يجب أن يسـمو بفكره وليس بالزمان الذى يستغرقه والمكان الذى يشغله .. فلنحاول أن نفكر وأن نفكر فهذا هو الأساس الأول لحضارة الإنسان ! .

« باسـكال »

To: www.al-mostafa.com

١

جلست أمي إلى جوار النافذة . وفنجان القهوة في يدها مثل كل يوم . ولكنها هذه المرة تبكي في صمت .. وقد امتدت فروع الأشجار إلى داخل الغرفة .. وكأنها تفعل ذلك لأول مرة . وكأن لها وظيفة أخرى هي أن تؤكد لأمي أنها ليست وحدها .. فأوراق الأشجار أكف صغيرة تواسيها أو تسبقها إلى دموعها .. ولم ألاحظ قبل اليوم أن الأشجار قريبة من النافذة . وأن فروعها قد تمددت إلى داخلها .. الأوراق شديدة الخضرة . وملابس أمي شديدة السواد .. وجه أمي أبيض .. وشعرها طويل ذهبي .. وفي كف أمي بقايا الحناء .. ونظرت إلى كفي فوجدت بعض الحناء أيضًا . فمن عادة أهل الريف أن يضعوا الحناء على أكف وأقدام الصغار والنساء .. حتى المنديل الصغير في يد أمي له أطراف سوداء . وقد تسللت أشعة الشمس من بين الأوراق وازداد وجهها اشراقًا . ولأول مرة أنظر في عينيها . بينما امتدت ذراعها ومسحت دمعة على خدي ..

وقالت لي . لن أتركك وحدك يا حبيبي .. عيب ! كيف تبكي وأنا أقول لكل الناس عنك إنك رجل .. أنت رجل البيت .. أنت عارف أنني لا أحب أحدًا أكثر منك .. لا أحب أحدًا غيرك..

وسحبت يد أمي إلى شفتي وقبلتها . وكانت يدها ناعمة وأصابعها طويلة وأظافرها وردية .. ثم نظرت إلى وجه أمي .. مستدير أبيض .. وإلى عيني أمي فوجدتهما عسليتين وكنت أظنهما سوداوين .. وإلى الرموش فوجدتها طويلة ..

وضحكت أمي وهي تقول . هل نسيت أنني أستطيع أن أرى النجوم في الظهر ؟!.

فقد كانت تتباهى بأن نظرها أقوى نظر فى العائلة كلها .. ولا تفوقها إلا إحدى قريباتها ..وكانت البنات يتبارين من التى تستطيع أن ترى القمر والشمس طالعة .. أو ترى إحدى النجوم فى السماء رغم وجود الشمس.. وكانت أمى هى التى تفوز فى كل مرة..

وتضحك وتقول : ماذا أعمل .. أبوك هو الذى نظره ضعيف .. ولذلك فنظرك ضعيف.. وهو .. (ثم تبكى) ..

وتضع الفنجان الذى فى يدها إلى جوارها ..

ولم أستطع أن أفهم هذا الذى حدث فى ذلك اليوم .. أمى جالسة ، وهى عادة لا تكف عن الحركة . وملابسها سوداء . وتبكى .. ولم أكن أتصور أن أمى تبكى أيضًا . فقد أعتادت أن تبكينى .. أن تضربنى لأتفه الأسباب .. ولكن هذه المرة هى التى تبكى .. وهذه المرة تلف ذراعيها حولى .. وأرى وجهها وعينيها وأشعر بحضنها وأنها أمى .. وإن كان من الممكن أن أكون فى أحضانها أى وقت وكل يوم لولا أننى أضطرها إلى ضربى.. ولم أعرف السبب الحقيقى الذى يجعلها تضربنى .. مثلاً أنا أصعد النخلة.. حاولت ذلك.. فقد رأيت الثعلب يصعد النخلة بظهره لكى يرى الأرض ومن عليها وحتى لا يفاجأ بأى خطر.. وككل الأطفال حاولت أن أقلد الثعلب فسقطت على الأرض.. وسال الدم من رأسى..

وفى مرة أخرى حاولت أن أقلد طبيب العيون فكنت أمسك الأطفال الصغار بالقوة وأضع التراب فى عيونهم ..

وفى مرة وجدتنى أضع يدى فى جيب جاكتة والدى .. وكنت أرى والدى يخرج من جيبه قطعًا من الأوراق الصغيرة . هذه الأوراق عليها آيات قرآنية وكان يعطيها لمن يشكو الصداع .. وكان الناس يشكرون والدى على ذلك .. فقد زال الألم .. حاولت أن أعرف ما هذه الأوراق ! .

وفى إحدى المرات وجدت إحدى قريباتنا تصرخ وتبكى . وقالوا إنها سوف تلد حالاً .. وتكاثرت النساء . وجاءت الداية .. ومعها طشت وبعض الزجاجات .. وبعض أعواد

البخور .. ودخلن جميعًا إحدى الغرف .. وأجلسوا السيدة التى سوف تلد على أحد المقاعد.. وتسللت أنا تحت السرير .. لأرى .. وعندما رأيت لحمًا ودمًا وسمعت صراخًا .. صرخت أنا أيضًا ! .

ولم تقل أمى شيئًا عن هذا الذى حاولت أن أعرفه ..

واعتدت على أن تمتد يد أمى إلى أى شىء وتضربنى به فى كل مرة أحاول أن أعرف ..

مرة أخرى نزلت إلى النيل مع الأطفال . وغرقت . فأنا لا أعرف العوم . ولا أعرف كيف أخرجونى . ولا كيف أننى ملفوف بالأغطية على سرير . وكيف أننى لم أكن وحدى .. ففى سخونة الحمى كنت أرى أناسًا كثيرين فى سريرى .. وكنت أرى حيوانات وطيورًا . وكنت أغمض عينى وأخفيهما تحت اللحاف .. وكنت اندهش كيف أننى عائم فى البحر .. أحيانًا فوق الماء وأحيانًا تحت الماء .. وأن أمى تحاول اغراقى بينما خالتى ـ أجمل من رأيت وألطف وأحب من عرفت ـ كانت هى التى تحاول انقاذى .. وكيف انها تمد شعرها الأسود الطويل ناحيتى .. وكيف اننى كنت أتحول إلى فراشة أتعلق بشعرها وعندما أصل إلى قرب خديها تمتد رجل أمى تدوسنى إلى القاع .. وأحيانًا أرانى عصفورة تقف على كتفى خالتى وتمتد يدها وتلصقنى بخديها قريبًا من عينيها الجميلتين .. عندما تخطفنى أمى وتحبسنى فى قفص مع الفئران تحت السرير ..

واعتدت أن أبكى من الوحدة ومن السخونة ومن الألم . وأحسست بيد وذراع وحضن فقلت خالتى أنا تعبان .

وسمعت أمى تقول . أنا أمك يا حبيبى أنا لا أريد أن أضربك أبدًا .. ابدًا .. أنا تعبانة يابنى .. تعبانة وأنت صغير لا تعرف !

ورفعت رأسى لأرى دموع أمى ..

وتقول : أريدك أن تكون أحسن الناس . أنت تعرف . لا أريدك أن تلعب فى الطين وتغرق فى النيل . أريدك أن تتعلم وأن تذهب للمدرسة وأن تكون وزيرًا . حتى يقال إن أمك عرفت تعلم أولادها ! .

وتمسح العرق والدموع من وجهى .. وتقبلنى فى كل وجهى . وبكيت : ماما .. ماما ..

اين أنت ؟ كل الأطفال يقولون لى أن أمك تكرهك .. وإلا لماذا هى تضربك .. بينما أمهاتنا لا تضربنا .. أمك هى التى أغرقتك فى النيل .. أمك هى التى أسقطتك من النخلة .. أمك هى التى حبستك تحت السرير ..

وحاولت أن أجلس إلى جوارها فلم أستطع . ونظرت أمى والدموع فى عينيها : شايف انت سريض لاية درجة .. أنت السبب يا ابنى . لماذا تضطرنى أن أضربك .. فى كل مرة أفعل ذلك أظل أبكى .. أنا أحبك .. أنهم يقولون إننى لن أنجح فى تربية أولادى .. قل لى ياصلاح – وهذا هو اسمى – ما الذى جعلك تذهب إلى ضريح جدك بالليل .. والدنيا مظلمة.. وهناك ذئاب وثعالب.. وفى الضريح ثعابين وعفاريت ..

وأحنيت رأسى خوفًا من أن تضربنى . فأكدت لى أنها لن تفعل . فقلت لها: وجدت كل الناس يذهبون ويبكون وكل واحد يشكو لجدى من أمه ومن أبيه .. ويطلبون إليه أن يساعدهم . فأنا ذهبت وانتظرت حتى يمشى كل الناس . ودخلت وأقفلت الباب ورحت أبكى وأطلب منه أن يأخذنى ..

قاطعتنى أمى : لا تقل يا ابنى . لا تقل .. حرام عليك .. أنا غلبانة ..

وأكملت كلامى :يأخذنى عنده مثل خالى .. حتى لا يضربنى أحد ! .

واحتضنتنى أمى . وهى تبكى وتقول آخر مرة يا ابنى .. آخر مرة وحياتك أنت.. آخرمرة..

ومرة وجدت فناجين القهوة على المناضد . وذهبت وغسلتها مساعدة لأمى . وكانت مريضة .. ونادتنى أمى . وأمسكت أذنى وقرصتها .. وصرخت.. وعرفت أن هذه الفناجين لجاراتنا وقد بعثن بها لكى تقرأها أمى!.

* * *

أمى كانت عصبية المزاج .. ومن السهل أن تغضب ومن السهل أن ترضى . وفى كل الحالات تبكى بسهولة . ولكن لم أفهم العلاقة بين حبها الشديد لى ، وضربها لى .. بيديها وبأى شىء قريب منها .. أنا فقط دون بقية اخوتى ..

ولم أجد أحدًا من اخوتى يحبها مثلى . ويحرص على إرضائها . ويحزن لحزنها . ويبكى لبكائها . فإذا هى مرضت تسللت إلى فراشها .. وإذا لم توافق نمت على الأرض أمام سريرها . وعلى الرغم من اننى لا أستطيع أن أساعدها فى شىء فقط أن أكون قريبًا منها.. مع انها لا تطلب منى شيئًا . وأحيانًا تنزل من السرير وتضع الغطاء على جسمى .. ولا تحاول إيقاظى ..

وعندما جاءت إحدى خالاتى . سمعت هذا الحوار :

خالتى : الولد مريض . ماله ؟

أمى : لا أعرف . ولكن عندما أمرض فإنه يمرض . وأنا أحاول أن أخفى مرضى عنه ولكنه يلاحظ ذلك بسرعة .

خالتى : دعيه يسافر معى .

أمى : لن يرضى .

خالتى : سأحاول .

وبسرعة ذهبت إلى أحد الدواليب ووضعت كل ملابسى فى الماء .. وحاولت أن أتظاهر بأننى أغسلها حتى لا أسافر مع خالتى وأترك أمى ..

وفجأة دخلت غرفة والدتى . وقلت لها : يا ماما .. شوفى لى الفنجان !.

فضحكت أمى لأول مرة . وخالتى أيضًا . ووجدت وجه أمى يشرق وأرى أسنانها البيضاء الجميلة . واقتربت منها . ثم أصعد إلى جوارها على السرير . وأضع رأسى على صدرها .

وقالت لى أمى : حاضر يا حبيبى ..

وقامت خالتى وأتت بفنجان قهوة وطلبت منى أن أشربه . وأن أرجه . وأن أقلبه . وانتظر حتى يجف . ثم ناولتها الفنجان . وراحت تديره بين أصابعها .. واشرق وجهها وقالت لى . فنجالك حلو قوى يا ابنى .. كله سكك مفتوحة .. وفى وسط الفنجان كلمة الله .. وهنا كلمة محمد .. الله نور ... ومحمد رجل جميل الوجه وحوله اناس كثيرون .. وهنا كرسى كبير .. وفوق الكرسى نجمة .. نجمك أنت يا ابنى .. فوق .. ربنا يدينى طول

العمر لكى اراك فى الحقيقة كما اراك فى الفنجان ..يارب سايقة عليك النبى .. لكن يا ابنى.. أعداؤك من دمك .. القريب منك هو الذى يحسدك .. ولكن ربنا سوف ينجيك يا ابنى .. ربنا يكرمك .. أنا شايفة إن ربنا سوف يكرمنى بك .. ألف سلامة لك من كل عين .. هذا كل ما فى الفنجان .. مبسوط ! .

لابد أن أمرض لتكون أمى قريبة منى .. ولابد أن تمرض هى لأكون عند قدميها وبعد ذلك فى حضنها ..

* * *

ـ صلاح .

ـ نعم يا ماما ..

ـ أخرج .. لا يصح أن تجلس مع الستات .. أخرج .. أنت رجل ..

وتقول لقريباتها . والله ابنى صلاح زى البنت . لا يرفع صوته ولا عينيه... ولا نسمع له صوتًا ..

وترد صاحبتها الحقيقة كده .. الولد فى غاية الأدب .. ربنا يكمله بعقله.. ألن يذهب إلى المدرسة ؟

أمى تقول : سوف يحضر أبوه اليوم . لابد أن يذهب . فلا أبوه فلاح ولا جده فلاح .. ولابد أن يكون أفنديًا يذهب إلى المدرسة ويكون محاميًا أو دكتورًا . هذا ما نذرته لله .. وربنا سوف يعوضنى خيرًا ..

* * *

ولما عرفت أن والدى قادم من السفر ، غيرت ملابسى .. الجلباب الجديد .. والقباب الخشبى . والطاقية .. وكان الجلباب مشقوقًا من الجانبين .. لا أعرف السبب .. وربما كان الغرض هو أن يكون واسعًا .. وكانت هذه الفتحة يسمونها « الفراجية » أى الفرجة الصغيرة .. وكان والدى يبدو عادة أنه قادم من بعيد .. فهو يجىء راكبًا حصانًا وعلى

رأسه شمسية . ويمشي وراءه عدد من الفلاحين على أقدامهم أو راكبين الحمير .. وكان من عادة والدى إذا رآنى أن يرفعنى بذراع واحدة إلى حيث هو وأجلس أمامه .. فقد كان قويًا .. وكانوا يقولون إنه أحيانًا كان يحتضن الحصان الصغير بذراع واحدة ويمشى به.. ولم أر ذلك .. ولكن هذه المرة عندما ناديته صارخًا : بابا.. بابا .. لم يتوقف عن الكلام ولا مد ذراعه .. وإنما اكتفى بالنظرة ناحيتي قائلاً : احترس حتى لا يدوسك الحصان ! .

ونزل أبى من فوق الحصان .. واتجه إلى البيت . وأنا الذى مددت يدى إلى يده . وضغطت عليها بأصابعى . كأننى احتضنه فأنا لم اره منذ وقت طويل .. فكان من عادته أن يغيب عنا أسبوعًا ، ولكن هذه المرة غاب شهرًا أو دهراً .. وفى كل مرة أسأل أمى عن موعد عودته فإنها لا تقول شيئًا .. أو تبكى .. ثم لا تقول شيئًا فأبكى أنا أيضًا .

ودخل والدى البيت . وظللت واقفًا أمام الباب . وتعالى الحديث بين أبى وأمى . وسمعت أبى يقول : لا داعى لهذا الكلام . الولد يسمع . الولد حساس جدًا . لا داعى ..

ولم أسمع ما الذى تقوله أمى . ولا ما الذى يقوله أبى . واقتربت من النافذة . وسمعت. ولكن لم أفهم . وكانت أمى هى التى تتكلم أكثر . وأبى لا يرد . وأحيانًا يقول عبارات لا أعرف لها معنى .. مثل : الله وحكمته .. اصبرى سوف نترك هذا البيت .. هذه آخر مرة .. هانت .. طبعًا الولد لابد أن يدخل الكتاب يتعلم القراءة والكتابة ويحفظ القرآن.. وبعد ذلك يحلها ربنا.. وأسمع أمى تقول : لا تصدق الولد .. أنت السبب . إنه لا يحب أمى .. إنه يقلدك .. لا تصدقه ! .

أنا كذاب ؟ وأمى هى التى تقول . لم أكذب قط . لقد تعلمت منها الصدق. إذن هى التى تكذب أمى تبكى ؟ وأمى تكذب ؟ وأبى يؤكد إننى لا أكذب .. وأمى تقول له : وأنت كيف تعرفه إذا كنت لا تراه فى الأسبوع إلا مرة واحدة ولمدة نصف ساعة ؟! .

أما بقية الساعات والأيام فهى التى تعلمنى وهى التى تضربنى ..

وفى يوم سألت أمى : يا ماما ما الذى يعمله والدى ؟ ..

وقالت لى كلامًا لم أفهمه . ولم تكن سعيدة بما تقول .

ولما سألتها : ولماذا يسافر كثيرًا ؟ ولماذا لا يقيم معنا فى بيت جدى ؟.

ولم تسترح أمى إلى هذا السؤال ولا أحبت أن تتكلم .

ولما سألتها · ولماذا جدتى لا تحب والدى ؟

قالت لى : أنت صغير أنت لا تعرف وأنت لا تفهم ..

وكنت أقول لها : ولكن بابا طيب جدًا .. يصلى ويحبه الناس . كل الناس يحبون والدى..

وتقول . ولكن ليس له بخت يا حبيبى .

ـ يعنى إيه ؟

ـ أنت صغير ولا تعرف الآن . ولكن عندما تكبر سوف تعرف ..

وكنت أنام أمام غرفة والدى حتى إذا صحا من النوم لصلاة الفجر وجدنى . فأيقظنى لكى أصلى معه وأتحدث إليه .. وكان أبى لا يكف عن قراءة القرآن وهو يتوضأ بعد ذلك.. ثم يؤذن لصلاة الفجر . ثم يتلو القرآن . ثم يصلى وأنا وراءه .. وبعد ذلك يقرأ القرآن ويدعو الله أن يصلح حال أولاده .. فالأولاد كثيرون .. عددنا أحد عشر.. وكان حين يدعو لى يضع يده على رأسى .. ثم يضعها على عنقى .. ثم على قلبى .. ويدعو لى بأن ينصرنى على أعدائى وعلى نفسى وأن يجعلنى رحيمًا بوالدى وأن أكون فى أعلى المناصب .. وأن يثبت إيمانى ويملأ عقلى بالعلم وأن يعطينى الصحة والعافية ..

وبعد ذلك يصنع الشاى بالنعناع ويحكى لى قصصًا دينية وتاريخية .. مع أبيات من الشعر .. وكان الشعر الذى يرويه ويجعلنى أردده وراءه شعرًا أخلاقيًا وصوفيًا . وكان يندهش كيف أننى أحفظ الشعر .. مئات الأبيات بهذه السرعة مع إننى لا أعرف القراءة وكان يحكى ذلك للناس وكان الناس يدعون لى بالصحة والنجاح والمزيد من العلم ..

وفى يوم سمعته يقول لخطيب المسجد : أن ولدى قد حفظ « دلائل الخيرات » كلها ..

فرد الرجل عليه · وهذا من دلائل الخيرات ! .

وأعجبنى هذا القول . ولكن لم أفهم هذه النكتة البلاغية .

وفى يوم قال لمأمور المركز ، وكان يتناول عشاءه فى بيتنا : إن ولدى قد حفظ « البردة » للامام البوصيرى .. ويستطيع أن يرويها كلها الآن ..

وكنت أقـول والناس فى ذهـول .. وتمتد أيـديهم تباركنـى وتبحلق عيـونهم .. كأنهم يرون المستقبل العظيم الذى سوف يكون من نصيبى عندما أكبر ! .

وفى إحدى المرات قلت لوالدى : بابا أنت زعلان مع ماما ؟ لماذا ؟

وكان السؤال مفاجـأة لأبى . وخلع منظاره وأدنى وجهه مـن وجهى .. ورأيت وجهه الأبيض وعينيه الخضراويين . وفى عينيـه صفاء وطيبة وحزن . ثـم احتضننى وأجلسنى على ركبتيه وراح يقبلنى . ولم يقل شيئًا . ورأيت الدموع فى عينيه .. حتى أبى يبكى ؟! .

ما الذى أقوله ليجعل أبى يبكى وأمى أيضًا .. لماذا كل الذى أقول يتحول إلى دموع.. ما هذا الذى أقوله فيوجع القلب .. ما هذا الذى لا يريد أحد أن يصارحنى به..

وعـدت أقـول وأنـا أبكى أيضًـا : مـن فضلـك لماذا أنـت ومـاما تقفـلان البـاب ثـم تتشاجران..لماذا؟

وكان أبى يقول لى وهو يحتضننى . كل الناس كذلك يا ولدى .

قلت . ولكنى سألت واحدًا من أصحابى إن كان أبـوه وأمـه يتشـاجران فقـال إنهما لا يتشاجران .. وسألته إن كان فى كل مـرة يتحدث إلى أمه تبكى.. وإلى والده يبكى .. قال إنهما لا يفعلان ذلك .

قال أبى . ومن هذا الذى تسأله يا ولدى ؟

ـ ابن خالى ..

ـ ابن العمدة ؟

قلت : نعم ..

فضحـك أبى وقـال لأن بيته كبير جـدًا .. فإذا تشـاجر العمدة مع زوجته فإن ابنه لا يسمعهما ..

قلت . ولماذا لا يبكيان ؟

قال لا يبكيان أمام الأولاد وإنما فى الغرفة وراء الباب .

قلت : ولماذا البكاء يا بابا ؟

قال . لأن الإنسان عندما يتألم أو يمرض أو يحزن لابد أن يبكى .

قلت : ما الذى يؤلمك يا بابا ؟

قال . ماما سوف تقول لك .. أما أنا فأريد أن أتحدث معك .. وعن المدرسة التى سوف تذهب إليها .. أنا أريدك أولاً أن تحفظ القرآن الكريم .. وبعد ذلك سوف تكون رجلاً عظيمًا .. أحسن واحد فى هذه القرية .. وفى الدنيا كلها .. وأنت سوف تحفظ القرآن بسهولة وفى وقت قصير .. لأنك تحفظ الشعر بسهولة . والقرآن أعظم من الشعر . والذى يحفظ القرآن لا يكذب ولا يغش . ولذلك سوف يحبك الناس ويصدقونك .. وأنا أعلم انك سوف تكون أحسن من كل اخوتك .. لأنك طيب .. ذكى .. ولأنك رقيق عطوف.. ولازم تسمع كلام ماما يا حبيبى ..

ـ حاضر يا بابا ..

ـ انت تحب ماما ؟

ـ نعم .

ـ وانت تحبنى ؟

ـ طبعًا .

ـ إذن يجب أن تحب أباك وأمك .. لأنهما يحبانك .. أما الخلافات التى بينهما فهى طبيعية بين كل الأزواج .. وعندما تكبر سوف تفهم .. وسوف تجد لأمك ألف عذر ولوالدك أيضًا .. فلا تشغل نفسك بنا .. انشغل بنفسك ومستقبلك يا ولدى .. وربنا يحميك وينجيك وهذه هى سعادتى أنا وأمك .. تأكد من ذلك ..

ـ حاضر يا بابا ! .

وكانت أمى تسألنى : لقد سمعتك وأنت تتكلم مع بابا . ماذا كان يقول لك ؟ .

ـ أبدًا إنه يقول شعرًا وأنا أردد وراءه .

ـ شعر ؟

ـ نعم . كلام حلو .. مثلاً .

سامح أخاك إذا خلط

منه الاصابة بالغلط

وتجـاف عن تعنيفـــه

شكر الصنيعـة أم غمط

من ذا الذى ماساء قط

ومن له الحسنى فقط؟!

ـ ما هذا ؟

ـ شعر .. مثل :

رأيت غصنًا على كمشيب

شبيه بـــدرًا إذا تـلالا!

ـ ما هذا ؟ أبوك يا ابنى ليس عنده إلا هذا الكلام .. وبقدر ما عنده من كلام ليس عنده فلوس ..

ولم أفهم ..

ولم أقل لها شعـرًا بعد ذلك .. مـادام مثل هذا الكـلام الحلو يخطف الـرزق ويسبب الفقر والبعد عن الأولاد ! .

٢

كانت أمى تغلق الباب علينا بإحكام شديد .. الترباس فوق .. والترباس تحت .. وبالمفتاح .. ثم تضع فى فتحة المفتاح قطعة من القماش .. وتدخل غرفة النوم وقد أحكمت إغلاق النافذة والباب ..

وأدخل إلى جوارها تحت اللحاف أغطى رأسى ، صيفًا وشتاءً . ولا أذكر أننى ضربت اللحاف بيدى أو برجلى فى حياتى ..

ولم أتساءل عن سبب اللحاف ولكن أعتقد أننى وجدت اللحاف فتغطيت به .. ثم إنه الخوف .. الليل هو الخوف .. وكل شىء أمام الباب ووراء النافذة مخيف .. ففى الليل تسمع أصواتًا كثيرة ، غريبة أمام الباب .. وتحت النافذة وفوق السطوح .. أشياء تدب .. إناس .. أو كلاب أو ذئاب . وتسمع وقع أقدام فوق السطوح .. وصوت الدواجن تصيح فزعًا .. وتتعالى الصيحات .. وأخرج برأسى من تحت اللحاف وأسأل أمى فتهمس إنها العرسة .. تخنق الدجاج .. أو هو الثعلب يخطف البط .. أو هو الذئب .. أو هو أحد اللصوص . ولكن أمى لا تنهض من السرير .. ولا تفتح الباب .. ثم تطلب منى أن أنام .. فأقترب منها وأعانقها وأخفى رأسى وأنام ..

وأنهض من النوم خائفًا حتى من سؤالها عن الذى حدث بالأمس ويتكرر كل ليلة ..

واسمع عن قصص اللصوص فى الليل .. وعن المجرمين .. وعن الذئاب التى خطفت الأطفال .. وعن الذئبة الأنثى التى جاءت تنتقم من رجل قتل زوجها .. وعن العفاريت التى تقلد الناس فى ملابسهم وأصواتهم وتخطف الأطفال .

وكل شيء يتلاشى عند طلوع الفجر وشروق الشمس .. ويظل الإنسان آمنـًا طوال النهار ، حتى إذا جاء الليل فإنه الخوف والرعب يصبح خيمة فوق القرية والمدينة .. ويحاول أن يتسلل من ثقب الباب أو من تحت الباب أو من تحت النافذة .. والنهار للناس، والليل لكل الوحوش والعفاريت .

وأحيانًا كنت أسمع أن النهار أيضًا للعفاريت . فالقطط التي في البيوت هي عفاريت أيضًا أخذت شكل الحيوانات .. وبعض القطط تنظر إليك كأنها تحدثك .. أو كأنها تنقل لك رسالة من إنسان مات .. وكذلك الكلاب .. أما الفراشة التي تدخل من الجنينة إلى النافذة وتحط على السرير فهي روح قريب لنا مات . ويريد أن يطمئن على الناس في الدنيا .. ولذلك يجب ألا تطرد قطة أو تضرب كلبًا أو تقتل فراشة ..

ولا أذكر أنني وجدت باب بيتنا مفتوحًا . ولا أذكر أن أحدًا دق على الباب دون أن يسري الفزع بيننا .. وقبل أن نذهب إلى فتح الباب نتساءل في صمت : ومن يكون هذا .. هذه الدقات على الباب غريبة عنا ..

وتقول أمي : إنه غريب .. فقد رأيت في الفنجان أن ضيفًا عزيزًا سوف يزورنا ..

أو تقول : إن باطن كفي يأكلني .. سوف أسلم على أحد لم أره منذ وقت طويل ..

ثم تقول : وقد رأيت في الفنجان أن هذا الشخص يبكي .. نعم يبكي ..

وكنت أصدق كل الذي تقوله أمي .. وكل ما تقوله يثبت انه صحيح في نفس اليوم أو بعده بيوم ..

وبكثير من الحذر والخوف نفتح الباب وتكون إحدى خالاتي بملابسها السوداء والدموع في عينيها ..

وتشير لي أمي أن أخرج الآن ، ولكن بشرط أن أبقى دائمًا أمام الباب ولا أكلم أحدًا من أولاد الجيران . إياك ـ تقولها محذرة مهددة !

وكان لي جار في مثل سني .. يرتدي القميص والبنطلون حتى في الإجازة . وكنت أتصور أن البنطلون والقميص للمدرسة فقط .. وفي إحدى المرات دخلت الكرة إلى بيته .. فتسللت ورأيت إخوته جالسين كلهم بالبنطلون والقميص .. ولم يكن جاري هذا يفهم

لماذا أتحدث إليه همسًا .. ويسألني عن السبب ولكن لا أستطيع أن أقول له أن أمي تمنعني من الحديث مع أي أحد ..

وأحيانًا كنت أقول له . إن ماما نائمة مريضة ..

وفي اليوم التالي تجيء جارتنا لكي تطمئن على صحة والدتي .. وتفاجأ بأنها ليست مريضة ..

وتسألني أمي فأقول لها : إن ابنها حاول أن يلعب معي فقلت له ماما مريضة وأنا لا أستطيع أن أتركها ..

ويظهر الامتنان على وجه أمي ..

ولم أكن أسأل أمي عن السبب في ألا أتحدث أو ألعب مع الأطفال . ولكن رأيها أن كل الأطفال لا أدب لهم ولا أخلاق .. وأنهم يلعبون في التراب .. وأنهم يمزقون ملابسهم ..

وعلى الرغم من أن جارتنا كانت حريصة على أن تزور أمي من حين إلى حين ، فإن أمي كانت تضيق بذلك .. وفي مرة وجدت أمي تقول لها . ابني مؤدب .. وأنا لا أحب أن يلعب مع ابنك .. أنا قلت له ألا يلعب مع أحد .. وقد أمرني أبوه بأن يظل الولد في البيت لا يخرج منه لا ليلاً ولا نهارًا إلا للضرورة ..

وفي يوم عدت إلى البيت باكيًا .. ولما سألتني أمي قلت لها : إن الأولاد أحاطوا بي وانهالوا ضربًا وهم يقولون يا ابن أمك .. وأنا لم أرد على أحد ..

وإذا ذهبت إلى السوق اشترى شيئًا . فتوجيهات أمي صريحة . لا تبص يمينًا أو شمالاً أو تكلم أحدًا . أو تتوقف لأي سبب ..

وكانت أمي تظل مشغولة طول الوقت في الغسيل والطبخ وترتيب البيت وإطعام الطيور .. فلا يكاد يجيء الليل حتى تكون مرهقة تمامًا .. والنوم يجيء بسرعة بعد ذلك..

فليست الحيوانات المتوحشة هي مصدر الخوف ليلاً ، ولكن الناس نهارًا ..

ولم أفهم لماذا لا أتحدث إلى جار .. لماذا لا أزوره .. لماذا لا ألعب معه .. ولماذا لا أفتح الباب لأي أحد مهما كان السبب تافهًا ..

وكانت أمي إذا جاءنا ضيف تشير إلى أن أجلس في صمت .. فأجلس لأسمع وأرى ولا

أتكلم . إلا إذا طلبت منى أن آتيها بكوب أو أفتح الباب .. وفى بعض الأحيان تطلب منى أن أجلس بعيدًا .. أو أن أجلس أمام الباب حتى تفرغ السيدات من الكلام الخاص بهن .. وفى كل مرة تقـول وهى تبارك انسحابى فى صمـت وطاعة : ربنا يحرسه زى البنـت لا يرفع صوته ولا عينه..

وكنا ننتقل كثيرًا بين القرى والمدن ، والناس تتغير صـورهم وأصواتهم وعلاقاتهم .. أو محاولاتهم أن تكون هناك علاقات ، ولكنهم جميعًا بعيدون جدًا .. لا ألمس أحدًا بيدى.. لا أصافحه .. لا أحاول أن أكون أقرب .. لا أحاول أن أجعل الجار زميلاً والزميل صديقًا ، والصديق عـزيزًا أفرح حين أراه ، وأحزن حين أفـارقه .. أبدًا .. لم يحدث شىء مـن كل ذلك.. فالمسافة بعيدة بينى وبين الناس ..

وكل الأطفال الذين عرفتهم عن بعد فى الشارع .. أو عن قرب فى المدارس يتحدثون عن البيت وبيـت العائلة وعن الإخـوة والخالات والعمات .. والعائلة.. والأفراح وأعيـاد الميلاد والذهـاب إلى المقابر .. ولكنـى لا أجد مناسبـة لأن أقول كلامـًا من مثل هـذا .. أو حتى وجدتنى أقول : أبى .. أو عمى أو خالى أو خالتى .. ولا وجدت فى بيتنا كرة أو أية أداة من أدوات اللعب ..

سألت رجلاً اعتاد أن يجلس أمام بيتنا لأن بيته ملاصق لبيتنا . ما معنى وزير ؟

ـ قصدك خفير ؟

ـ لا .. وزير ...

ـ يا ابنى يبقى رجل عظيم جدًا ..

ـ طويل قوى .

ـ لا ليس ضروريًا ..

ـ سمين جدًا ..

ـ لا ..

ـ إذن ما معنى وزير ..

ـ واحد عنده بيت كبير .. وعنده فلوس كثيرة .. وعنده خدم فى البيت .. وكل يوم يأكل

فراخًا وبطًا وأوزًا .. وله عائلة كبيرة جدًا .. والناس عندما يرونه يقفون له . وإذا أمر بشيء ، لابد أن ينفذ ..

ـ هل بابا وزير ؟

ـ لا .

ـ ولكنه طويل وعريض وكبير ويركب حصانًا والناس يحبونه ويصلون وراءه .. ويقول شعرًا وهو طيب ويحب الناس .. وماما تريدنى أن أكون وزيرًا .. ولا أدرى ما الذى أعمله ..

وضحك الرجل وهو يمسح رأسي بيده ويقول . ربنا كريم يا ابني .. يعني الوزير كان أصله ماذا ؟ كلهم إناس عاديون .. وأحيانًا أقل .. ربنا يجعلك وزيرًا يا ولدى ! .

وسمعت صوت أمي ينادى من الداخل . وأخذت تلومني كيف أتحدث إلى رجل غريبة.. رجل أكبر مني في السن .. ونحن لا نعرفه ..

وإذا قدم لى أحد شيئًا فإننى لا أتناوله .. وإذا زرنا أحدًا وقدموا طعامًا ، فإننى أقول: عندنا في البيت الطعام .. ومهما حاولوا فإننى لا أمد يدى إلا إذا ماما قالت لى .. ومن النادر أن تفعل . وكانت في بعض الأحيان تقول : إنه حر .. فليأكل وليشرب كما يريد فأنا لا أمنعه ! .

وكنت لا أفعل .. فعيناها تقولان : لا ..

وفى كل مرة يجىء الطبيب إلى والدتي تقول له : أريده طبيبًا ..

وكان الطبيب يقول إن شاء الله ..

وتقول أمي سيكون بالمرضى رحيمًا .. لأنه لا يطيق أن يرى أحدًا مريضًا دون أن يتأثر لذلك .. وهو الذى يعمل الينسون .. وهو الذى يضع الماء على النار .. وهو الذى يعطى الدواء .. وهو الذى يوقظنى لكي آخذ الدواء في موعده .. وهو الذى ينام في فراشي إذا كنت مريضة ..

ويضحك الطبيب ويقول : ولكن الطبيب لا يستطيع أن يفعل ذلك مع كل المرضى ! .

وعندما يزورنا أحد أعمامي وكان استاذًا في الأزهر . كان يجدني اقرأ أى شيء .. آية

ورقة على الأرض أو لفافة .. كان يقول لوالدتي . يجب أن يذهب إلى الأزهر..

وكانت أمي دون مجاملة للرجل تقول · أعوذ بالله .. أبدًا ! .

ويندهش عمي لذلك فيقول لها : أنا أمامك محترم .

فترد وكأنها وجدت لـه عذرًا أنقذها من الحرج : يقـولون إنهم يصـابون بـالعمى من كثرة القراءة فى الكتب ! .

ويضحك عمي لسذاجة أمي ويقول : بعضهم .. وأنا أمامك نظرى ستة على ستة ! .

ويسألنى عمى : عندك كم سنة الآن ؟

فأقول : أحد عشر عاما .

وأمى تقول · الأول فى المدرسة دائمًا ! .

ويسـألنى : ماذا تقرأ الآن ؟

أقول : كتاب (أدب الدنيا والدين) .

فيرد عمي : ياه .. أنت مثل والدك تحب الحكايات والشعر ..

وتقول أمي · إنه قد حفظ القرآن الكريم ..

عمي سعيدًا : ماشاء الله .. الحمد لله .. ربنا يطرح فيك البركة يا ولدى ! .

وعندمـا كنت أجلس إلى جـوار والدى يسألنى عـن المدرسة والمدرسين ثم يســألنى . وماذا تريد أن تكون يا ولدى عندما تكبر ؟

فكنت أقول له : مثلك يا بابا ..

ـ لا .. لا .. يا ابنى ..

ـ لماذا ؟

ـ لا .. لا .. يا ولدى .. فعملى متعب جدًا .. فأنا آخذ الأرض البور وازرعها.. عمل شاق جدًا .. ثـم أن أحدًا لا يقـدر هذا العـبء الثقيل .. لا .. لا ... أيـة وظيفة فى الـدنيا إلا هــذه الوظيفة ..

ـ لماذا ؟

ـ هـل تحب إذا كانت لك زوجـة وأولاد ، أن تكون دائمًا بعيدًا عنهم .. هـل تحب بعد

موتى أن تعمل بعيدًا عن ماما .. ولا تراها إلا مرة كل أسبوع ..

ـ ولماذا تموت يا بابا ..

ـ يا ابنى كل الناس سوف تموت .. لا .. لا .. يجب أن تكون لك وظيفة أفضل .. هذه الوظيفة تجىء بعد أن تكون تعلمت فى المدرسة وفى الجامعة ..

ـ لكى أكون وزيرًا ؟

ـ لتكون وزيرًا ..

ـ ولكن كيف يا بابا .. وبعد كم سنة ..

ـ بعد أن تتعلم وتتوظف وتجتهد فى عملك .. هل رأيت لما نجحت وكان ترتيبك الأول كيف كنت سعيدًا .

ـ لم أكن سعيدًا ..

ـ لم تفرح ؟

ـ لم أفرح ..

ـ والناس كلهم يقولون لك مبروك ..

ـ لم يقل أحد ..

ـ ماما قالت لك مبروك ..

ـ ماما نسيت لأنها مريضة وأنت لم تقل لى .

ـ مبروك يا حبيبى .. أنت عارف مدى حبى لك ..

ـ قل لى يا بابا لماذا نحن خائفون ؟

ـ من أى شىء ؟

ـ لا أعرف ..

ـ أنت خائف ؟

ـ نعم ..

ـ من أى شىء ؟

ـ من كل شىء ..

ـ أنت الآن خائف ؟

ـ نعم .

ـ من ماذا ؟

ـ من أن تسافر فلا تعود ..

ـ ولكنى أعود يا ولدى .

ـ من أن يأكلنى الذئب .

ـ الذئب ؟ أى ذئب ؟

ـ الذى يأكل الفراخ كل ليلة ..

ـ كل ليلة ؟

ـ من قال لك ذلك ؟

ـ ماما ..

ـ وهل رأيت الذئب .

ـ لا .. ولكنى سمعته وهو يقتل الدجاج .. وكذلك الثعلب .. والثعبان .. والعرسة والعفاريت ..

ـ العفاريت ؟

ـ من قال لك ذلك .

ـ ماما .. إنها تعرف كل شىء .. وما تراه فى الفنجان صحيح .. هى التى قالت إنك سوف تجىء اليوم .. وسوف تكون معك أقفاص وصناديق .. وسوف يكون معك كلب صغير ..

ـ هى قالت ذلك ؟

ـ أى والله العظيم ..

ـ متى ؟

ـ من ثلاثة أيام .. وقالت لى عشرين مرة إننى سوف أكون وزيرًا .. ولن أكون طبيبًا .. ولا عمدة ولا مهندسًا .. ولن أكون فى الأزهر مثل عمى .. ولن أكون مثلك أبدًا ..

ـ هي التي قالت ذلك .

ـ نعم .

ـ متى ؟

ـ كل يوم وأمام كل الناس ..

فأمي سيدة عارفة بكل شيء . وهي قوية . فكل أخواتها يلجأن إليها ويسألنها . ويأخذن برأيها .. وكانت إذا غضبت مع واحد من اخوتها لا تذهب إليه .. بل هو الذي يجيء ويعتذر ويقبل رأسها .. إن واحدًا من اخوتها كان مريضًا . وقالوا إنه على وشك أن يموت . ويريد أن يراها . فكانت تقول : يأتي على نقالة إلى هنا ويعتذر أولاً ! .

وتساند خالى هذا على إخوته وجاء واعتذر ! .

وأخذني والدى من يدى وقال لى : تعال معي نتفرج على هذه الأرض المزروعة قطنًا..

وكان أبي من حين إلى حين ينحني على الأرض ويلتقط الأعشاب ويقلب فيها . ثم يرميها على الأرض .

ويشير لى أن احترس وأنا أعبر إحدى القنوات .. ويمد يده يقلب فى زهرات القطن وفى أوراقه .. وينظر إلى الورقة باهتمام .. ثم يخرج عدسة زجاجية من جيبه ليرى الدودة والفقس والحشرات الأخرى ..

ثم انطلق عيار نارى فسقطت على الأرض . أبى هو الذى كان يحمل بندقية .. ولم انتبه إلى أنه انزلها من كتفه وأطلق النار .. وكانت هذه هي المرة الأولى التى أرى فيها وأسمع عيارًا ناريًا .. ونظرت إلى والدى بخوف واحتراس .. ووجدت الدخان يخرج من فوهة البندقية . وقال والدى . لا تخف . تعال لكى أفرجك على الذئب ! .

لقد أطلق النار على أحد الذئاب فأرداه قتيلاً . وجعل يشرح لى الفرق بين الكلب والذئب. وكنت خائفًا . ولكن أبى هادئ الأعصاب .. وازددت تمسكًا بيده . وكلما نظرت إليه وجدته هادئًا . وبعض السعادة على وجهه .. ثم أشار إلى كل شجرة . وجلس وأسند ظهره إلى شجرة كبيرة وأسندت ظهرى إليه ..

ونمت . ووجدته ضاحكًا يقول : نوم العافية .. أنت نمت يا ولدى .. هل أخافك العيار النارى؟

قلت : نعم .. ولكن معك لا أخاف يا بابا .

والتفت ناحيتي يقول : لحظة واحدة .. انتظرني لحظة واحدة .

وبسرعة دخل حقل القطن .. ووجدت شيئًا يتلوى فى يده .. ولف هذا الشىء فى الهواء ورماه على الأرض .. ثم ناداني . وذهبت خائفًا . لقد أمسك ثعبانًا من ذيله .. وبسرعة لفه فى الهواء ثم هوى بـه على الأرض . ومات الثعبان .. وهذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أرى ثعبانًا .. وإن كنت سمعت عنه عشرات القصص ..

أما كيف كانت صورة والدى فى عينى .. فهو رجـل طويل عريض قوى .. يقتل الذئب ويقتل الثعبان .. الذئب يطلق عليه النار ، والثعبان هو الذى ينطلق وراءه ..

يفعل كل ذلك ويظل هادئًا لطيفًا رقيقًا ..

وفى الطريق استوقفه رجل يتوكأ على عصا . وقال يا عم محمد .

والدى يقول نعم ..

ـ الصداع سوف يفلق راسى نصفين .. ربنا يجعل فى أصابعك الشفا يا عم محمد ..

واقترب والدى من الرجل وراح يدعك جانبى الـرأس بأصابعه .. ثم يتمتم بشىء من القرآن الكريم . ثم يستخرج ورقة من جيبـه ويكتب عليها .. ويطبقها ويعطيها للرجل .. وهو يقول له : بـاسـم الشـافى المعافى .. باسم بـركة قوله تعالى : ونجيناه مـن الغم وكذلك ننجى المؤمنين ...

وأبى أيضًا يشفى المرضى بفضل من الله وأسرار آياته الكريمة ..

وعند مـدخل البيت وجـدنا إناسًـا كثيرين .. وهـم يمسكون بطفل يبكـى ويتمرغ فى الأرض ..

الأب يقول : يـا عم محمد .. الولـد عليه عفريـت .. كاره يروح البيت .. وأمـه حتموت عليه.. يا عم محمد بركتك ساعدنا الله يساعدك على أيامك ..

ويقترب والدى من الطفـل الذى استسلم تمامًا . واقترب والـدى وراح يلعب فى شعر الطفل . ثم يربت على خديه .. وينهضـه ويحتضنه ويتمتم فى أذنيه .. ثم يمسح وجهه وهو حانـى الرأس يقـول : أعوذ بـالله من الشيطـان الرجيـم .. بسم الله الـرحمن الرحيـم ..

ورجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ونجيناك من الغم .. ونجيناك من الغم .. ورجعناك ونجيناك .. ببركة هذه الآية الكريمة .. اللهم أعده إلى أمه كما أعدت موسى عليه السلام ..

ونهض الطفل مع والديه ؟! .

والناس يقولون وكأنهم يهتفون ربنا يبارك فيك ويبارك لك يا عم محمد ...

تمنيت لو سألنى أحد من الأطفال من هو أبى .. تمنيت لو رأى كل الناس ما الذى فعله والدى الذى يؤذن للصلاة ويرتل القرآن الكريم ويحفظ الشعر.. وبأصابعه يخفف الصداع ويشفى المرضى ويعيد الأطفال إلى أمهاتهم .. ولو رأت أمى ذلك .. أتمنى لو أقول لها كل ما حدث .. آه لو رأت وسمعت ما رفعت صوتها على والدى فيسكت ولا يقول شيئًا . وإذا قال فكلمة أو كلمتان .. ويغيب بعدها أسبوعًا أو أسبوعين .. ولكن لابد أن أمى تعرف كل ذلك .. ومن يدرى لعله عالج والدها أو أخوتها أو أمها .. من يدرى . ولكن عندى رغبة قوية أن أقول لأمى كل الذى رأيت وأننى سعيد وفخور بكل ذلك..

وعندما جلست للطعام لم أمد يدى .. وإنما ظللت أتطلع إلى أبى ذلك الرجل الطيب العظيم .. وكلما سألنى : لماذا لا تأكل ؟

أقول : شبعان ..

ـ ولكنك لم تأكل ..

ـ شبعان .

فما الذى رأيته أشبعنى .. ملأ عينى وأذنى ومعدتى وعقلى .. مليان .. كلى مليان .. لقد ملأ أبى كل مشاعرى .

وتسألنى أمى فأقول لها : تعبان ..

ـ تعبان ؟

ـ ثم تنظر إلى والدى كيف انه لم يعالجنى ..

ويسألنى أبى : مالك يا حبيبى ..

ـ تعبان .

ويضع يده على جبهتى ويقول : فعلاً .. أنت سخن ..

وينهض أبى من الطعام . وانفرد بها فاقول لها : يا ماما .. بابا أطلق النار على الذئب.. مات الذئب .. وأمسك الثعبان فمات الثعبان .. وكل واحد شكا من الصداع شفاه .. وكل ولد هربان من المدرسة أعاده إلى المدرسة .. اليوم رأيت ذلك كله .. إنه أعظم رجل فى الدنيا.. أكبر من أى وزير ..

أمى : عندك زجاجة الخل على الرف (وتقول ذلك لوالدى) .

وجاء أبى واقترب منى ورحت أقبل يديه .. ثم ملابسه .. وأبكى ..

وصرخت أمى : إيه المياعة دى يا ولد .. خليك راجل .. قل له يعمل زى الرجالة ..الولد خرج معك مشوارًا واحدًا فرجع بالشكل ده .. ماذا عملت له .. ماذا قلت له .. كل الذى أبنيه فى أسبوع تهدمه فى ساعة .. مد يدك للطعام وإلا قلبت الطعام فوق دماغك !

ونكست رأسى ولم أشعر بيدى ولا شفتى ولا بالطعام ! .

٣

ـ ماما موجودة ؟

ـ . . .

ـ أنت لا ترد ؟ لماذا أنت زعلان على طول كده ..

ولم أكن زعلان ، وإنما هو سؤال لا معنى له . فأمي موجودة دائمًا . ثم إن التى تسأل عنها لا تنتظر حتى أجيب .. وإنما تدخل وبسرعة تجد نفسها فى وجه أمى .. ويبدأ الكلام الذى لا ينتهى . بعضه أسمعه ولا أفهم موضوعه .. وبعضه همس .. والبعض الآخر يجب ألا أسمعه .. وبإشارة من يد أمى مع تكشيرة يكون معنى كل ذلك أن أخرج وأن أجلس أمام الباب ولا أبعد فقد تحتاجنى .. أو أبعد فأتحدث إلى بنات الجيران.. وكنت أحب ذلك .. وكان صمتى ووجهى فى الأرض هو الذى يغرى البنات بالكلام معى .. فهذا الصمت يغرى بالتحدث معى .. أو هو يغرى بالشعور بالأمان فأنا مختلف عن كل الأولاد .. أمى تقول ذلك وأنا حريص على هذا المعنى وهذا السلوك ـ أى انحناء الرأس مع الصمت ..

ـ يا صلاح ..

ـ نعم يا ماما ..

ثم تقول لى أى حاجة .. المهم أنها تتأكد من وجودى أمام الباب وحدى .

وكنت أتمنى أن تجىء جارتنا أم البنتين الجميلتين .. فالأم حلوة .. لها ابتسامة حلوة.. وعيناها جميلتان فيهما مودة وفيها دعوة لأن أقترب .. وكانت إذا تحدثت اقتربت منى

جدًا حتى تمنيت لو أنها احتضنتني ولو مرة واحدة .. وكنت الاحظ ماالذى تقول ابنتاها لها ، وفجأة أجد الأم تحتضن البنتين سعيدة بذلك .

سألتني : ماما جوه ؟

ـ أيوه تفضلي حضرتك .. أهلاً وسهلاً ..

وكانت لجارتنا أم البنتين طريقة لطيفة فى الكلام . فهى تضحك أولاً .. وكأنها تهيئ من يستمع إليها إلى أنها سوف تحكى شيئًا فكاهياً .. فتقول : والله هم يضحك وهم يبكى.. أبو العيال قال إيه بعت جوابًا أمس يقول فيه لا تنتظرونى سوف أجىء يوم الخميس القادم .. وهل يظن أن أحدًا ينتظره .. إنه رجل مفقود على طول .. داهية لا ترجعه ! .

وبسرعة تبكى . وبسرعة تقول لها أمى : ولكن فنجانك يا سعدية حلو قوى .. طيب إيه رأيك إنه يمكن يجيء اليوم وليس يوم الخميس .. والله أنا شايفة واحد مثله طول بعرض وعصاه فى يده .. ووراءه واحد يحمل سلة كبيرة .

ـ بجد يا ست أم صلاح .. يا اختى تبقى لك الحلاوة ..

وفجأة تدخل إحدى بنتيها : يا ماما يا ماما .. بابا جه ! .

ـ أهى دى بقى مش معقولة يا ست أم صلاح .. بسم الله الرحمن الرحيم .. اللهم صلى عليك يا نبى ! .

وحاولت أن أرى هذا الزوج الذى تشكوه ليلاً ونهارًا .. وتضحك من نوادره وتبكى بسرعة وتتهامس مع أمى وأرى التكشيرة على وجهيهما فأخرج بسرعة أمام البيت ! .

وأصبحت لا أتنبه كثيرًا إلى من يدخل بيتنا من الاقارب والجارات .. هل أصبحت شيئًا مملاً . أو أن النوم كان يغلبنى وأنا جالس على الكرسى .. وهل هذا هو السبب فى أن جاراتنا يداعبننى داخلات خارجات .. هذه تمسكنى من أنفى .. وهذه من أذنى وهذه تقرصنى ..

وكانت تعجبنى السيدة عنايات .. إنها سمينة متوسطة القامة .. بيضاء ولها روائح غريبة تسبقها .. غريبة ولكنها لا تضايقنى .. وكانت تضع الغوايش الذهبية فى ذراعيها..

وفى عنقها عقد ذهبى .. وتلم شعرها فى منديل أحمر بنقط زرقاء .. وكانت لها شنة ورنة .. فعلاً تدخل بهيصة وتتكلم بصوت مرتفع ولا يمكن ألا يشعر بها أحد .. وأعتقد أن معظم جاراتنا يستمعن إليها .. فصوتها عال وواضح النبرة .. فهى قبل أن تدخل تدق الباب المفتوح وتقول : أين كنتم بالأمس .. انتظرناكم على العشاء ..

وهى لا تتوقع منى أى رد .. وتدخل .. وتسلم وتجلس وهى تقول : قلت أقابل الحبايب عندك .. مادام أنت كسلت أمس ..

تقول أمى . أبدًا والله أنا كنت تعبانة ..

ـ أنا قلت كده ..

ـ وأنت كيف حالك ؟

ـ حالى زفت بعيد عنك .. المنيل على عينه بعت لى الفلوس مع أخيه وعامل عيان عند الست الجديدة .. يقطعه ويقطعها .. أنا فى يوم من الأيام كنت جديدة .. وبكره هية كمان تطلع لها واحدة جديدة .. ما هو المنيل زى أبوه .. اتجوز أربع مرات ولا خمس مرات .. عينه فارغة .. والواد محروس ابنى امبارح سمعته يقول لأخته : لما أكبر حتجوز عشر مرات .. حيجيبه منين ؟ . زى أبوه وأبوه زى جده ؟ . قطيعة الجواز والخلفة والرجالة .. جات لك أم عليش الدلالة ..

ـ لا .. يمكن النهارده ..

والدلالة هذه هى أهم شخصية .. فهى سيدة لطيفة عندها حكايات من كل مكان تنقل ما تراه وما تسمعه من بيت إلى بيت .. وتقسم دائمًا أن الذى تراه سوف يبقى سرًا وأن الذى تسمعه سوف يبقى سرًا .. وعندما تجىء الدلالة انطلق أنا إلى جارتنا أم حسنين وجارتنا الست عنايات .. وجارتنا الست دولت .. وانهى إليهن الخبر السعيد بمجىء الدلالة الست حلاوتهم .. وحكايات وأخبار الدنيا أهم كثيرًا جدًا من الأقمشة والجلاليب والعقود والأقراط والشباشب التى تحملها على رأسها .. وتحملها ابنتها وراءها ..

وأنا أجد متعة فى حضور الدلالة فهى تحكى عن إناس لا أعرفهم . وأمى تنشغل تمامًا بهذه الحكايات فلا تنتبه إلى وجودى ..

وفي إحدى المرات سمعتها تسأل أمي . وبسلامتها إزيها دلوقت ..

وترد أمي مهمومة : والله ما أنا عارفة يا حلاوتهم .. قالوا لي عيانة وأمي تراها من حين إلى حين .. وأبوها لا يريدها أن تجيء لزيارتي .. وقلبي واجعني عليها ..

ـ أنا زرتها امبارح .. بتسلم عليك وتبوسك من هنا ومن هنا .. وفرحت جدًا بالفستان الذي بعثت به .. وتشكرك .. ولما سألها أبوها عن مصدر الفستان قالت له : أمي هي التي اشترته .. فقال لها : أحرقيه بالجاز .. فقالت : أنا سأحرق نفسي قبل أن أحرق الفستان.. وأنت تعرفين ماذا حدث بعد ذلك .. ضربها بالقلم وألقى بها على الأرض ..

ـ يا حبيبتي يا بنتي .. قدر ومكتوب يا حلاوتهم .. وأنت فاكره إن بعدها عني سهل .. والله دمعتي على خدي كل ليلة ..

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أعرف منها أن لي أختًا غير شقيقة .. ولا أعرف كم تبلغ من العمر .. لابد أنها أكبر مني .. ولكن لا أمي ذكرتها ولا أحد من أقاربي .. وتمنيت أن أراها .. لي أخت .. كيف هي .. شكلها .. لونها .. لماذا لا تعيش معنا .. أراها وأتحدث إليها .. فكل الأطفال لهم اخوات بنات ..

وبعد أن سمعت الدلالة وهي تعرض بضائعها على أمي وصاحباتها هجمت عليها وأقول لها : أريد أن أرى أختي .. أريد أن يكون لي أخت ..

واندهشت السيدات .. ولكن أمي في هدوء وارتياح قالت : سوف آتي بها هنا ياحبيبي.. غالي وطلبه رخيص ! خلاص إن شاء الله .. أنا عارفه انك سوف تحبها .. أنت طيب وهي طيبة يا ابني .

وكل يوم أسأل أمي : هل هي شبهك يا ماما ..

ـ نعم .. ولكنها سمراء ..

ـ طويلة ؟

ـ أطول منك .

ـ وعيناها ..

ـ جميلتان .

ـ وشعرها ..

ـ طويل على كتفيها .. يا واد انت حتجوز أختك ..

ـ هل تحبنى يا ماما ؟

ـ سوف تحبك ..

ـ ولماذا لا تجيء .. أو لماذا لا أذهب إليها ..

ـ إذا جاء خالك .. فاذهب معه لتراها ..

وكان هذا أهم حدث فى ذلك الوقت فى حياتى .. لى أخت .. حلوة .. أطول منى وأكبر منى .. أنها أمى الصغيرة .. إنها صديقتى سوف أحكى لها .. وتحكى لى .. ونجلس معًا أمام الباب ونذهب معًا إلى المدرسة .. وسوف أنظر إليها بلا خوف .. وكل من يسألنى فإننى سوف أقول له : إنها أختى ..

ولى اخوة غير أشقاء .. ولكن لا أراهم كثيرًا .. ولا يدور بيننا حديث .. ولا أعرف لماذا لا يجيئون إلى بيتنا . ولا أعرف أين بيتهم . ولم أحاول أن أذهب إلى بيتهم . لا حاولت ولا دعانى أحد لذلك . وفى إحدى المرات لاحظت أمى اننى قد أمسكت بواحد من إخوتى فى طريقنا إلى بيته . ولكن أمى فى صوت رادع قوى : لا تذهب ! إياك أن تذهب ! .

ومعنى ذلك أن اخوتى يجب أن تظل علاقتى بهم هنا فى بيتنا . لا أبعد ولا أعمق .. زوار مثل كل الزوار .. زيارة وتنتهى العلاقة . ولكنهم اخوتى .. ولم أفهم لهذه العلاقة معنى . ولا حرصت على ذلك .. فهم مثل كل الناس الذين أراهم فى البلاد التى ننتقل إليها وننساهم عند سفرنا .. ولا أعرف لهم اسمًا ولا رسمًا ولا من الضرورى أن أشتاق إليهم.. أو آسف على تركهم .. إنهم إناس يمرون فى حياتى ، أو تمر بهم حياتى .. ويكون الدور نسيانًا سريعًا .. فلا صديق ولا جار ولا أخ ..

إلا أختى هذه فانا الذى أريد أن أراها وأن تكون معى ..

أما أسعد الأيام فهى عندما تجيء خالتى « أم أحمد » .. وليس لها ابن اسمه أحمد .. وهى أجمل من رأيت فى كل حياتى قبل وبعد ذلك .. وأعمق من أحببت .. لقد كانت أمى فى حضور أمى وفى غيابها . وكنت أجد نفسى فى حضنها .. وأمام أمى أنام على ركبتها ..

وأمام أمي وكل النـاس أقبل يديها .. وأجلس ملاصقًا لها .. فتلـف ذراعيها وتقول : أنت ابني ..

وأنا أقول لها : وأنت أمي ..

وتقول لي : أمال أمك دي تبقى إيه ..

فأقول لها : ولكن انت أمي أكثر وأكثر ..

وتضحك خالتي وتقول : واحدة سكر شوية .. وواحدة سكر زيادة ..

كنت أرى وجه خالتي مستديرًا مضيئًا .. والله كان مضيئًا .. لا أعرف كيف .. والله لم يكن هـذا الذي يجري تحت بشرتها إلا نارًا هادئة مضيئـة دافئة .. أما عيناهـا فسبحان الله.. واسعتان عسليتان .. ورمـوشها طويلة سوداء .. وهذه غمازة هنـا وواحدة هناك .. وحسنـة على الجانب الأيسر مـن وجهها .. واذنـاهـا حمراوان .. وعنقها في لـون بشرتها مضيء أيضًا ..

أما إذا غنت خـالتي فأجمل صوت .. في صوتها بحـة انثوية .. وكلامها العـادي كأنه غناء أيضًا . وكنت أجد نفسي دون شعور مني أضع أذني على صدرها أسمع صوتها .. الذي يخرج من أعماقها .. وكانت تضحك خالتي وتقول لي . الواد بيلعب في بطني ..

وتقول أمي : إن شاء الله ربنا يرزقك باللي يشرح قلبك ..

وكانت خالتي لا تنجب ..

ولم تكن سعيدة ..

وفي يوم سألتها : خالتي عندك أولاد ؟

ـ لا يا حبيبي .

ـ لماذا ؟

ـ حكمة ربنا .

ـ يعني إيه .

ـ ربنا مش عاوز !

ـ ومش عاوز ليه ؟

To: www.al-mostafa.com

ـ فيه حد يسأل ربنا .. دى حكمته ..

ـ مش فاهم ..

ـ ولا أنا يا حبيبى !

أمى تصرخ : أسكت . امش اطلع بره !

خالتي . لا .. لا يا شيخـه وهوه قال حاجة غلط .. مهما كان عيـل .. اقعد يا حبيبى .. أنت ابنى .. وأنا مبسوطة .. أنت مش عارف انى أحبك .

ـ عارف ..

ـ أكثر من أى حد فى الدنيا .

ـ وأنت كمان .. أنت أكثر من أى حد فى الدنيا .. أنا عاوز أعيش معاك يا خالتى ..

ـ ونسيب ماما ؟

ـ أزورها كل يوم ..

ـ تزورها ..

ـ يا خالتى أنا عاوز أتكلم معـــك .. أريد أن أتكلـم .. وأن أسأل وأن أعـرف .. مـامـا لا تريدنى أن أتكلم ولا أن أخرج ولا أن أتكلم مع أى أحد ..

ـ إنها تخاف عليك يا حبيبى .. الناس وحشين ..

ـ كل الناس ؟

ـ لا .. مش كل الناس .. لكن لأنك صغير فأنت لا تفرق بين الكويس والوحش .. عندما تكبر افعل ما يعجبك يا حبيبى .. ألست تحب ماما ..

ـ أحبها جدًا ..

ـ هل تتركها وحدها .. أنت رجل البيت فى غياب بابا ..

ـ طيب أعمل ايه إذا كنت عاوز أبقى معاك ومعاها ؟

ـ أسهل اننى أجىء لك كل يوم وأجلس معك لحد ما تزهق منى ؟

ـ بالليل يا خالتى إننى أنهض مـن نومى والدموع على خدى ولا أعرف السبب .. وفى أحلامى أجـدنى كل ليلة ملقى فى بئـر مظلمة والحبال التى تتـدلى كلما أمسكتها تقطعت

وأصحو من نومي صارخًا .. كل يوم ..

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ..

وتنظر إلى أمي .. وأمي تهز رأسها بالموافقة على أن يبخروني ويرقوني من عين رأت ولم تصل على النبي ..

وبسرعة توضع بعض الأخشاب في علبة صفيح ويلقى عليها بعض الجاز وتضع خالتي البخور وتطلب مني أن أخطو سبع مرات فوق النار .. ثم تأخذني في حضنها وتقول لي : خلاص يا حبيبي .. ألف سلامة لك ! .

وتتردد أمي كثيرًا في زيارة بنت خالة لها تسكن عند نهاية الشارع . ولكنها تستعد لهذه الزيارة بأن أرتدي جلبابًا نظيفًا جدًا . وجوربًا أبيض . وجزمة سوداء لامعة . وأمي ترتدي فستانًا جديدًا . وفي كل مرة تذهب لهذه الزيارة تقول لي هذا واجب يا ابني .. وهذه سيدة كلامها كثير . أهي زيارة والسلام ..

وقبل أن تصعد السلم تقول دائمًا : أنت عارف أن عندها بنتين .. وبناتها من بنات اليومين دول .. وأنت يا ابني مستقيم وطيب وتصلي وتخاف ربنا .. وحافظ القرآن وربنا يحميك .. والبنات دول يضحكون على عقول الشبان .. وأنا عارفه أن ربنا معاك .. فأنا أدعو لك ليلاً ونهارًا وربنا سوف يكرمني بك ويعوضني عن صبري .. دروسك فقط ياابني .. ولن ينفعك في الدنيا كلها إلا عملك وإلا مركزك وأخلاقك وفلوسك .. وأنت أمامك طريق طويل يا ابني . وإذا كان ربنا حفظك حتى الآن فلأنك لم تنشغل بأي شيء عن الكتب .. لا تنسْ يا ولدي .. إنهم أغنياء .. وممكن أولادهم يسقطوا سنة وعشرين .. ولكن أنت ياولدي يجب ألا تسقط في الدراسة أبدًا .. أبدًا . وربنا معك ..

ولم أكن أفهم ماذا يمكن أن تعمله بنت إذا رأيتها أو إذا تكلمت معها .. لم أسمع واحدة تقول لي : لا داعي للمذاكره .. أو اترك الكتب .. أو اترك المدرسة .. لم تقل واحدة لماذا لا نلتقي .. إنني أتذكر كل ما تقوله الفتيات إذا جلست إليهن .. وأعيد كل ما قلن كلمة كلمة .. ولا أجد شيئًا يدعو إلى الخوف .. ولا أفهم مخاوف أمي ..

مرة واحدة لاحظت أمي إنني أحمل قرطاسًا من البلح الزغلول وسألتني : لمن هذا ؟

فأشرت بيدى إلى الضيفة التى عندنا ..

قالت : ست انشراح ؟

قلت : نعم .

ـ وما الذى أتى به هنا ؟

ـ ابنتها أميرة تركته معى ثم ذهبت إلى البقال وسوف تعود بعد لحظات ..

ـ هذه آخر مرة .. لا تفعلها مرة أخرى ! .

ـ حاضر يا ماما ..

ولم أفهم ما هى الغلطة التى ارتكبتها وإن كنت وعدتها ألا أعود . ولكن أمى لا تريد أن تكون لى أية صلة بالبنات من أى نوع وفى أى وقت !

وقد لاحظت أن زملائى يتكلمون مع البنات ويضحكون . ويأكلون السندوتشات . ويقفون فى الشارع وأمام باب المدرسة .. وقد أقسمت لأمى أنى رأيت ابن عمى وهو جالس مع فتاة على عتبة بيتها هى ويتكلم معها .. بينما أمها لم تقل لها شيئا .. ولا أمه قالت له أى شىء .

ثم أتيت بالمصحف وأقسمت أننى لا أكذب . وقلت لها : والله العظيم والله العظيم .. والا أروح النار .. لقد أعطاها نصف السندوتش وأخذته وأكلته .. تصورى ! .

وكأننى لم أقل شيئاً . فاقتربت أمى وهى تقول : أنت شكل تانى يا ولدى .. هل تريد أن تغضب عليك أمك ! .

ـ لا .

ـ إذن ؟

ـ حاضر يا ماما ..

ـ يحضر لك الخير يا ابنى ! .

٤

عند أمي نوعان من الناس ..

الأقارب أسوأ الناس ..

والجيران أقل سوءا ..

ولكنها تفضل المسيحيات . لماذا ؟ لم أفهم ..

فإذا التقت بالست أم عزيز سألتها : لماذا لا تزورينا ؟

ويكون رد أمي سريعًا : إن شاء الله بكره ..

ـ تشرف وتآنسي .. بناتي تحبك كتير قوي ..

ـ وأنا أيضًا .. حتى ابني يحب بناتك .. ويقول عليهم .. أجمل بنات المنصورة ..

ـ هوه كمان مؤدب وإن شاء الله سوف يكون شيئًا هامًا يفرح قلبك ..

ـ يارب ياست أم عزيز ..

وبيت الست أم عزيز يبعد عنا ثلاثة شوارع .. يعني بعيد إلى حد ما .. ولكن أمي حريصة على أن نذهب إلى الست أم عزيز .. وأحب شيء في بيت الست أم عزيز أن عندها بلكونة كبيرة . ثم أن الست أم عزيز تفتح الفنجان والكوتشينة . وأمي تقول إنها تتنبأ بأشياء كثيرة مضبوطة .. وكانت الست أم عزيز تتقاضى أجرًا عن قراءة الفنجان . ولكن بعد أن مرض ابنها عزيز قررت أن يكون ذلك لوجه الله .. وألا تعمل على الاساءة إلى أحد .. ويقال إنها كانت تبيع « العملات » ـ بفتح العين والميم ـ وأن بعض هذه العملات كان تخرب البيوت وتفرق ما بين الازواج . ثم قررت بعد أن شفى ابنها عزيز أن تعمل الخير

فقط .. فلم يكن أحد يتوقع لابنها عزيز أى شفاء ولكنها زارت كل الأولياء وكل القديسين وذبحت وأشعلت الشموع .. وشفى ولدها عزيز..

وأمى كانت تصف الست أم عزيز بأن لسانها حلو .. كل كلامها حلو .

فأول لحظة دخولنا البيت تقول الست أم عزيز : خطوة عزيزة .. والله احنا فى سيرتك من أول امبارح .. وأنا وعزيز ابنى قررنا أن نزورك .. فقد جاءنا بلح من الصعيد يستاهل بقك .. وطلبت من مادلين بنتى إنها تزورك وتسأل عن صحتك ..

ـ أيوه قابلتها .. حلوة قوى .. ربنا يفك عقدتها .. جمال وكمال . أدى العرايس والا بلاش..

ـ من ذوقك ..

ـ والعذرا أنا لم أذق طعم البلح وقلت لازم نأكله سوا .. هات يا ألفت .. هات يامادلين.. امال صلاح فين ..

ـ قاعد مع حبايبه .. أنا لم أر ابنى يحب أحدًا قد مادلين وألفت .. ويقول لى : يا سلام يا ماما لو كانوا إخواتى ..

ـ إخواته .. وهو أعز عليهم من أخوهم عزيز .. زيه بالضبط .. ربنا يديم المعروف ..

ـ أنا مش عارفه بيتكلم فى ايه .. أنا شايفاه ما بيطلش كلام ..

ـ دى مادلين وألفت بيقولوا لى . يا ماما .. ده عنده حكايات ونكت .. وحاجات قراها فى الكتب .. حاجات ما بتخلصش أبدًا .

ـ إبنى عنده حكايات .. وعنده نكت .. والله فى البيت لا يفتح فمه بكلمة .. ولكن لما بيجى هنا يبقى سعيد .. وعلى راحته .. ربنا يبسطه وربنا يسعدهم..

وتجيء مادلين ومعها سلة من بلح الزغلول .. وتسألها أمى : بيقول لكم إيه الواد الغلباوى ده ..

ـ والله يا طانط ده عنده حكايات ملفوفة فى خيط واحد .. أنا مش عارفة بيجيب الكلام منين .. يا بخت اللى حتتجوزه .. مش حتزهق منه أبدًا ..

ـ والله يا بنتى أنا مستغربة .. ده فى البيت ما بيفتح بقه بكلمة واحدة . غير : حاضر ياماما .. حاضر يا ماما ..

ـ منتهى الأدب يا طانط .. ربنا يحميه .. مفيش أولاد بالشكل ده دلوقت..

أما طـانط مارسيل فهى التى تجىء بنفسها وتسـأل إن كانت أمـى تريد شيئـاً من السوق .. وإذا جلست ، فإنها تخرج من حقيبتها علبة وفى هذه العلبة بن مخصوص فيه الحبهان والمستكة وأشياء أخرى لا أعرفها . وهى لا تشرب إلا هذا البن .. وهى التى تقوم وتضعه بنفسهـا .. وهى أرملة . وزوجها تـرك لها خمسة من الأولاد أصغـرهم زميلى فى المدرسة . وهو أسمر نحيف طويل . وأنا أكبر منه بستة شهور ـ طانط مارسيل هى التى تقول ـ وهو لا يشترى سندوتشات من الرجل الذى يقف أمام المدرسة . وإنما أمه تضع له السندوتشات فى البيـت ويأخذها معه .. سندوتش جبنة بيضـاء .. وسندوتش حلاوة طحينية .. وبعـد ذلك كان يحمل معـه سندوتشين من الجبنة وسندوتشين من الحلاوة الطحينية ويقـول لى . ماما عملـت لك دول .. هى التـى عملتهم وطبعًا أنـت تحب عمايل ماما.. تفضل .

كل يوم . وإذا لم يجدنى فإنه يمر ببيتنا ويترك لى السندوتشين وهو يقول : إذا عدت بهما إلى البيت فإن مامى سوف تفضحنى وتبهدلنى .. أرجوك !

وكانت أمى تقول : لا تكسف أخوك .. متشكرين يا حبيبى سلم على ماما..

ـ وهى كمان بتسلم عليك يا طانط ..

ـ إزاى الست حنونة ..

ـ الحمد لله يا طانط .

ـ سلم عليها يا حبيبى وقل لها ألف سلامة .. وإن شاء الله حازورها بكره ولا بعده ..

ـ يوصل يا طانط ..

ـ أخرج معاه يا ابنى لحد الباب واشكره ..

أما صـاحب البيـت الذى نسكنه فهـو مدرس اللغة الإنجليـزية فى المدرسـة وزوجته اسمها مدام بركات .. والناس يقولون إنها يهودية ..

يعنى إيه يهودية ؟ يعنى إيه مسيحى ؟ لا أعرف .. ولكن هم أناس مختلفون . فى ماذا؟

لا أعرف .. إنهم لا يذهبون إلى المساجد وإنما يترددون على الكنائس .. ليسوا مسلمين لكن ما هو الفرق ؟ لا أعرف . ولكن هناك شيء غريب يظهر على وجوه الناس وفى كلامهم كلما تحدثوا عن واحد مسيحى أو واحد يهودى .. هل هو نوع من الاستغراب .. من الاستنكار .. من التعالى .. من الخوف .. من الكراهية .. لا أفهم . وأمى لا تقول . ولكن ألاحظ أنها تستريح إلى هذه الناس التى تختلف عنا .. تختلف والسلام ..

أما زوجة صاحب البيت فالناس ينادونها : مدام بركات .. وقد عرفت فيما بعد ذلك بوقت طويل أن اسمها مدام بوركهارت.. وهى يهودية ألمانية .. جاءت إلى المنصورة مع إبنها سام.. سامى.. ابنها الوحيد .. واشترت هذا البيت.. وزوجها مدرس اللغة الإنجليزية.. وهى تسكن الدور العلوى .. ولم يحدث أن ذهبت إليها .. فزوجها مدرس فى غاية القسوة والعنف. ثم إنه صاحب البيت.. وفى كل مرة أذهب إليه بالايجار ثمانين قرشًا فإننى أضعه بسرعة فى يد ابن مدام بركات أمام باب البيت فى الشارع .. فأنا انتظره حتى يجيء ولا أصعد إلى الدور العلوى ، خوفًا من رؤية هذا المدرس المكفهر الوجه دائمًا .

وفى يوم مرضت أمى . وجاءت مدام بركات تزورها . وطلبت أمى أن أصنع لها قهوة سادة .. وقدمت لها القهوة . وطلبت منى أن أجلس إلى جوارها لأنها تريد أن تتحدث معى.. ورأيتها لأول مرة بعد أن سمعت كلامًا كثيرًا عنها وعن حكاياتها .. عن كرمها وأدبها ومساعدتها للمرضى والفقراء وزيارتها لكل مريضة .. وكانت لغتها العربية فيها لهجة مختلفة .. حتى مشيتها مختلفة .. فهى طويلة عريضة شديدة البياض . وشعرها أسود . وعيناها سودوان ووجنتاها حمراوان ورقبتها ممدودة . وإذا جلست كان صدرها عاليًا . وطريقتها فى الكلام واثقة آمرة . ولكنها فى غاية الرقة . ومجاملة جدًا . قالت لى . أنا سوف أعطيك دواء لماما .. وأنا سوف أعلمك كيف تذيبه فى الماء الدافئ وكم مرة فى اليوم وبعد الأكل . لقد جربته وأعطيته لابنى سامى وشفى فورًا . تعال معى ! .

ونظرت إلى أمى فقالت : روح مع مدام بركات يا حبيبى ..

وسبقتنى مدام بركات على السلم . ووجدت زوجها أمامها .. ونزلت من السلم . وهى

بسرعة تنبهت إلى ذلك فراحت تضحك وتقول . يـا ابراهيم أن الولد يخاف منك .. تعال يا حبيبى لا تخف .. تعال ..

ونزلت وأمسكت يدى .. وهي تقـول : مش تتعرف على ابنـى سامي .. إنه يـريد أن يكون له صديق مثلك .. مؤدب ويحب القراءة .. إن سامى سيكون سعيدًا جدًا لرؤيتك .. تعال ..

أول شيء رأيته فى الشقة إنها ملآنة .. فيها أشياء كثيرة جدًا ملآنة بالمقاعد والمناضد والدواليب .. والأرض مغطاة بالسجـاجيد .. وعلى الجدران صـور .. وفى الأركان ورد .. والجدران بيضـاء .. كل شـىء مضـىء .. ولا أعرف مصـدر النـور .. وفى البيت رائحـة غريبة.. لم أعرفها من قبل ..

وسمعتها تنادى : يا سام .. تعال .

وقالت وهي ضاحكة · وهذا هو ابنـى . وهذا هو صلاح .. يجب أن تجلسا معاً .. فهو يقرأ مثلك .. وهو مؤدب .. أخرجا معًا وتفسحا .. واذهبا إلى المكتبة .. دقيقة واحدة ..

ودخلت . ووقفـت أنا وسامى وكـان هو أول من تكلـم فسألنى : هل قـرأت قصـص أندرسن ..

ـ لا ..

ـ هل قرأت كليلة ودمنة ؟

ـ نعم ..

ـ هل تعرف قصةآليس فى بلاد العجائب ..

ـ نعم .

ـ وأنت هل تحفظ شعرًا ؟

ـ القليل بالإنجليزية والفرنسية والألمانية ..

ـ كل الشعر الذى أحفظه بالعربية فقط ..

ـ أنا أحفظ القليل بالعربية ..

ـ هل قرأت كتاب أدب الدنيا والدين ..

ـ لا .

ـ هل قرأت قصيدة (البرده) .

ـ لا .

ـ أنا أحفظها كاملة .. هل قرأت قصة زينات .

ـ لا ..

ـ هل قرأت (الحب والدسيسة) للشاعر الألمانى شيلر ..

ـ لا .. أنا سوف أريك ما عندى من كتب وأنت ترينى ما عندك من كتب .. وإذا أردت أن تتعلم اللغة الألمانية أو الإيطالية فأنا سوف أدلك على من يعلمك ؟

ـ أتمنى .

ـ غدًا نذهب معًا ..

وكان سام هذا هو أول طفل قريب من سنى أندهش له وأعجب به .. فهو يعرف عدة لغات . وهو يقرأ بها .. وعنده مكتبة كبيرة . وعنده حكايات وقصص ونوادر .. وهو نظيف الملابس .. دائمًا ملابسه نظيفة .. وإذا تحدث عن أمه قال مامى .. ويقول حضرتها .. وأمى الحبيبة .. وحبيبتى ..

وإذا اشترى شيئًا فإنه يقاسمنى .. وقبل أن يشترى أى شىء يسألنى إذا كنت أريد نفس الشىء أو شيئًا آخر .. وفى كل مرة أرفض فإنه يصر على أن يعطينى مما يشترى . ويرى انه عيب جدًا أن أرفض ..

ودهشتى لا تنتهى من هذه النوعية الغريبة من الناس ..

وفى يوم ذهبنا إلى محل حمص ولب .. واشترى قرطاسًا من اللب ثم قرطاسًا من الحمص وأعطانى .. ثم اشترى قرطاسًا من السودانى بالسكر وقال هذا لطانط .. فقد لاحظت انها تحبه عندما كانت فى زيارتنا من أسبوع ! .

شىء غريب عجيب . وسلوك غير مألوف . وهو يفعل ذلك بلا تكلف .. وإنما يرى أن هذا عادى جدًا ..

فى يوم سألته بعد أن أصبحنا أصدقاء قل لى أنت عندما تصلى تذهب إلى الكنيسة أيضًا ..

ـ لا .. لنـا معبد خـاص . وإذا أردت أن تجيء معى ؛ فليكـن ذلك غـدًا عند الفجـر .. استأذن من طانط ..

وذهبنا معًا .. إنه مختلف عن الكنيسة .. ولكـن لم أفهم ما هو الفرق بين هذا وذاك .. ولا بين المسيحيين واليهود .. ولماذا هناك فرق ؟ ولم ألاحظ أن هناك فرقًا فى أى شـىء ..

وفى مرة قلت لإحدى خالاتى : أن صديقى عزيز .

قالت : نصرانى ؟

قلت : نعم .

قالت : أعوذ بالله ؟

واندهشت لذلـك .. فقلت لها : ولكن عزيز مؤدب ولطيف ومجامـل جدًا . وأمه تحبنا وماما تحبها .. وبناتها فى غاية الجمال والأدب ..

خالتى وأنت مالك ؟

ـ مش فاهم .. عندهم كتب وعندهم اسطوانات ..

ـ لما تكبر سوف تفهم ! .

وأذكر اننى قلت لخالى وهو رجل ظريف وسيم وابن نكتة : إن لى صديقًا فى هذا البيت اسمه سامى .. وأمه مدام بركات .. وهى يهودية .

ـ يهودية مرة واحدة .. يعنى من قلة المسلمين ..

ـ مش فاهم .

ـ وده بقى شكله إيه ؟

ـ شكله نظيـف .. وكلامه حلو .. وبيقـرا كتبًا كثيرة وبيتكلم سبع لغـات .. وأنا أحبه وماما تحب أمه ..

ـ إيه الكلام الفارغ ده يا ولد .

ـ ليه يا خالى ! .

ـ يهودى ؟

ـ أيوه . يعنى إيه .. إنه أول واحد قلت له أن لى أختًا غير شقيقة وأننى أحبها جدًا ..

ـ حد يعاشر الناس دول ؟! .

ـ ليه ..

ـ أنت حتقعد تسألني ليه .. ليه .. آهو كده وخلاص ! .

وذهبت من فوري ودفعت باب سام وقلت له : سام أنا عاوز أقعد معاك.

ـ أنت ابن حلال .. أنا كنت سأناديك .. ماما سافرت .. وتركت كمية من الطعام .. ولا أعرف أن آكل وحدي .. الحمد لله اللي أنت جيت .. قل لي بقى قرأت إيه أخيرًا .

وظللنا نتناقش في الكتب . وأراه وهو يتكلم وهو يأكل وهو يشرب .. وهو يقدم لي الطعام .. وبعد ذلك الفوطة والصابونة . ثم الشاي .. ويأتي بعدد من الكتب .. ولا أرى أية غرابة في سلوكه .. إنسان طبيعي .. في غاية الرقة .. ودود .. ولا يريد إلا أن يكون صديقًا وأنا أيضًا ! .

أما صديقي عزيز فقد ورث صناعة والده فهو يصلح الساعات والمنبهات .. وفي يوم عرض أمامي عددًا من المنبهات وكيف فكها وأصلحها .. ثم أعطاني منبهًا . وأقسم بالمسيح وحياة طانط ألا يأخذ مليمًا .. لأن هذا المنبه جاءه .. ببلاش ..

ونظرت إلى عزيز .. له عينان وشفتان وخمسة أصابع في كل يد .. ويتكلم العربية .. وأمه جذابة .. وأخواته جميلات .. وبيته مفتوح في أي وقت .. ويرحب بي ويصافحني ويسأل عن صحة أمي جادًا صادقًا .. ولا أجد في سلوكه أي شيء شاذ يبعث على الشك أو الخوف أو يدعو إلى الاحتراس والابتعاد ! .

لا خلاف لا اختلاف بين كل الناس من كل لون ودين .. ولكن لماذا اناس مستعدون دائمًا لوضع فواصل وهمية ومخاوف مزيفة لتمزيق العلاقات الإنسانية .. لماذا ؟ لم أعرف ..

وعندما رآني واحد من أعمامي أنني أجلس في إحدى الحدائق مع سامي وعزيز فقلت له : سامي بوركهارت يهودي .. وعزيز قلدس مسيحي .

انزعج عمي قائلاً : ما هذا ؟ واحد يهودي وواحد قبطي ؟! وأنت إيه درزي ؟ هذا هو السبب في أن ابن عمك يهرب منك .. لانك ملموم على شوية كفرة ..

قلت لـه : ولكن ابن عمى هـذا يشتم أمه .. أنـا رأيته يلقى بالطعـام فى وجهها !.. والله العظيم يا عمي أنا رأيته بعينى .. وهو يعاكس البنات .. وهو لا يحب الكتب ..

ـ من الذى قال لك ذلك ؟

ـ هو الذى قال ..

ـ إنه كذاب .. هو الذى قال لك إنه يشتم أمه ..

ـ لا أنا سمعته .. ولم يخجل من ذلك ولا اعتذر لها .

ـ يا سلام .. يا واد يا مؤدب أنت ؟ وأنت لا تتخانق مع أمك .

ـ لا ..

ـ وإذا ضربتك ؟

ـ حتى إذا ضربتنى ..

ـ والكفرة دول همه اللى علموك الأدب ؟ ! إياك أشوفك معاهم مرة ثانية !.

وانصرف سامى وعزيز ..

واعتذرت لهما عن الذى حدث .. ووجدتنى فى حاجة إلى أن أؤكد صداقتى لهما .. وكانا أعز الأصدقاء ..

٥

قرأت رواية مترجمة إلى العربية عنوانها « أيام فى قريتى » .. ولا أذكر اسم مؤلفها . واعتقد أنه كاتب فرنسى ..

وأما الاكتشاف الذى وجدته فى هذه الرواية فهو أن إحدى شخصياتها كانت تنظر من ثقب الباب على خادمة تستحم .. وكان ذلك حدثًا مثيرًا جدًا .. قرأت الصفحة مرة ومرة .. واندهشت كيف أن أحدًا قد اهتدى إلى هذه الحيلة لكى يرى فتاة فى العشرين تخلع ملابسها وتنظر إلى نفسها فى المرآة وتدور .. وترى نفسها من الأمام ومن الخلف.. وكيف انها تتحسس جسمها بيديها . بيديها وكيف انها تلم شعرها . ثم تنشره على وجهها وعلى كتفيها .. وكيف ترتدى ملابسها ثم تخلعها .. وتبدل ملابسها وفى كل مرة تقف أمام المرآة .. وكيف تضع وردة فى شعرها ثم فى شفتيها .. ثم فى صدرها .. ثم كيف تقبل كتفها هذه وكتفها تلك .. ثم تقبل ذراعيها .. ثم تداعب نهديها.. ثم تستدير لترى ظهرها . ثم تتمدد على الأرض وتتقلب يمينًا وشمالاً .. ثم تنام على ظهرها .. ثم على وجهها ..

لا أعرف كم مرة قرأت هذه الصفحات .. وكم مرة تخيلت .. ثم أخفيت هذا الكتاب وكتبًا أخرى فى مكان بعيد .. لكى أعود إليها وأقرأ .. ولا أذكر أننى حدثت أحدًا عن ذلك .. وعلى الرغم من أن أمى لم تكن تعرف القراءة ، فإننى ما كنت أقرأ هذا الكتاب فى حضورها..

واكتشفت أننى أيضًا كنت أفعل شيئًا من مثل ذلك دون أن أدرى .. فكنت أجلس أمام البيت لأرى الفتيات وهن يغسلن الملابس فى الطشت .. وكانت الفتاة تضع الطشت بين ساقين منفرجتين .. عاريتين أيضًا ..

وعرفت لماذا كان الشباب فى القرية يجلسون عند الترعة .. ليشاهدوا أجمل استعراض للسيقان فى القرية .. كل يوم عند العصر أو قبل الغروب .. فالفتيات كلهن يذهبن يغسلن الأوعية فى الترعة .. ويملأن البلاليص من الطلمبة .. وكانت الفتيات يعرفن أن الشباب كله فى انتظارهن هناك .. فكانت الفتاة وهى عائدة إلى البيت تحرص على أن ترفع طرف ثوبها.. ليظهر ثوب أحمر أو وردى أو أبيض ومن تحته يظهر جانب من الساق .. أما الصدر فقد كان مركز العيون كلها .. فالفتاة فى الريف لم تكن قد عرفت السوتيان .. فصدرها رجراج بارز .. وكانت الفتيات يتعمدن إسقاط ماء البلاص على الصدر .. فيلتصق الثوب بالصدر ويبرز النهدان أكثر وأجمل ويهتزان مع كل خطوة .. أما البلاص فكان فوق الرأس .. وكانت الفتاة تتعمد أن تضع شيئًا مستديرًا من القماش على الرأس .. وأن يتدلى هذا القماش قليلاً على العين .. وبذلك ترانا الفتاة دون أن يبدو أنها ترى العيون التى تأكلها منذ غادرت الماء ..ثم تتعثر وتفتعل أنها كادت تسقط وأنها لذلك صرخت لكى يلتفت إليها الشبان أكثر .. وبعض الفتيات أشد جراءة وأبرع حيلة .. فهى تأتى فى يديها ببعض الحلل .. ثم تريد من يساعدها على رفع البلاص .. وهنا يتسابق الشبان .. ولكنها طبعًا تقصد واحدًا لتقول له كلمة أو يقول لها .. وكان بعض الشبان يعرفون ذلك .. فيطلبون فلانًا أن يذهب بسرعة لأنها لا تريد سواه ..

وكانت هناك حكايات عن فتيات ينزلن إلى النيل بالملابس كاملة .. وكانت الجلاليب تلتصق بالجسم كله .. فيبدو كل شىء .. وتقف الفتيات فى مواجهة الجميع تعرض الساقين والنهدين والردفين وجدائل الشعر الطويل .. وكان الشبان يجلسون بعيدًا وراء الأشجار يرون ذلك .. والفتيات يتظاهرن بأن أحداً لا يراهن وأنهن لا يرين أحدًا!.

وعرفت أننى عندما كنت أذهب لانتظار صديقى عزيز عند الكنيسة .. لم يكن ذلك إلا لكى أرى هذا العدد الكبير من الفتيات داخلات خارجات .. وكان يعجبنى أكثر دخول الفتيات إلى الكنيسة .. على الوجوه مسحة هدوء وحزن وضعف .. وقد انحنت الرءوس إلى الأم .. تمامًا كما يعجبنى منظر الفتيات وهن مقبلات على حلبة الرقص .. نفس الاهتمام والجدية والخفة .

مرة واحدة رأيت حفلة راقصة .. وكان ذلك من بين أشجار إحدى الحدائق . وبسرعة جاء واحد وقال : تعال .. ادخل تفرج .. أنا أعرف إنك صاحب عزيز وشفيق ! .

وخجلت . ودخلت ..

* * *

وكانت الصفحة الأخيرة من جريدة « الأهرام » بها صور لفتيات كثيرات .. ورأيت أغلفة كتب « روايات الجيب » عليها صور وصدور وسيقان ..

وقطعت الصور واحتفظت بها ..

وفهمت لماذا قبل ذلك بسنوات كنت أترك بيتنا مبكرًا وأذهب إلى جار لنا كان ينام أمام البيت في الصيف .. وكانت زوجته تنام إلى جواره أيضًا .. هو ينام مكومًا بالقرب من الحائط وهي تحتضن أحد أطفالها .. وقد تعرت إحدى ساقيها . وأحيانًا الساقان .. وأظل جالسًا إلى جوارهما حتى يصحو ويقول لي : أهلاً . هذا موعد الشاي بالنعناع .. صباح الخير .

بعدها نصلي معًا .. الله يفتح عليك ..

بالصدفة وجدت كتابًا عنوانه (الحكايات اليومية معناها ودلالتها الخطيرة) ـ أظن هذا هو العنوان .. وهو مترجم أيضًا .. بقلم عباس افندي دمشقية .. ولم أفهم الكثير من تراكيبه الشامية . ولكن القليل الذي فهمته قد هزني بعنف . فتح عيني على الآخر .. فتحهما على أعماقي .. ثم اعتدت أن أقلب في أعماقي .. وأن أنكش وأن أخربشها وأن استخرجها وأعيد النظر فيها .. وقد فتحت على نفسي فتحة لم أفلح في سدها أو تضييقها.. وهي عادة سيئة جدًا أن أتأمل كل تصرفاتي وأن أتفهمها .. وأن أفعل ذلك مع الآخرين .. وكنت أبالغ في تفسير كل شيء ..

ففي الكتاب أن قص الأصابع والتدخين نوع من استمرار الرضاعة .. وأن الغرض من الأحمر والأبيض عند المرأة هو لفت نظر الرجل .. وأن هذا المعنى جنسي . وأن الحيوانات تفعل ذلك أيضًا .. فالديك له ألوان في رأسه وحول رقبته .. وكل الذكور أجمل من الإناث..

والغرض من هذه الألوان واستعراضها هو جذب الأنثى .. وكذلك الإنسان .. فالرجل يتأنق فى ملابسه ويسوى شعره وشاربه ويتألق فى كلامه فى حضور المرأة .. كل ذلك لكى يجذبها .. فهذا هو نداء الجنس للجنس ..

ويقول الكتاب إذا وجدت واحدة تسأل واحدة أخرى عن رجل فإنها تقول : طول بعرض .. وشعر ناعم وشنب .. وهدومه نظيفة .. وجزمته لامعة وأصابع مسحوبة ..

فلم تقل شيئًا واحدًا عن أفكاره أو ثقافته .. وإنما فقط عن منظره وأناقته.. كأنها دجاجة تصف ديكًا لدجاجة أخرى ..

وفى الكتاب أيضًا أن الملابس لم يخترعها الإنسان لوقايته من البرد وإنما اخترعها أيضًا لكى تبرز تفاصيل جسمه .. المرأة تختار الملابس (المحزقة) .. الملابس المكسمة لكى تبرز نهديها وردفيها وصدرها وساقيها .. ولا فرق بين الرجل إذا راح يخطب امرأة ، وبينه وهو ذاهب لشراء ذبيحة .. فإنه يقلب فى البقرة وفى الجاموسة ليتأكد من سلامتها وصحتها ولحمها وشحمها .

وكذلك الرجل إذا ذهب يتزوج فليس فى استطاعته أن يفعل كل ذلك .. ولكنه يسأل أخته أن تدله على صفاتها .. ثم يبعث بأمه تحتضن العروس لتعرف إن كان صدرها مشدودًا .. وإن كانت لها أرادف مستديرة وإن كان خصرها نحيلاً وإن كانت ساقاها جميلتين متباعدتين من تحت أو ملتصقتين من أعلى .. وإن كان شعرها طبيعيًا وليس باروكة .. وإن كانت أسنانها سليمة فالأم تعطيها عود قصب لتمصه أمامها .. وتتأكد كذلك من سلامة عينيها وأذنيها . ثم تتلمس ذراعيها وساقيها وظهرها .. وكل ذلك تنقله إلى العريس وتقول له : عرفت تنقى يا عريس .. مبروك عليك ! .

ولم يكن ذهابى إلى المقابر إلا لكى أرى بعض الفتيات يتمرغن من الحزن على الأرض.. ويلطمن خدودهن .. ويبكين .. وبعد ذلك يهدأن تمامًا .. ويأكلن ويشربن وكأن العويل واللطم والسقوط على الأرض قد أراح أعصابهن تمامًا فزاد وجوههن جمالاً ـ شىء عجيب!.

وكنت أرافق أمى وخالاتى فى زيارة واحدة شيخة مبروكة اسمها الحاجة « أمر الله».

هذه السيدة تقيم عادة عند أطراف المدينة وأحيانًا فى ضيافة بعض الناس .. غالبًا الأغنياء أو بيت العمدة .. وتجيء إليها السيدات من كل مكـان يحملن إليها السكر الناعم والسكر الخشن وماء الورد .. ويطلبن منها البركة ..

هذه تقول لها : ظهرى يوجعنى يا حاجة ! .

وتمتد يد الحاجة إلى ظهرها .. وتتحسسه ثم تقرصها .. وتضحك الاثنتان وتقول لها. يابت ما تبقيش بعيدة عن جوزك كثيرًا ! .

فتضحك الأخرى وتقول لها : يا حاجة بعيد عنك زى الثور ! .

وتجيء واحدة وتقدم لها واحدًا من أطفالها . وتقـول الحاجة . اسم الله عليه .. ماله .. عاوز يتغذى الخير كتير .. إعملى لـه الفطير بالسمنة والعسل والقشطـة .. اهرسيهما مع بعض وخليه ياكله بصوابعه ..

وتقول أم الطفل : غلبنا يا حاجة .. مش راضى ياكل ياحاجة .. تعبت معاه ..

ـ هاتيه .. قربيه شوية .. تعال يا واد أنت .. حقيقى مسعد .. وبكره تقولى الحاجة أول واحدة شافت لك ده ..

وتضع الحاجة قطعة من السكر فى فمها .. ثم تحشرها بين شفتى الطفل ..

وتلتفت الحاجة إلى أم الطفل ' وأنت يا بت إيه الحلاوة دى .. تعالى يا بت هاتى بوسة..

ـ باستك العافية يا حاجة ..

ـ خلينى أشوفك ..

وتدخل أمى وتسلم على الحاجة وتبوس يدها .. وتقول لها الحاجة : خير إن شاء الله..

ـ خير يا حاجة .. ابنى ده

ـ ماله ..

ـ والله ما أنا عارفـه يا حاجة . يقوم من النوم مفزوع .. كـل ليلة ويصرخ.. وكل يوم أخده فى حضنى وأغطى رأسه باللحاف والبطانية .. ويقوم يرفع كل ده ويعيط . ويقول هاتوا لى أختى .. هاتوا لى بابا ..

ولم أكن أعرف ذلك .. ولا أمى قالت لى أن هذا يحدث كل ليلة ..

سألتها الحاجة : من إمتى ؟

ـ من سنوات ..

ـ أبوه بسلامته فين ..

ـ مسافر ..

ـ والمسافر لا يعود ؟ .

ـ يعود مرة أو مرتين فى الاسبوع ..

ـ وأخته فين ؟

ـ أخته فى بيت أبوها .. وأبوها رجل شرانى .. عارف الولد بيحبها ولكن لا يوافق على أن تجىء إليه خوفًا من أن أحتفظ بها .. وهوه لا يحبها ولكنه رجل عنيد ..

والتفتت الحاجة ناحيتى وقالت لى : تعال يا شاطر .. اللهم صلى على النبى .. النور فى وجهك يا ابنى بكره تقول الحاجة قالت .. الواد ده خدى بالك منه ..

ـ اسمه أنيس واحنا بندلعه ونقول يا صلاح ..

ـ وهوه أنيس .. وإن شاء ربى حيصلح حاله .. ويصلح حالك . ولى الحلاوة .. حيكون أكبر من العمدة .. وأكبر من المأمور ..

ـ وزير يعنى ..

ـ إن شاء الله .. تعال .. قرب يا ابنى ..

وراحت تمسح على رأسى وعلى رقبتى وعلى صدرى .. وعلى وجهى .. ووضعت يديها على عينى .. ثم راحت تنفخ فى عينى ..

وسمعت أمى بعد ذلك تقول لخالاتى وأقاربنا إننى منذ زيارة الحاجة لم أعد أقفز من نومى مذعورًا .. ولم أعد أصرخ أنادى أبى وأختى . وأن الحاجة « أمر الله » بركة من بركات الله ..

وكنت أجىء إلى الحاجة مع خالتى الصغيرة وهى شابة تكبرنى بقليل .. وكانت هى الأخرى ترافق عددًا من قريباتها وصديقاتها .. وكانت الحاجة تقول لهن لابد أن تغسل سيقانهن بماء الورد المبارك ـ أى الذى باركته هى .. فهذا يعجل بالزواج .. وكانت تجعل

للفتيات غرفة خاصة .. وكنت أحشر نفسي مع الفتيات لكي أرى .. وكانت الحاجة تقول : اطلع يا واد أنت يا أبو عيون تندب فيها رصاصة ..

وكانت خالتي تقول : حرام عليكِ يا حاجة .. ده شيخ .. وحافظ القرآن ..

ـ وهوه يعني القرآن يمنع المشايخ من الشقاوة .. خليه يا اختي مادام أنت عينك منه..

ـ عيني منه ؟ . ده ابن أختي يا حاجة .. ده أنت اللي شفتيه يا حاجة ولا انت ناسية! .

وكنت أذهب وحدي .. ووجدت عددًا من الصغار في مثل سني يذهبون سرًا .. ولكنهم أكثر جرأة .. فبعض هؤلاء يتظاهرون بالألم في السيقان ويجلسون بين الأمهات والفتيات ويذهبن في التمثيل لدرجة التظاهر بالوجع .. ويطلبون من الفتيات أن يساعدنهم على الوقوف والذهاب إلى الحاجة .. ويكتفون بالجلوس والحديث مع البنات .. ثم لا يذهبون إلى مقابلة الحاجة ..

ولم أعد أذهب للحاجة بعد أن رأيت خالتي تذهب إليها وتحمل معها طعامًا وشرابًا وملابس لكي توزعها على الناس .. وعندما رأيت خالتي تبكي وتبكي .. وتلطم خديها .. وتشد شعرها .. وقد حاولت أن أمنعها وأبكي مثلها .. وكانت الحاجة تقول لها : سيبها تفضفض .. سيبها يا واد انت .. أبعدوه من هنا ..

وكانت خالتي تذهب منذ الصباح ولا تعود إلا في الليل شاحبة مريضة .. وتظل تلازم فراشها أسبوعًا وربما أكثر .. وعرفت أن خالتي تنفذ كل ما يقال لها لعلها ترزق بالطفل.. ولم ترزق ..

ولم أعد قادرًا على أن أرى هذا الذي تفعله خالتي . وما تفعله سيدات أخريات كثيرات.. رأيت واحدة قد غطت كل جسمها بالطين .. وذهبت ومعها طشت لكي تغسلها الحاجة .. ثم تعبئ الماء في حلل .. وتلقى بما في هذه الحلل أمام بيتها .. وأمام بيت الذين يكرهونها ويكون ذلك في منتصف الليل أو قبل طلوع الفجر ! .

٦

ـ يا ابنى مش تقول إنك خارج ؟

ـ آسف يا ماما .. أنا افتكرتك نائمة ! .

وكنت كاذبًا . فأنا صرت أفعل ذلك منذ وقت طويل وعلى فترات متقطعة .. فلم أعد أرى من الضرورى أن أسأل أمى إذا خرجت وإذا قررت أن أنام أو أتناول طعامى .. فأنا أفعل ذلك دون إذن منها .. لقد أحسست أن لدىّ رغبة فى أن أفعل كل ما يخطر على بالى .. فلم أعد صغيرًا .. أنا الذى أقول .. ولكن أمى تقول : إنك ما تزال طفلاً .. وهل يعنى ان بلوغ الثانية عشرة معناه إنك رجل .. سوف تبقى طفلاً مدى الحياة .. فأنا لا أراك قد كبرت أبدًا يا ابنى .. وحتى لو كان عندك أولاد وأولادك عندهم أولاد سوف أراك صغيرًا .. فاهم ..

وأقول : حاضر ..

ولا أعرف معنى هذه الكلمة .. ولا معنى الموافقة . ولكن يجب أن أصدق على ما تقوله أمى ..

ولاحظت أمى أننى أتأخر عن الساعة السابعة . ومرة عدت إلى البيت فى الثامنة .. ولم أعتذر لها عن ذلك .. وكانت وحدها فى البيت .. أما أخى الأصغر فكان نائمًا ..

وأحيانًا أدخل الغرفة وأقفل الباب وأتفرج على الصور أو أعيد قراءة الصفحات المثيرة جنسيًا ..

وقد رأيت صديقى عزيز يقف أمام أمه ويرفع يده فى وجهها ويقول لها : كفى . أنا لم أعد طفلاً .. وسوف أسهر زى ما انا عاوز وأشرب سجاير .. أنت تشربين وبابا يشرب .. وبابا شرب السجاير وهو أصغر منى بزمان .. هوه اللى قال لى كده ! .

أما أنا فلا أستطيع أن أفعل ذلك لوالدتى .. ولا أن أقول لها أى كلام من مثل هذا ..

وسمعت مدام بركات تقول لابنها سامى : يـا سام .. كفاية يا حبيبى البنات .. ياأخى واحدة كفاية .. اثنين .. لكن مش عشرين واحدة ! .

يا خبر إنها لا تمانـع فى أن يعرف واحدة واثنتين وهو لا يكتفـى بواحدة .. تقـول كل ذلك وهى تضحك .. وسمعتها تحكى نفس الحكاية لوالدتى .. ووالدتى لا تعلق بشىء .. وترى أن مدام بركات لأنها أجنبية تفعل بابنهـا ما تشاء .. ويفعل ابنها ما يشاء .. ولكننا مختلفون . وأنا بـالذات مختلف .. ولم تعلق أمـى على شىء من ذلك .. فكـأنها لم تسمع وكأننى ! .

هل أنـا الذى بـدأت بالحديث مع فاتيما .. اسمهـا فاطمـة .. ولكن لأنها فى مـدرسة فرنسية فإنهم ينادونها فاتيما .. لا أعتقد اننى الـذى بدأت .. فأنا عادة لا أبدأ ولا أجرؤ.. إذن هى التى نظرت وضحكت وأنا الذى أحنيت رأسى وضحكت .. وظللـت كذلك إلى أن عدت إلى البيت .. وفى نيتى أن أعود إلى نفس الشارع مرة أخرى فى نفس اليوم لعلى أراها .. أو لأننى سـأراها ..

ومن بعيد رأيـت واحدة تمشى مثلها .. بـل كنت أقارن بين الفتيات مـن بعيد .. هذه أقصر .. هذه أطول .. هذه أسرع .. هذه أكثر بياضًـا .. هذه أكثر سمـارًا .. وفجأة وجدتها. ورفعت رأسى أنظر إليها . وكانت الابتسـامـة عريضة كأنها دعوة لأن نستأنف النظر أو كأن معنـاها أننـى تلقيت ابتسـامتك وأردهـا الآن .. وأريد أن يبقـى الابتسـام والكـلام والسـلام واللقاء بعد ذلك.. وعندما اقتربت منى ابتسمت أكثر وقالت لى : بونجور ..

وابتسمت ولم أقـل شيئًا . وظللت أنظـر إليها وهـى تبتعد .. وقبل أن تتـوارى عادت فنظرت فـوجدتنـى فى موقعـى .. فأشـارت برأسهـا أن أتبعها .. وبسرعـة ذهبت .. ولم أجدها.. لا هنا ولا هناك .. وتضايقت جدًا .. واتهمـت نفسى بأننى توهمت اننى رأيتها .. وفجأة ظهرت وكانت قـد اختبأت فى مدخل أحد البيوت لعلها ترى مـا الذى سوف أفعله وتأكدت تمامًا من أننى وقعت . فاقتربت منى وقالت : الليلة سوف نزوركم .. أنت تعرف إننا أقارب ؟

ولم أعرف أن أقول ولا أن أرد ولا أن أسمع ولا أن أنتظر لقاءها .. ولم استوعب شيئًا من الذى قالته .. ولكن سمعت شيئًا يشبه هذا : ماما قريبة زوج خالتك .. وماما صاحبة مامتك .. وإذا كانت ماما ومامتك فى الداخل جلست معك فى مكتبك الساعة السابعة ..

ومدت يدها وضغطت على يدى .. كهربتنى .. صعقتنى .. تبددت يدى فى يدها .. حتى ظننت وأنا عائد إلى البيت إننى سحابة تملأ الشارع أو اننى دون شعور حتى عندما دخلت بيتنا دخلت بالجانب كأننى انتفخت فظننت أن الباب سوف يضيق عني..

ماذا حدث ؟ لا أعرف . وكيف تطورت مشاعرى بهذه السرعة .. وحاولت أن أستعيد وجهها .. لا أعرف .. أن أستعيد صوتها .. مشيتها .. حركتها .. اقترابها ابتعادها .. ابتسامتها .. لم أستطع .. إنها أصغر منى ، ولكنها أكثر جرأة وأكثر ثقة بنفسها .. وشعرت بالخجل الشديد .. فلابد أنها أدركت اننى ضعيف .. وإننى بلا تجربة وإنها أول واحدة .. وإنها استمدت قوتها من ضعفى .. ويقينها من اهتزازى .. وإنها نسفتنى وحولتنى إلى ذرات . ولم أعد قادرًا على جمع شتات نفسى .. لم أعد قادرًا على جمع كل هذه الشظايا فى هيكل عظمى واحد .. كيف ؟ ثم كيف هى بهذه القوة .. تكلمت وحددت وقررت . واختارت المكان الذى تجلس فيه أثناء جلوس أمها وأمى .. وكيف رأت كل ذلك بوضوح .. ولابد انها سوف تسألنى عن عدد البنات التى أعرفها .. ولن أكذب عليها .. ولا أعرف ان كانت البنت تحب الولد الذى لم يعرف غيرها .. أو الذى يعرف .. أو الذى عرف أو الذى يطب ساكتًا أمامها .. أو الذى لا يهتم بها .. لم أعرف .. ولم أسأ ل أحدًا . ولا سمعت . فأمى ترى الشر إمرأة . وترى الأقارب عقارب .. وترى الخراب أمام الباب .. وترى أن الذى يبتعد عن الكتاب أو الكراسة يموت غرقًا . وأن المستقبل مفروش بالكتب المدرسية والأخلاق .

ولكن عزيز الذى هو غيرى يعرف بنات كثيرة .. قد رأيته فى الكنيسة يقبل هذه ويغمز لتلك ..

وسامى يتكلم لغات لا أعرفها مع بنات ألمانيات وإيطاليات ويونانيات .. ويقبل الجميع .. ويأكلون معًا ويرقصون .. وماما تحب سامى جدًا . وتطلب منى أن أصادقه

لانه في غـاية الأدب . ولأنه ابن نـاس .. ثم ان أمي سمعت مـدام بركات تشكو مـن كثرة البنات الـلاتي يعـرفهن .. وأمـي تسمع كـل ذلك وتـرى أنني مختلـف . ويجب أن أظل مختلفًا.. ولا أدرى ما الذى يمكن أن تقوله أو تفعله لو رآتني أتحدث إلى فاتيما .. أو علمت انها تداعبني .. وهي تحب الضحك والمداعبة .. وإذا تكلمـت فإنها تمسك ذراعي وأحيانًا تضربني بالبوكس .. ثم إن صوتها مرتفع وكل شيء يجعلها تضحك!.

لا أعرف مـاذا يحدث لي .. فكل شـيء يحدث لأول مرة .. ولا أعـرف ان كانـت المرأة الأولى هي الأخيرة أيضًا ؟

ـ لماذا لا تأكل ؟

ـ تعبان يا ماما ..

ـ مالك يا حبيبي .. إنت بقى لك كام يوم مش عاجبني .. مالك ؟

ـ ولا حاجة يا ماما ..

ـ حد قال لك إن بابا عيان .

ـ لا .. عيان ؟ عنده إيه من قال لك ؟

ـ ولا حاجة .. زكام بسيط .. ولكنه أحسن . وسوف يجيء غدًا .. أمال زعلان ليه ؟

ـ ولا حاجة ..

ـ آه عـرفت .. علشـان أختك كـان مفروض أن تيجـي النهاردة .. ولكـن بنت عمتهـا ماتـت.. كلها كـام يوم وسوف تجيء .. إنها فصلـت فساتين جـديدة .. والله دى حـاجة تضحك .. أختك عاملة زى ما تكون عروسة جـاية تقابل عريسـها .. انت تلبس لها هدوم جديدة .. وهية محضرة هدوم جديدة ..

ولم ارد عليها . كـأنني أريـد ان أقول لها أن هـذه هي الأسبـاب .. ولا توجـد أسباب أخرى .. ولم أكن أعرف أن كل ذلك قد أصبح واضحًا على ملامحي !

وطلبت مني أمـي أن أذهب إلى الأجزخانة . وذهبـت وهناك قابلت سامـي ومعه فتاة جميلة . وبسرعة قدمني لها هكذا .

أعز أصـدقائي .. والذى ينـافسني في قراءة الكتب وفي تعلـم اللغات .. أنا عـازمه على

شاى النهاردة عندنا .. تيجى .. لازم تيجى ..

فقلت : واحدة قريبتى سوف تزورنا هى وابنتها ..

ـ ابنتهـا ؟ تعال أنـت وإبنتها .. أقـول لك .. أنا سـوف أنزل لـك وأستأذن طـانط فى دعوتكما معًا إلى الشـاى ! .

يا فرج الله قد جاءنى من السماء ..

وفعلاً بعد لحظة واحـدة من دخول فاتيما وأمها كان سـامـى يدق الباب .. ودخل إلى أمى وصافحها وقبلها فى جبينها ويدها أيضًا وهو يقول : يا طانط .. اسمحى لهم يشربوا شاى معانا فوق ..

طيب يا حبيبى ! .

وحتى بعد أن مضى ذلك الوقت الطويل جدًا فإننى لا أعرف كيف أصف ما حدث وما لم يحدث .. ولا أعرف كيف أحشر المعانـى فى كلمات والكلمات فى سطور ولا أعرف كيف أربط هذه الكلمات وكأنها حيوانات وحشية لها أنياب ومخالب وقرون ..

وكان لابد أن أصعد السلم الذى صعـدته عشرات المرات .. ولكن أحسست كأن السلم يصعد إلى السماء .. كل سلمة تدفعنى ترفعنى تجرنى تسبقنى إلى فوق .. وكأن السلم لا أول له ولا آخر .. وكان السلم مظلمًا .. ولكن فجأة ظهـرت لقدمى عيون ترى.. وتضىء لنفسها كيف تـرى أوضح .. ولا أعرف أية قوة غـريزية دفعتنى لكى أمسـك يد فاتيما .. وذراعيها وأساعـدها لكى تصعد .. وكيـف ألف ذراعى حول خصرهـا .. ووجدتها تميل ناحيتى ووجدتها تقترب منـى .. وتقبلنى .. أعتقد أننى الذى قبلتها .. شفتـاها ساخنتان وأنفاسها سريعة .. هل هـى التى تسللت من ذراعى .. أو أنا الذى أفقت لأجـد سامى هو الآخر يعانق صديقتـه قبل أن ندخل الشقة .. ثم نظر لى سامى وهـز رأسه وهو يندهش كيف أننى خبير هكذا وأتظاهر بالبراءة والسذاجة والحياء ..

ولا أعرف ولا أدرى كيـف أمضيت الوقـت .. سامى يتكلم طـول الوقت وينتهـز كل فرصة لكـى يقبل دانيلا صديقته .. أو هى تقبلـه .. أما فاتيما فكانت أكثـر سعادة وأكثر مرحًا وكانت هى التى تقدم لى الشاى والجاتوه وتدعونى إلى الكلام . ولكننى فاقد النطق

وأصبحت إنسانًا آخر .. فالإنسان الـذى كان فى ظلام السلم غير الذى فى ضـياء الشقة .. وانتظرت فاتيما أن أقبلها مرة أخرى ونحن عاشدان ولكنى لم أفعل .. وشدتنى لكى أمسك ذراعيها كما فعلت .. ولكنـى قد عدت إنسانـًا آخر .. أو الإنسـان الأصـلى .. وفوجئـت بأن سامى قد استودع فاتيما وقبلها .. ولم تمانــع .. وجاءت دانيلا وقبلتنى .. فلم أمانع ولم أشعر بأى شيء ..

وسارت الأحداث ـ إن كانت هناك أحداث ـ بسرعة وبعضـها يتوارى فى بعض .. حتى جاء موعد خروج فاتيما ومامتها .. وبلا شعور أو ترتيب أو تدبير منى قبلت أم فاتيما .. تمامًا كما فعل سامى مع أمى ..

فقالت لى . باستك العافية يا حبيبى .. أصبحوا على خير ..

ولم تترك فاتيما هذه الفرصة .. حتى ضغطت على أصابعى وهى تصافحنى وبسرعة اطفأت النور وقالت : أنا نسيت شنطتى عنـد سامى فوق . والنبى تروح تجيبها .. آجى معاك ..

وسبقتنى إلى السلم .. وفى الظلام وجدتنى بين ذراعيها ..

أما بقية الأحداث فلا أذكر شيئًا منها .. لأننى فقدت ذاكرتى ..

٧

لو كانت أختى معى .. لو كانت تجلس هنا إلى جوارى .. وأقول لها ما الذى أرى ويعجبنى ولا يعجبنى .. لو كانت ترتدى مثل هذه الفساتين من كل الألوان .. لو كانت معى فى المدرسة .. لو كانت تصحو ونذاكر سويًا ..

ولكن لماذا إذا جلست مع أختى قال الأطفال : عريس وعروس ..

لا أفهم .. هل لأننا نجلس متجاورين دائمًا يدى فى يدها .. أو يدى حولها .. أو رأسى على صدرها أو فى حجرها .. أو نذهب إلى الترعة ونجلس على أحد الكبارى وندلى بساقينا فى الماء .. ولما رأيت ثعبانًا فى الماء يقفز من شاطئ إلى شاطئ ويطارد ضفدعة ثم يبتلعها لم أعد أدلى بساقى فى الماء .. وإن كانت أختى ظلت تفعل ذلك دون خوف ..

وفى إحدى المرات نهضت بسرعة .. فاشتبكت ملابسها ببعض فروع الشجر التى صنع منها الكوبرى فسقطت فى الماء .. وبسرعة خرجت وراحت تجفف ملابسها . ثم دخلت حقل الذرة وتوارت لكى تجفف ملابسها . ونادتنى أن أساعدها فى عصر ملابسها.. ولا شعوريًا خلعت جلبابى ورحت ألفه حول جسمها .. ومنذ ذلك الحين والأطفال يقولون إننا عريس وعروس .. ولم أفهم . وكانوا يتغامزون علينا .. ولكن ظللت إذا جلسنا أن تتجاورأجسادنا وتتلاصق . ويدى فى يدها وعينى فى عينها .. وكانت هى التى تقول حكايات كثيرة .. ولم يكن يهمنى كثيرًا ما الذى تقول .. ولكن أن تظل تقول .. فكل حكاياتها عن زوجة أبيها وماذا فعلت .. وكيف أنها صاحبة الكلمة والرأى فى البيت وأن والدها لا رأى له .. وأن زوجة أبيها كثيرًا ما طردتها وقالت لها . روحى لأمك ! .

ولكن والدها لا يسمح لها أن تجيء إلى أمي..

وفى يوم ذهبت أنا إلى زوجة أبيها وقلت لها . لماذا لا تتركينها تذهب إلى أمها .. إننا نريدها ونحبها .. وأنتِ تكرهينها وتضربينها ..

وإذا بها تصفعنى على وجهى وتقول لى . وأضربك أنت أيضًا . إمش .. لم يبق إلا العيال يتطاولون على الكبار . إمش أنت وأختك فى ستين داهية ! .

ثم نادت أختى . ودفعت بها إلى داخل البيت . ولم أعد أراها . ولا أسمع صوتها . ولا أعرف ما الذى تفعله فى ذلك اليوم .. أو فى كل مرة تجدها معى .. وفى يوم سألتها فقالت إنها تطلب منها غسل الأطباق والحلل .. ثم غسل الملابس .. ثم كنس البيت ثم حمل رضيعها .. ومداعبته حتى ينام .. وبعد ذلك عليها أن تذهب إلى حيث الجواميس والدجاج والبط .. لتأتى بالبيض .. ثم تحلب الجاموسة .. ثم توقد الفرن وتصنع لوالدها فطيرتين وتحملهما له مع بعض القشدة والعسل ..

كل ذلك تفعله وهى تبكى . وأصبحت الدموع ملازمة للعمل .. تمامًا كالعرق.. فهى تعرق وتدمع . ولا تشكو . ولما كنت أنقل كل ذلك لأمى ، فإنها لا تعلق بشىء . ويبدو انها ترى أن هذه هى حال الدنيا . وانها لا تقوى على عمل شىء .. وأن الآباء لا يقدرون على الزوجات وأن الزوجات يكرهن الزوجات الأخريات وأولادهن أيضًا.. ولما كنت أحكى لخالتى كل ذلك .. فانها تقبلنى .. وتسكت . وكل الذين حكيت لهم ذلك فإنهم يسمعون فى صمت .. ويرون اننى طفل لا أعرف الدنيا . وأن هذه هى الدنيا . وأنه خير لأختى أن تظل فى بيت والدها من أن تكون معى .. ويقولون : أبوها هو الذى سوف يجهزها ويزفها . هو المسئول عنها . أسكت أنت ! .

ولما وجدت أمى أننى أضع بعض السكر والشيكولاته بين المراتب سألتنى فقلت . لأختى؟

فقالت أمى : ولكنها لن تجىء ! .

قلت : هى قالت لى إنها سوف تجىء بعد شهرين ..

وضحكت أمى وقالت : يبقى يحلها ربنا .. لن تجىء يا ولدى .. إنها تتمنى ذلك مثلك

تمامًا .. ولكن والدها لن يسمح لأن زوجة أبيها تريد أن تساعدها فى شغل البيت..

فقلت : ولكنها يا ماما تبكى طول الوقت .. أنا رأيت دموعها .. حرام .. ولما حاولت أن أغسل معها الأطباق طردتنى .. الست التى هناك هى التى طردتنى .. ولما حاولت أن أكنس معها البيت ، طلبت من أختى أن تعيد كنس البيت .. وكانت تبكى .. ثم طردتنا نحن الاثنين وقالت إنها لا تريد أن نقلبها جنازة ! .

ثم قلت لأمى لماذا لا أتزوجها يا ماما ؟

وضحكت أمى كثيرًا جدًا . وسمعتها تحكى هذه القصة لكل من تزورها . وكانوا يضحكون أيضًا . وفى كل مرة تحكى أمى هذه القصة تقول : إنه يحبها .. إنه طيب .. وحنين جدًا .. ويريد أن تكون له أخت .. وكل شىء يريد أن يحتفظ به لأخته .. الحلويات والسكر والشيكولاته . والصور الحلوة التى يجدها فى المجلات .. واشترى لها خاتمًا وأسورة من الزجاج .. ويحاول أن يكتب لها جوابات .. ولكنها لا تقرأ ..

وفى يوم طلبت منى أن أقرأ لإحدى جاراتنا الجوابات التى كتبتها لأختى . ولم أجد الشجاعة على قراءة الخطابات ولكنى أعطيتها الجوابات . وكن يقرأن الخطابات ويضحكن . وبعد ذلك أجدنى فى أحضان صديقات أمى وجاراتها مع نظرات الاشفاق على حالتى..

وكنت أحكى ما يقوله أبى من الحكايات والنوادر . ولكنها لم تكن تحب سماع هذه الحكايات .. ولا تجد متعة ولا اهتمامًا بالشعر .. وعندما كنت أسمع القرآن الكريم فإننى أردده مع فقيه القرية . وكانت أختى تقول : هل ستكون مؤذنًا فى مسجد ؟ أو هل ستقرأ على الموتى ؟

واندهشت لهذه الأسئلة . وأشعر أن أختى مختلفة عنى تمامًا . وانها لا تعرف ما يدور فى داخلى .. واننى لا أعرف كيف أنقل لها ذلك .. ولا أعرف كيف أحدثها عن أحلام أمى وآمالها .. وعندما حاولت أن أحدثها عن نفسى لم تكن تبدى أى اهتمام . وإنما هى حريصة على أن تتكلم هى .. وتظل تتكلم وأنا لا أقول شيئًا . واعتدت على أن أسمعها .. أو أن يكون لها هذا الوجود الصوتى ، حتى إذا لم أتابع ما تقول ..

فهى تقول وأنـا أنظر إلى المساحات الخضراء بين الحقول .. وإلى الظـلال التى تروح وتجىء مـع الناس . والجواميـس والأغنام والحمير والكـلاب .. وأصوات النبـاح والمواء والخوار والساقيـة والطنبور وزقزقـة العصافير وأصـوات الفلاحين من هنـا وهناك .. ورائحة البرسيم ورائحة الخس وملابس أختى . والسمنة والدخان والحنة فى يديها..

أما وجههـا فهو أجمل ما فى هـذه الدنيا .. أسمر أحمر مستـدير لامع والشعـر أسود طويل غزير .. والعينان عسليتان فاتحتان واسعتان والرموش طويلة .. والأسنان بيضاء لامعـة جميلـة وشفتاهـا بـلا أحمر ممتلئتـان .. وكـانت وهى تتحـدث ألمس شفتيهـا بأصابعى.. ثم ألمس شفتى أنا أيضًـا .. ولا أعرف ما المعنى ولكن لعلى كنت أقارن بينهما.. وإن لم أكن أتذكر شكل شفتى .. هكـذا كنت أتصرف دون تفكير .. ألمسها طول الوقت .. كأننى أتأكد من وجودها .. أو كأننى لا أريدها أن تبعد عنى لحظة .. لا عن عينى ولا عن أصابعـى ولا عن أذنـى ولا عن أنفـى . أو أننى أريـد أن أكون فى حضنهـا دائمًا . أو أن تحتوينى بكل نظراتها وكلماتها ورائحتها .. المهـم أن تكون إلى جوارى ، وأن أكون .. ثم أننى اعتدت على مـا يقوله الأطفال وأحيانًا الكبـار عندما يروننا معًا : عـريس وعروس . والنبى لا يقين لبعض .. هاها .. هاها !.

٨

لم تكن أمي بالبيت . جلست أمام الباب انتظرها . وقد أسندت رأسي للحائط .. نمت . جاءت أمي . أيقظتني وصرخت · مالك ؟ مريض .. ماذا عندك .. لماذا لم تذهب إلى مدام بركات .. إنها تحبك .. وابنها صاحبك ! مالك؟

ونقلتني أمي إلى السرير .. ونمت . ووجدت حولي : مدام بركات .. وجارتنا .. والست أم عزيز .. وخالتي ..

وجاء طبيب .. وتقلبت أمامه .. ووضع يده على بطني .. على صدري على رأسي .. ونظر إلى عيني وإلى لساني .. وقال : الحمد لله . لا شيء ولكنه يظهر إنه إرهاق .. هل يذاكر كثيرًا .. هل تعب كثيرًا .. لعله أكل شيئًا فاسدًا . ولكنه الحمد لله .. اشتروا له هذا الدواء ..

وانصرفت جاراتنا جميعًا . ووجدت أمي تستعد للخروج وشراء الدواء . فقفزت من السرير وقلت لها : أنا أشتريه .. أنت لا تخرجين يا ماما .. أنا بدلاً منك .. أو أنا أذهب معك!.

وسألتني أمي : ماذا حدث ؟

فقلت لها : أبدًا .. أنا كنت في بيت عزيز .. وفجأة وجدته يتخانق مع أمه ..

ـ عزيز يتخانق مع أمه ؟

ـ وكان يشخط فيها .. وبعد ذلك وجدته يلقي بالملوخية في وجه أمه .

ولا أعرف بعد ذلك ماذا حدث لي ..

لقد كان الحادث صدمة عنيفة . وكانـت هذه هى المرة الأولى التى أصاب فيها بمغص معوى عصبى عنيف ..

فلم أكن أتصـور أن أحدًا يرفع عينـه فى عينى أمه .. ولا أن يكلمها بصـوت مرتفع .. ولكن الذى حـدث كان أكبر من احتمالى .. صدمـة لم أفق منها طويـلاً .. ولم أنسها طول حياتـى .. وانقطعت صلتى بعزيـز رغم أنه حـاول كثيرًا أن نظل أصدقاء . وفى كـل مرة يسـألنـى عن أسباب مقاطعتـى له ، لا أقول شيئـًا . وحاولت أن أعود إليـه ، أو أعيده إلى نفسى، لم أستطع .. حاولت أن أنسى وأن أقول : ولكن أمه سامحته.. وأخوته قد نسوا..

ولكنى لا سامحته ولا نسيت..

وفى كل مرة أتذكر هذه الحادثة فإننى أتلمس شيئًا يتحرك فى أمعائى .. وأحيانًا أشعر بمغص ، فأسرع إلى أى اسبرين .. أو إلى الانشـغال بأى شىء آخر ..

وحاولـت أمى أن تخفف من وقـع هذه الحادثة مـن نفسـى .. فقالت لى : أنـت فهمت خطأ.. إنه لم يلق الطبـق فى وجه أمه .. وإنما هى قالت لـه أريد أن أرى شطارتك .. فى أن تلقى إلىّ بهذا الطبق دون أن يسقط منك على الأرض .. وهـى لعبة يمارسونها كثيرًا .. هو يلقى الطبق .. وهى تلتقطه منه .. ولكن يظهر انك كنت سرحان .. وأنت تسرح كثيرًا!! .

ويظهر أن أمى حـاولت أن تجعل خالتـى تحكى هذه الحادثة بطـريقة مختلفة .. وأن الست أم عزيز لم تغضب من ابنها .. فهو قـد اعتذر لها وباس يديها وقدميها .. وانها قد رضيت عنـه تمامًا .. فهو ابنهـا وهى أمه .. ولا يمكـن للأم أن تغضب مـن ابنها ، ولا أن يغضب الابن من أمه .. وصافية كاللبن ..

ولكنى لم أنس ولا حاولت ! .

٩

فى ساعة متأخرة من الليل سمعنا دويًا . وقفزت من السرير .. واعتدلت أمى فى جلستها .. وتولانى الفزع . ونظرت إلى أمى أسألها . ولكنها قالت : لا شىء .. تعال إلى فراشك .. إن مدام بركات تتشاجر مع زوجها ..

ثم سمعنا صوت زجاج يتحطم عندنا .. ورفعت أمى الغطاء .. وأضاءت النور .. ووجدنا أطباقًا مهشمة وفيها طعام .. بطاطس وصلصة .. ولحم وأرز .. كل ذلك سقط من شقة مدام بركات .. ووجدت أمى تمشى على أطراف أصابعها وتنظر إلى أعلى .. فمدام بركات بالدور الثالث .. وهناك «منور» .. وهذا المنور تطل عليه كل الشقق .. فمن شبابيك مدام بركات سقطت كل هذه الأطعمة .. ثم تعالى صراخ مدام بركات .. وهى تتكلم بالإنجليزية أو بلغات أخرى لا أعرفها .. وزوجها مدرس اللغة الإنجليزية يشتمها باللغة العربية .. ويلعن والدها واليوم الذى رآها فيه .. ويقول إنها كانت فى الشارع وإنه هو الذى جعل منها سيدة محترمة .. ولكن لا أمل فى أن تكون زوجة نافعة .. ولا أن تتعلم الطهى .. وأن الصلصة فيها ملح زائد .. وأن اللحم ما يزال نيئًا .. وأنها مشغولة دائمًا بابنها .. أما هو فلا تهتم به .. وصراخ .. وصراخ .. وبكاء وأشياء تنكسر .. ثم مدام بركات تطل من نافذتها وتنادى والدتى .. وسمعتها تناديني وتقول لى : تعال اتفرج على أستاذك المحترم كيف يبدو وحشًا كاسرًا .. كيف ينطق ألفاظًا شوارعية .. تعالوا يا تلامذة اتفرجوا على البيه المدرس ..

وأصوات أطباق وشوك وسكاكين وملاعق .. وصراخ وكلمات غير مفهومة .. ثم هى

تقول الولد ما ذنبه .. لماذا تضربه هو الآخر .. إنه أكثر أدبًا منك .. أبوه من أغنى الأغنياء.. ولكنها الظروف الزفت هى التى دفعته إلى أن يرافقنى ويكون معى فى هذه العيشة المطينة.. كفى يا مجرم .. يا كلب .. يا ابن الكلب.. يا جائع يا شحاذ .. هذه فلوسى.. ذهبى .. وأنت ماذا عندك يا بخيل يا شحيح .. إنت تعيش على أموالى ولا يعجبك.. كم دفعت فى شراء أى شىء .. من ملابسك النظيفة وأحذيتك .. من الذى يعالج أمك وأختك .. أنا .. من الذى سدد ديونك ؟ أنا المغفلة .. أنا الحمارة ! .

ثم عادت تنادى على أمى .. وعلى الجيران ..

وارتدت أمى ملابس الخروج وصحبتنى معها وأنا أرتعش خوفًا .. ووجدنا باب الشقة مفتوحًا .. ووجدنا مدام بركات منكوشة الشعر والدم على وجهها وعلى ملابسها .. ووجدنا ابنها ملقى على الأرض .. وخرج المدرس كالوحش الكاسر قبيح الوجه منفوخ العينين مسوس الأسنان وله كرش .. ويمشى حافى القدمين .. ولم أجدنى خائفًا من مواجهته .. ولا النظر إليه .. واتجهت إلى سامى ورحت أهزه وأمسح وجهه .. والدموع فى عينى ولما فتح عينيه ووجدنا أصابه ذعر .. ثم نظر إلى أمه فوجدها واقفة عند رأسه تحكى لأمى ما حدث .. ثم نهض بسرعة .. ولكن أمه كلمته بلغة لا أعرفها . ومنعته من أن يفعل أى شىء ..

ولاحظت أمى أننى أضع يدى على بطنى .. فأشارت لى أن أعود إلى بيتنا وأن أتمدد فى الفراش وأن أنتظرها ..

وفى اليوم التالى لم أذهب إلى المدرسة .. لم أستطع ولا أريد أن أرى هذا المدرس .. ولا أعرف كيف أراه .. ولا أعرف ماذا أقول له لو سألنى .. أو لو نظر ناحيتى أو لو استدعانى وحذرنى أن أحكى شيئًا مما رأيت لأحد ..

ووجدتنى ألف منديلاً حول رقبتى فى حصة هذا المدرس .. كأننى أريد أن أقول اننى مريض .. وأنه لا داعى لأن يقول لى شيئًا .. أو يهددنى بشىء..

وجاءت مدام بركات إلى زيارتى وعانقتنى وقبلتنى وأعطتنى بعض الكتب وهى تقول: سوف تنفعك عندما تكبر ..

وخرجت مدام بركات ولم أعد أراها بعد ذلك .. لقد تركت الرجل إلى حيث لا أعرف ..

١٠

مرضت أمي .. اقتربت منها وجدتها نائمة .. تسللت من غرفتها . وخرجت من البيت . وأغلقت الباب برفق . وذهبت إلى الفكهاني وقلت له · بلح وجوافة ..

قال دون أن ينظر لى . سوف تدفع اليوم ..

لقد نسيت أن أطلب فلوسًا من أمي .. فكل الذى كان يهمني هو أن أنجز شيئًا بدلاً من أمي .

فقلت له : ولكن أمي مريضة وأنا لم أشأ أن أوقظها .

وكان رده أن ينظر ناحيتي . آه .. سلامتها . ولكـن لا تنس أن تقول إنكم لم تدفعوا شيئًا هذا الشهر ! .

وكان هناك أناس كثيرون قد استمعوا إلينا .. وبسرعة أعطانى قرطاسين .. ولكنى لم أمد يدى .. وراح ينادينى : تعال .. لم أقصد اغضابك .. ولكن ربنا هو الذى يقول : وذكر إن نفعت الذكرى ! .

وتركته وذهبت إلى الطابونة .. وظللت واقفًا حتى انفض الناس . واقتربت من البائع .. إنه فى مثل سنى وقلت له : أربعة أرغفة .. واحد طرى وأربعة مقرمشة .. الطرى علشانى أنا ..

فالتفت ناحيتى وقال لى : أليست عندك أسنان ؟

قلت : عندى ولكن أتضايق من صوت العيش المقرمش ..

ـ فلوسك ؟

ـ إنهم يعرفون ماما ..

وذهب البائع الصغير إلى داخل المحل .. إلى والده وأشار ناحيتي .. ووجدته يهز رأسه بما معناه : أعطه ..

وأعطاني الخبز ملفوفًا في ورقة . ثم أعطاني ورقة صغيرة وهو يقول : وهذا هو الحساب .. ستة وخمسون قرشًا ..

وسمعت صوت والده وهو يقول : من أول الشهر .. قل لماما ! .

وتركت الخبز .. وراح يناديني ولكنني لا أرد ..

ومررت بالصيدلية . إن صاحب الصيدلية له ابن زميلي في المدرسة . ويجلس إلى جواري . وأنا أحبه . ووجدته واقفًا أمام الصيدلية . ودخلت معه . ولما رآني أبوه قال : هل تريد دواء ؟

ونسيت اسم الدواء . ولكنه قال لي : ماما مريضة . ما تزال تشكو من معدتها . وتنزف . هذا الدواء الجديد .. إن شاء الله ربنا يشفيها .. وبابا ألم يأت بعد ؟

قلت : اليوم سوف يحضر ..

قال : سلم على بابا .. وهذا الدواء تعطيه لماما .. وتحت أمرك يا ابني .. أرجوك تقول لبابا إن الحساب ثقيل .. لا تنس ! .

ثم أعطاني الدواء . وارتعشت يدي . فأنا حائر بين أن أتركه وبين أن أعود به إلى أمي .. وأخذته ..

واقترب مني زميلي وقال : أنتم لا تدفعون . لماذا ؟

قلت : بل ندفع . ولكن ماما مريضة لم تستطع أن تجيء بنفسها ووالدي مسافر واليوم سيجيء ويدفع طبعًا .

ـ ألم يحضر أبوك من شهرين .

ـ قلت : بل يجيء كل أسبوع مرتين وثلاثا ..

قال : ولكنه لم يدفع الحساب .. وماما مريضة منذ وقت طويل ؟

قلت : نعم .

ووجدنى والدى نائمًا أمام باب الشقة .. وأيقظنى ووجدنى أصفر الوجه . وأدخلنى البيت ووضعنى إلى جوار أمى فى السرير ولم تكد ترانى حتى قالت : مالك يا ابنى ياحبيبى ماذا جرى لك هذه الأيام ..ربنا يخليك يا ابنى .. كتر خيرك .. انت لم تنس أن تذهب إلى الاجزاخانة ..

وتهامس والدى ووالدتى .. ثم قبلتنى أمى ، وقبلنى والدى ..

وسمعتهما يدعوان لى بالصحة والعافية والنجاح فأنا طفل طيب .. وشديد الحساسية.. ووجدت أبى يقول . يا ابنى سوف تتعب فى حياتك كثيرًا .. فنحن فى زمن لا قلب فيه عند أحد .. ولا حب ولا حنان .. ربنا يلطف بك يا ولدى ! .

١١

كانت نظرتي إلى الكتب في فزع .. ففي سن صغيرة جدًا عرفت أن « الفقر » هو الكتب..

والأدب والذوق هو الفقر والكرم فقر ..

والناس كلهم والجلوس إليهم ودعوتهم وحب الناس : فقر والملابس النظيفة والأنيقة ، فقر.

وشراء كل شيء ، فقر .

وشراء كل شيء وبكميات كبيرة هو الفقر السريع ..

وكل من ليس له دكان وكل من تزوج مرة ومرتين : فقر ..

والذى لا يملك بيتًا ، ولا يقتنى أرضًا ..

والذى يصلى ويصوم ويخاف الله ويعيش نظيف اليد ، حسن السير والسلوك : فقر ..

وكل هذه الصفات هى أبى ..

ولكن لم أعرف معنى الفقر .. ومن هو الرجل الفقير ..

فقط الرجل يمد يده للناس .. الشحاذ .. الذى يلح فى طلب الطعام والشراب ويدق الأبواب ويستوقف الناس ويعطيه الناس ولا يعطونه وأحيانًا يشتمونه .. وسمعت أن شحاذًا مات عن ست بلاليص مليئة بالفلوس .. ولم يجد أحدًا يرث هذه الفلوس فأخذها اللصوص فكأنه ظل طول عمره يجمع المال .. وفى لحظة واحدة أخذها أقرب الناس إليه عندما مات ..

ولم تكن واضحة فى ذهنى علاقة الكتب بالفقر .. ولا ما الذى تعمله الكتب فى الناس ..

ولقد رأيت شيخ المسجد يقرأ الكتب فى المسجد والناس يقبلون يديه ويطلبون منه البركة وأن يقضى الله حاجاتهم وأن يشفيهم من المرض .

ورأيت كل التلامذة يقرأون الكتب ويحملونها من المدرسة ويحرصون عليها ..

ثم إننا نغير الكتب المدرسية كل سنة ..

ورأيت بيت أحد أقاربى من الأغنياء .. وكانت الكتب على الجدران وكانت مغطاة بنوافذ زجاجية وبعض الكتب لها غطاء من الجلد وعليه حروف من الذهب .. ثم إنهم أغنياء عندهم حدائق وعندهم سيارات ويأكلون الدجاج كل يوم ويتصدقون على الفقراء .

وكنت إذا وجدت كتابًا رحت أقلب فيه .. حتى قبل أن أتعلم القراءة .. وكنت اختفى تحت السرير والكتاب فى يدى .. وإذا سمعت أمى تناديني ، فأنني لا أنطق وأحياناً أتظاهر بأننى نائم إذا أحسست انها سوف تعرف مكانى تحت السرير .. ثم اننى أخفى الكتاب فى ملابسى ..

وأول كتاب وجدته وكانت به صور ، كان انقلابًا .. فكنت أقلب فى صفحات الكتاب وأرى إناسًا وحيوانات .. وكنت أصحو من النوم مبكرًا جدًا وآخذ الكتاب وأقلبه بالقرب من المصباح .. أو أخفيه فى دولاب والدى .. فإذا نهضت معه عند الفجر سحبت الكتاب وجلست وراء والدى وهو يصلى وأتصفح الكتاب .. وكان والدى ينظر ولا يقول شيئاً ..

وكان والدى يرى دهشتى وانبهارى .. وفى نفس الوقت إننى لا أفهم .. فكان يقول ردًا على الذى أحسه ولا أعرف كيف أعبر عنه : غدًا تتعلم وتحب كل هذه الكتب.. انت الآن أحسن من الأطفال فى سنك .. انت تحفظ القرآن الكريم .. والقرآن سوف يجعلك تحب القراءة والكتابة .. ألا تحفظ الشعر الذى ألقنه لك ؟

وأهز رأسى بأننى على استعداد لأن أردده كله الآن .. مئات الأبيات .. لها موسيقى ولها تراكيب غريبة جميلة . لكن لا أفهم الكثير من معانيها .. فلا أعرف معانى كلمات . الصبر .. والحب .. والفرح والأيام .. والدهر .. والقدر .. ومعظم الشعر الذى أحفظه عن

والدى قد امتلأ بهذه الكلمات التى وضعت ضمن موسيقى لفظية جميلة .. ولكنى أحفظ وأردد .. وأحيانـًا يطلب منى والـدى أمام الناس أن أقول .. فمثـلاً يقول لى : قل سـامح أخاك.

فأقول

سامح أخاك إذا خلط .. الخ .

ويهلل الناس ويدعون الله أن يفتح علىَّ بالخير والبركات ..

أو إذا أراد أبى أن يضحك وأن يسلى الناس فأنه يقول لى : قل ، رأيت غصنًا .

فأقول :

رأيت غصنًا على كثيب

شبيه بدر إذا تلألا

فقلت : مالاسم قال : لولو

فقلت : لى لى : فقال : لا لا

ويضحك الناس .. ولكنى لا أفهم لماذا يضحكون ولا معنى الذى قلت من الشعر الذى أضحك الناس ..

وأحيانًا بعد صلاة العشاء يقول لى والدى : قل لنا شيئاً من « البردة » النبوية .

فأقول :

أمن تذكر جيران بذى سلم .. إلخ .

ويقول لى : قل يا لائمى

فأقول:

يا لائمى فى هواه والهوى قدر

لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

محضتك النصح لكن لست تسمعه

إن المحب عن العذال فى صمم

والناس سعداء بما أقول وأبى أكثر سعادة .

وما يدور مـن مناقشات عن هـذه الأبيات أو المدائح النبوية ، لا أستطيع أن أفهمه .. ولكنهم يطلبون من والدى أن يقول مزيدًا مـن الشعر والنكت الأدبية والبلاغية والنوادر التاريخية .. والناس يحبون أن يستمعوا إلى والدى وينتظرونه حتى يجيء. أو يقولون : لقد انتظرناك فى الأسبوع الماضى ولكنك تركتنـا هنا كاليتامى .. الحمد لله على السلامة . والله إننا نعد أيام غيابك ..

وكان والدى سعيدًا وكانوا أكثر سعادة ..

وكنت أجلس إلى جوار والدى وأحيانًا يغلبنى النوم . فأميل على كتف والدى . وأحيانًا ينقلوننى إلى داخـل البيت .. حتى إذا قرر والـدى أن يعود أيقظونى .وأمسـك يد والدى . وكان يقول لى : لماذا أنت خائف ؟

ولابد أنه لاحظ أننـى أمسك يديه بشدة .. ولم أكن خائفـًا . ولكنها عادة أن أستند إلى شىء ، أن أمسك أى شىء ، أن ألتفت ورائى ..

وسألنى والدى : ألا تلاحظ أن زملاءك فى المدرسة لا يحفظون القرآن ..

قلت : أنا فقط .

ـ ويحفظون الشعر ؟

ـ أنا فقط . ولا يحبون أن يسمعوه وإذا حاولت أن أردده فانهم يسدون فمى . وواحد قال لى : أنت تحفظ شعر الشحاذيـن والعميان وإن شاء الله فى المستقبل ستكون شحاذًا على الأبواب ..

ـ إنهم متغـاظون يا ولدى لأنهم لا يقـرأون ولا يعرفون إلا لعبة الكـرة ولابد انهم فى المدرسة لا يجىء ترتيبهم مثلك . فأنـت الأول دائمًا . وأنت أفضـل . أنت أحسـن .. وسـوف تكون سيد هؤلاء جميعًا . إن شاء الله ..

ـ ولكن ماما لا تحب الشعر .

ـ ولكن بابا يحب الشعر .

ـ وخالتى لا تفهم الشعر ..

ـ لأن خالتك ليس لها أب يردد على مسـامعها الشعر .. ثم إنها لم تحفظ القرآن مثلك ..

ولم تذهب إلى المدرسة ..

ـ وهل الشحاذون يحفظون الشعر .

ـ لا .. ولكن لهم كلمات يحاولون أن يجعلوها موسيقية .. موزونة .. فهم يقولون . إعطنى يعطيك ربنا .. إعطنى قرشًا ربنا يعطيك ألف قرش .. الغلبان له الرحمن .. وأنا أحفظ القرآن .. وأحفظ الشعر هل أنا شحاذ .. والمأمور يحفظ الشعر وناظر المدرسة وإمام المسجد يحفظ الشعر . وليسوا شحاذين .. !

١٢

كان صوت أبـى جميلاً إذ تلا القرآن وإذا أذن لصلاة الفجر .. وكـان يؤذن فى البيت قبل الصـلاة . ولم يكن يصـلى إلا وأنا وراءه .. وكانت أمى لا تصـلى .. لأنها دائمًا مرهقة أو كانت مريضة .. أو كانت لا تحب أن تصـحو مبكرًا ..

وكان أبى يتلـو القرآن بصوت مرتفع . ولم يكـن يسمعه أحد سواى .. وكـان صوته ناعمًا رخيمًا .. وفى بعـض الأحيان كنت أرى أبـى يتلو القـرآن ويبكى . وإذا رآنى فـإنه بسرعة يمسـح دموعه . ويمضى فى التلاوة ..

وأحيانًا كنت أسمع والدى يغنى ويقول . يا ليل يا عين ..

وكنت أسمع من أقاربى أن والدى صوته جميل إذا غنى لصالح عبد الحى والحامولى وسيد درويش .. وانه كان حريصًا على حفلات منيرة المهـدية .. وانه كان يؤلف الأغنيات ويغنيها ويرتجلها .. وانهم كانوا يطلبون إليه ذلك ..

وكان لى خال صوته جميل . وكان يطلب منى أن أرافقه فى زياراته الليلية .. وكان خالى يغنى . وأثنـاء الغناء كنـت أتناول العشـاء وبعد لحظـات أكون قـد نمت .. وأجد خالى يوقظنى لكـى نعود معًا إلى البيت . وكانـت خالتى لها صوت جميل .. وكـانت لها بحة .. وكانت تغنى المواويل الريفية وأغانى الأفراح وكانت تطبل وأحيانًا تتحزم وترقص .

وقد أحببت الصوت الجميل ..

ولم أسمع أمى أبدًا تغنى . ولا رأيتها ترقص ولا رأيتها تطبل ..

وكنت أذهب إلى الحقل لاستمع إلى أغانى الفلاحات وهن يجمعن القطن أو الأرز ..

وكنت أحب أن أستمع إلى صوت واحد من العمال . صوته قوى جميل .. وكنت أدعوه إلى الغناء .. فأقف فى الشباك أو فى البلكونة وهو يغنى لمحمد عبد الوهاب .. هو يغنى وأنا معه أيضًا . وكان قصير النفس ضعيفًا وكان يتخلل غناءه نوع من السعال الذى يجعله ينكفئ على الأرض .. ولكن فى بعض الأحيان كان يغنى بغير سعال ..

مرة واحدة سمعت أمى تغنى وكانت فى الحمام . واكتشفت أن صوتها جميل ولكن أغانيها كانت حزينة ففيها كلمات الصبر والزمن والكريم والبخيل والندل وابن الناس والذل والعين والحسد ..

وفى كل مرة يقرر والدى أن أرافقه إلى أحد الأفراح تدور مناقشات هامسة حادة بين والدى ووالدتى .

هى تقول : لا تفسد الولد ..

هو : انه حفظ القرآن الكريم .. ومن يحفظ القرآن يحفظه القرآن .. لا تخافى أريده أن يكون رجلاً .. لا يعجبنى إنه خجول أكثر من اللازم .. خائف زيادة عن اللزوم .. لا يريد أن يرى أحدًا ، ولا أن يراه أحد .. يجب أن يخرج .. أن يرى الدنيا . إنه رجل .. يجب أن يكون رجلاً ثم إنه معى لا تخافى ..

ـ إذن لابد أن يضع جوربًا وحذاء .

ـ الدنيا حر ..

ـ ولكنه يبرد بسهولة .. أخشى عليه من البرد ..

ـ إنتِ السبب .. الخوف من البرد .. الخوف من الزكام .. الخوف من المشى فى الظلام.. الخوف من المشى فى الشمس .. أتركيه ..

ويدور همس وكلام لا أتبينه بوضوح . ويطول الكلام .. ولا أعرف ما هو القرار ..

ثم يطلب منى والدى أن أستعد للخروج وأن اضع جوربًا حتى لا أصاب بالبرد .. وأن أرتدى ملابس ثقيلة ..

ويجدنى والدى قد ارتديت الملابس الثقيلة والجوارب والحذاء ووقفت أنتظر . فيضحك ويقول · هاها .. أنت مستعد ؟

فلا أرد خوفًا من أمى . وأسبق والـدى إلى الشـارع وأمسك يده بمنتهى القوة . ويقول لى . أترك يدى أنا معك .. إلى جوارك لا تـخف يا ولدى ..

ولكن إحساسى دائمًا أن والدى لا يبقى معنا إلا يومًا أو يومين يصيبنى بالخوف من اننى سوف أنام وأصحـو فلا أجده .. ولذلك فأنا أجلس إلى جـواره وحتى إذا ذهب لينام جلست أمام سريره أو أمام باب الغرفة ..

وفى إحدى المرات نهضت من النوم فى حالة فـزع .. فلم أجد حذاء والدى فى حضـنى .. فقد اعتدت أن أخفيه فى مـلابسى وأنا نائم .. حتى إذا أراد والدى أن يسـافر كان لابد أن يوقظنـى أولاً .. ولكن هذه المرة استطـاع أن يستخرج حـذاءه من ملابسـى وأن يتركنى نائمًا.. ولكنى لحقت به ..

وكانت حفلـة لمطرب له صوت نحيف اسمـه عبد اللطيف البنا .. والنـاس قد تزاحموا لسماعه .. فى صوان صغير محكم .. وبعض الناس جلس على المقاعد والدكك .. والباقون على الأرض .. وجاء المطـرب لا أذكر ملامحه الآن .. ولكنـه قصـير القامـة نحيف ووراءه ثلاثة من العازفين .. وجعل يغنى والناس تصرخ بأعلى الصوت : الله يا سى عبد اللطيف.. الله يا عم .. يا نبى.. الله هات من الأول .. كمان ..

وكنت أجلـس على مقعد إلى جوار والـدى فى الصف الأول . وإلى جوار والـدى جلس العمدة والمأمـور وواحد ينـادونه يـا سعادة الباشـا .. وسقطت مـن فوق الكـرسى على الأرض.. واصطدمت بطوبة ونزف الدم مـن جبهتى .. وانزعج والدى والناس .. وبسرعة جاءوا بقطنـة بها سبرتو ... وجاءوا بقليل مـن البن .. ووضعوا البن على الجرح .. ولابد اننى بكيت . وسألنى والدى إن كنت أحب أن أواصل الفرجة والاستماع أو أنام .. أو أحد يعود بى إلى البيت . فقلت : اتفرج .. ولن أنام ! .

وقالـت والدتى فى الصبـاح إنها على حق .. فأنـا انام ولا أستمع ولا أجـد متعة .. ولا سبـب فى أن يصر والدى على أن أرافقـه .. ثم إننـى فى كل مـرة أصاب بشـىء .. البرد أو الوقوع مـن المقعد .. أو يسقط الطعام على مـلابسى.. أو تشد المسامير جـوربى .. وكان والدى يقول لأمى : لابد أن يرى .. لابد أن يعرف .. وأن يجلس مع الرجال .. لا مع الأطفال

والسيدات .. ولابد أن يمشى على التراب ثم يغسل قدميه .. لابد أن يسمع الناس يتكلمون بصوت عال .. لابد أن يرى زملاءه يتشاجرون ويشتم الواحد الآخر ، حتى يكره المشاجرة ويكره قلة الأدب .. ولابد أن يشعر بتقدير الناس واحترامهم لوالده .. لا لأنه غني ولكن لأنه يفهم فى القرآن وفى الشعر وانه لا يؤذى أحدًا .. وأن الناس يقصدونه إذا أرادوا الشفاء أو إذا كانوا فى ضيق .. ثم إنننى لا أراه إلا قليلاً .. وأنا لا أريده أن يشعر كأنه يتيم ..

وبعد ذلك كان يدور كلام كثير طويل جدًا وفى همس . وكانت أمى هى التى تتكلم عادة وتصر على ذلك .. وعلى ألا أسمع شيئًا من ذلك .. وكانت من حين إلى حين تجيء لترى إذا كنت قد نمت .. وكنت أتظاهر بالنوم لأسمع ماذا تقول .. ولكن أمى كانت تتكلم بصوت منخفض . وكنت لا أسمع صوتًا لأبى ..

وفى الصباح سألت أمى : هل سأدخل الأزهر ؟

وانزعجت أمى وكأن عقربة قد لدغتها فنهضت واقفة من قال لك ذلك.. ينقطع لسانه ؟ من الذى قال ذلك ؟ قل لى حالاً ..

قلت : كل الذين يجلس إليهم أبى من الأزهر ..

ـ لن تجلس إليهم بعد اليوم . هم الذين قالوا ؟

ـ لا ..

ـ إذن من الذى أدخل فى دماغك هذه الفكرة ؟

ـ لا أحد . ولكنى أسأل .

ـ لا تكذب .

ـ أنا لا أكذب .

ـ أنا أعرف انك لا تكذب . من يحفظ القرآن لا يكذب ..

ـ نعم .

ـ إذن من قال لك ذلك ؟

ـ لا أحد .

ـ لـن تذهـب إلى الأزهر يـا ولدى .. لابـد أن تكون أحسـن .. لماذا لا تقرأ الكتـب التى عندك.. الكتب التى تضعها تحت السرير .. اخرجها يا ولدى .. واقرأ ليلاً ونهارًا ..

لقد خشيت أمى أن حفـظ القرآن الكريم والاكتفاء به سـوف يجعلنى أدخل الأزهر .. ولذلك طلبـت منى أن أقرأ كتبًا أخرى ، لكـى تبعدنى عن الأزهـر .. وكلما وجدت فى يدى كتابًا فإنها تقول . هكذا يا ولدى .. ربنا يفتح عليك ! .

وكان لأمى ابـن خالة من رجال الديـن .. ففى كل مرة يزورنـا ويطلب منى أن أخبره ماذا تعلمـت كانت تقول لى · أنـا أريد أن أتكلـم معه فى مـوضوع خـاص .. أخرج انـت ياولدى.. خذ لـك مقعدًا وضعه تحت الشجرة .. لا تجلس على الأرض .. وخذ معـك كتابًا واجلس فى الهواء .. وأنا سوف أبعث لك بالشاى ..

فقد اقتنعت أمى بضرورة الابتعاد عن كل المشايخ وأن أكون مختلفًا وألا أجلس على الأرض .. وأن يكون فى يدى كتاب .. أى كتاب .. وإذا جلست أن يكون مقعدى عاليًا.. وإذا شربت أن يكـون فى كوب تحتـه طبق .. لابد .. وألا أغسـل الكوب والطبـق كما اعتدت أن افعل.. هى التى تغسـل . وأنا أقرأ فقط . وإذا وجدت معها عـددًا من السيدات ، فيجب أن أكون بعيدًا عن الكلام الفارغ الذى تقوله السيدات ليلاً ونهارًا . وأن أقرأ أحسن وأنفع ..

أغرب من ذلك . كانت تقول لى . إمش أمامى .

وكنت قبل ذلك أمشى وراءها . دون أن أسأل إلى أين . هى خرجت وأنا وراءها . هى قامت فيجب أن أقوم . هى أكلت . هى شربـت . نظرة واحدة منها تكفى لأن أبدأ فى الأكل . وأن تقف اللقمـة فى فمى وأن أغسـل يدى . وأن أنهض وأن أسبقهـا إلى الشارع لأمشـى وراءها..

ولكنها فجأة قـررت أن أمشى أمامها . وأن أعـرف قبل أن أمشى أين نحـن ذاهبون وإذا أحسست أنا بالملل همست فى أذنها وبعد ذلك نعود فورًا إلى البيت ..

وكنت أسمعها تقول عنى : رجل البيت .. نعم رجل البيت .. ولا كل الرجال ! .

ولكن لا أعرف بالضبط ما الذى يمكن أن افعله .. وما هى مواصفات رجل البيت ..

ولكن عرفت شيئًا واحدًا أن هذه الصفات لا تقال إلا فى غياب والدى .. أى عندما يكون

هو مسافرًا فأنا الرجل الذى يحل محله فى خدمة أمى وفى مساعدتها وفى استقبال الناس.. وفتح الباب والتأكد من إغلاقه قبل النوم .. والذهاب إلى الطابونة والفكهانى والاجزاخانة ودفع الإيجار والسؤال عن جيراننا وأقاربنا من المرضى .. والسير فى الجنازات وشراء المغات لكل من ولدت .. والاعتذار عن ماما بسبب السفر أو المرض .. وكنت دائمًا أقول إنها على سفر ..

١٣

وأمام الناس وجدت والدى يقول لى : لا .. لا .. إنـت الذى يجب أن يقول ماذا يريد أن يكون فى المستقبل . ولا يصح أن تقول : إنك لا تعرف .. وأن ماما هى التى تعرف ! .

وكنت قـد أجبت على سؤال : ماذا تحب أن تكـون فى المستقبل فقلت بمنتهـى الصدق وحسن النية : لا أعرف .. ولكن ماما هى التى تعرف ! .

وإذا سألونى : هل تحب اللحم المستوى فأقول : ماما لا تحب ! .

وإذا سألونى · ولماذا أنـت دائمًا ترتدى الملابس الثقيلة . فيكون الرد : مـاما هى التى تعطينى هذه الملابس ..

وسألونى . وفى الصيف تستحم أيضًا بالماء الساخن ؟

فأقول : نعم .. ماما تصب الماء الساخن على جسمى صيفًا وشتاء ! .

وأخذنـى والدى بمنتهى الـرقة والرفق . وجلسنـا معًا تحت شجرة وقـال لى · إسمع ياولدى .. أنا أعرف انك تحب أمك .

ـ وأحبك أيضًـا .

ـ أعـرف .. وأعرف إنك لا تفـارق أمك لا ليـلاً ولا نهارًا .. وإنك رجل البيـت .. ولكن ياولدى إذا ظللت طول الـوقت تقول : ماما قالت .. ماما قررت .. مـاما هى التى تعرف .. فإن الناس يشعرون بـانك طفل صغير لا رأى لك ولا شـخصية وإنك مـربوط فى فستان أمك .. وإنك تمشى وراءها كالقط أو كـالكلب .. وأنت الآن يا ولدى كبرت . سوف تصبح رجلاً .. وأنت تقرأ وتحفظ وتسمع من الرجال كلامًا لا تسمعه فى مجالس السيدات .. وأنا حريص على أن تكون مثل الرجال .. فلا تقل أبدًا من رأى ماما كذا .. وليس من رأيها كذا.. وإنما يجب أن تقول رأيك أنت .. حتى لو كان ذلك هو رأيى أنا أو هو رأى أمك ..

ـ ولكن يا بابا أنا ليس لى رأى ..

ـ لا .. لك رأى .. مثلاً أنت اليوم ذهبت واشتريت بعض الكتب دون أن تستأذن ماما .. وأنت اليوم لم تذهب إلى تقديم واجب العزاء فى إحدى قريبات ماما .. هى قالت لك : اذهب فورًا فأنت قررت أن تذهب مساء . وأنت قلت لها إنك تناولت طعام الغداء ، مع إنك لم تأكل ولكنك خشيت أن ترهق ماما فتترك فراشها وتقوم بتسخين الطعام .. كل هذه قراراتك إنت دون الرجوع إلى ماما ..وانت لم تخطئ فى أى قرار منها .. ثم إن ماما طلبت منك أكثر من مرة ألا تأتى بالمطرب الغلبان الذى يعجبك صوته .. ولكنك لم تطع ماما .. وأنت لست غلطانًا فى ذلك .. فلا ضرر أن تسمع إلى صوت جميل .. فأنت لك رأى ولك قرار ولك شخصية .. وسوف تقوى شخصيتك وتصبح مختلفًا عن ماما وبابا .. وهذا طبيعى يا ولدى .. وهل نسيت اننا كنا نحملك على أكتافنا ، لأنك لا تعرف المشى .. وهل نسيت إنك كنت تحبو على الأرض وتتساند على المقاعد .. والآن انت كبرت وتمشى دون أن تتساند على شيء أو على أحد .. لقد كبرت وسوف تكبر أكثر وتنضج وتبتعد وتعلو وتسمو . هذا طبيعى يا ولدى !

الله على كلامك يا بابا .. تقوله فى رقة وفى لطف .. ودون أن يبدو كأنه نصيحة . ودون أن يعمق عندى أى شعور بالغلط أو الندم .. ولذلك فإن الناس يحبون والدى .. وأنا أيضًا أكثر وأعمق ! .

* * *

لا أمى قالت لى ولا أبى ما الذى يعمله أبى فى هذه الدنيا ..

وكان التلامذة فى المدرسة يسألون : محام ؟ طبيب؟ مهندس ؟ فلاح ؟ تاجر ؟ ضابط ؟

وكنت لا أرد وأحيانًا أقول : لا أعرف ! .

أو أقول : سوف أسأله فى المرة القادمة ! .

أو أقول : لن أقول لأحد منكم . انتم خمنوا ماذا يعمل ؟

أو أجد إجابة مسلية : إنه رجل محترم .

ولكن تلاحقت الأسئلة : ولكن الرجل المحترم ماذا يعمل ؟

أو أقول : نعم إنـه محترم . إنه يعرف سرسق وسـاسون وعزيز بحـرى وإسماعيل صدقى باشا وعبد الفتاح يحيى باشا والوكيـل باشا ومغازى باشا .. وعدلى يكن باشا .. ونعمت هانم يكن .. وعز الدين بك يكن ..

وكانت هى الأسماء التى يكررها والدى إذا جلس إلى الرجال .. فكل هؤلاء من أصحاب الأراضى الواسعة .. ولما سألت عن عمله . ضحك وقال : ياه .. لم يقل لك أحد يا ولدى .. هاها .. إنها غلطتى .. أو غلطة ماما .. تعال يا ولدى ! إنت عندك كم سنة الآن ؟ عندك أحد عشرى ، تعال .. سوف أقـول لك كل شىء .. حتـى لا تضيق بمن يسألـك من زملائك فى المدرسة ..

وأخذنى والدى إلى الاصطبل .. وركب هو حصـانًا وساعدونى على أن أركب حمارًا .. وسار وراءنـا ثلاثة مـن الخفراء وهم يقـولون لوالـدى : نعم يا حضرة المأمـور .. أمرك ياحضرة المأمور .. على عينى يا جناب المأمور .

وكان والدى يـركب حصانًا جميلاً .. نحيفـًا رشيقًا بنى اللون طويـل الشعر .. وكان يسمى حصـانه « سرور » .. وكان إذا نـاداه رفع رأسه وتـوقف .. وأحيـانًا كان ينـاديه فيجىء إليه .. وكان يعطيـه قطع السكر التى وضعها فى قرطاس فى جيبـه .. وكان يرتدى البدلة دائمًا والبرنيطة الكبيرة لوقايته مـن الشمس .. وكان إذا رآه الناس وكانوا جالسين وقفوا ودعوه إلى الشاى أو دعوا له .. وإذا كانوا يعملون توقفوا . وإذا كانوا يأكلون وإذا كانوا يشربون..

وقال والدى : هذه الأرض كلهـا تملكها أسرة عدلى باشا يكن وكـان رئيسًا للوزراء .. كـان شخصية كبيرة . وأنـا هنـا الذى يـأمـر الفـلاحين بزراعـة الأرض وريها وجمع المحصـول وبيعه وإعطـاء المرتبات للعمال والفـلاحين .. وبقية الفلـوس أسافـر بها إلى القاهرة وأعطيهـا لدولة الباشـا .. فأنا هنا أعمـل بالنيابة عـن الباشا .. أنا هنـا أكبر من العمدة ومن مأمور المركز ومن طبيب المركز .. أنا مأمور تفاتيش عدلى باشا يكن .. أنا لا أضع يـدى فى الأرض ولا أبلها بالماء ولا أستخـدم المحراث ولا السـاقية . الفلاحـون هم

الذين يعملون طبقًا لأوامرى .. هذه وظيفتى . هل عرفت . هل هو عمل محترم .

ـ جدًا . عظيم . أكبر واحد فى هذه الدنيا ..

ـ هاها .. هل أنت سعيد ؟

ـ نعم .

ـ هل تحب أن أجمع لك زملاءك فى المدرسة لتقول لهم ذلك ؟

ـ أنا سوف أقول لهم ..

ـ وأنا أسافر لأن الباشا له أرض أخرى فى أماكن مختلفة من مصر .. ولابد أن أذهب لأتفقد الزراعة والمحصول وجمع الأموال ..

* * *

لم تفلح الحياة فى الريف أن تجعلنى أحب الريف .. أو أطيل النظر إلى هذه الأشجار أو أتابع الطيور .. أو أتعلم صيد الأسماك ..

فلم تكن حياتنا فى الريف طويلة مستقرة .. وإنما كل شىء طريق نمر به أو نقطعه أو نتخلص منه أو نفرغ من طوله وعرضه ، ذهابًا أو إياباً من مكان آخر ..

ولم أحتفظ بكل هذه الألوان فى عينى .. ولا بكل هذه الموسيقى اليومية فى الريف .. فأنا لا أريد أن تشدنى إليها .. أن تمسكنى .. وأنا الذى أريد أن أهرب منها .. فلا شىء يمسكنى .. لا شىء يربطنى هنا فأنا مثل هذه الأشجار منزوعة الجذور تسبح على وجه الماء .. فكل شىء يمكن أن أنفضه عن ثوبى لأنه تراب .. وعن عينى لأنه كالتراب وعن أذنى لأنه غبار .. فكل شىء يجب أن أتخلص منه .. فإذا جلست فلابد أن يلحق التراب بثوبى وبحذائى .. ولا يهب هواء لا يدفع التراب والتبن والدخان من كل اتجاه إلى كل اتجاه .. وكذلك الحقول والقنوات والطيور والبهائم والناس .. ولأن الذاكرة لا تحتفظ إلا بما له فائدة .. فأنا أحفظ الطريق لأننى سوف استخدمه من البيت وإليه .. وأنا أعرف مكان الكوب ومكان الطبق ومكان الكتاب لأننى سوف أبحث عنها .. ولكن إذا كانت كل هذه الأشياء لن أستخدمها فما فائدة أن تحتفظ بها الذاكرة .. فلا أسماء القرى ولا أسماء

الناس ولا صورهم .. فما حاجة الذاكرة إليها ..

وعلى الرغم من إنني أعتمد كثيرًا على صور الأشياء عمومًا ، وعلى رائحتها .. فأتذكر الشارع برائحته والبيوت وأحيانًا الحجرات وأحيانًا الكتب .. فإن رائحة البرسيم والمياه والأماكن الرطبة تذهب من أنفي بمجرد الانتقال من بلد إلى بلد . كأنها عبء على دماغي.. كأنها صداع أو مغص .

وفي نفس الوقت فلا أنا أكره الحياة في الريف ، ولا أنا أحبها أيضًا . وإنما أحبها عندما أراها . ثم إذا غادرتها نسيت .. ولا أشتاق إلى الريف .

وكذلك الناس أيضًا .. أحب أن أجلس إلى الناس . أسمعهم . أكلمهم .. ولكن إذا وجدتني منزوعًا من عيون الناس وآذانهم ، أو وجدت الناس قد انسحبوا من عيني وأذني.. فما الذي أفعله ؟ إنني لا أقدر على أن أوقف الدنيا عن الدوران .. ولا أن أوقف هذا الفراق المستمر .. أو الهجرة المزمنة .. أو الخروج أو الدخول .. وعندي إحساس أن كل شيء يتحرك بعيدًا عني .. وأنا لا أملك أن أمد يدي إلى شيء ..إن ألمس شيئًا فلا يتحرك .. أو أوقفه أو أتدخل في حركته بعيدًا أو قريبًا ..

وأحيانًا أحس كأنني مغطى بطبقة رقيقة من شيء ما .. هذا الشيء ما لا يجعلني أحس بالأشياء .. وإنما بيني وبينها مسافة .. بيني وبينها حائل .. عازل .. كأنني أنظر إلى الدنيا من وراء منظار غليظ .. وأسمعها من وراء عازل غليظ .. وكأنني عندما أسير أو أتحرك فبدلاً من أن أمشي في طريق مستقيم فإنني أدور حول نفسي أمام الأشياء ثم أتقدم .. كما تفعل الأرض حول نفسها أمام الشمس . وكل الكواكب تدور .. وأنا أيضًا !.

لماذا ؟ لا أعرف كيف تولد هذا الشعور وأستمر وأستقر ..

ولكن تعودت شيئًا لا أدري ممن تعلمته .. فلا أمي تفعل ذلك ولا أبي ولكن اعتدت أن أسند ظهري إلى الحائط وأتفرج على الناس من بعيد .. وأقول لنفسي هذا أطول من فلان وهذا أقصر وهذا أصغر .. وهذا أكبر .. وهذا له عينان واحدة أضيق من الأخرى .. وله كتفان واحدة أكثر انخفاضًا . وهذه الديوك وهذه الأرانب .. والأبقار والجواميس .. ولاحظت أن بعض الناس لهم ملامح الحيوان والطيور . وأن العشرة تجعل الكائنات

تتشابه فى سلوكها .. وكنت اعقد مقارنات بين الحيوان وصاحبه .. وبين الرجل وزوجته .. وكنت أتساءل بينى وبين نفسى إن كان فلانًا هذا قريبًا لفلان لمجرد التشابه فى الفم أو الجبهة .. أو الميل أثناء المشى .. وكانت بعض ملاحظاتى صحيحة ..

وانفتحت أمامى دنيا أخرى واسعة متنوعة : الناس ..

وأول مذكرات كتبتها كانت عن ملاحظاتى عن زملاء الدراسة وعن المدرسين وبواب المدرسة .. ثم رحت ألاحظ كل صديقات أمى وكل قريباتى وكل أصدقاء والدى .. وكنت أبالغ فى ملاحظاتى عن الناس .. وكأننى اكتشفت لعبة جديدة .. أو سلاحًا جديدًا أطلقه فى كل ناحية .. أو أستخدمه حيث لا ينبغى أن أستخدمه .. كنت فى بعض الأحيان استغنى عن الملعقة والشوكة وآكل بالسكينة فى قطع اللحم بالطول واستخدمها بالعرض كالملعقة والسكينة معًا .. وقد اكتشفت لعبة أخرى وهى اننى إذا نظرت طويلاً إلى وجوه الناس أو إلى عيونهم ، فإن الواحد بسرعة يقول : ماذا ؟ لماذا تنظر إلى وجهى هكذا ؟

وعرفت أن الناس يتضايقون ممن يطيل النظر إلى عيونهم أو وجوههم .. أو يركز عينيه على شىء معين .. ولاحظت اننا عادة ننظر إلى وجوه الناس بصفة عامة ، ولكن ليس إلى شىء فى الوجه بصفة خاصة ..

وبالغت فى هذه النظرات حتى ان إحدى السيدات شكت لأمى : الولد كبر .. إن له نظرات جريئة . يا ولد لا تنظر لى هكذا .. كأنك تريد أن تأكلنى ! .

وكانت النظرات هذه سلاحًا يضايق الناس ..

واكتشفت سلاحًا آخر أيضًا فى ترسانة الاهتمام بالناس وهو أن انظر بعيدًا عن الذى يحدثنى أثناء حديثه .. فيتساءل : ألست معى .. ما الذى تنظر إليه هناك .. هل هذا الذى أقول لا قيمة له .. ولماذا تتركنى هكذا أنبح كالكلب بينما أنت لست معى ؟

أو لا يكاد واحد يتحدث إلىّ حتى أتركه وأنظر إلى حذاء أو بعض ملابسى وانشغل عنه تمامًا .. أو أتركه إلى أى شىء آخر ..

إن هذا يضايق الناس جدًا .. فمعنى ذلك إهمال وتجاهل تام .. فيشعر المتحدث كأنه لا شىء .. أو كأنه يتحدث إلى نفسه .. أو إلى حائط .. أو إنه لا يستحق أن يهتم به أحد ..

واكتشفت سلاحًا آخر هو أن أستمع إلى أى إنسان وأنظر إليه وكأننى أتابعه مع اننى فى الحقيقة شارد الذهن تمامًا .. فإذا حاول الشخص أن يسألنى ان كنت أتابع ما يقول .. فأؤكد له إننى سرحت بعيدًا عنه .. وإنه كان يهوهو طول هذا الوقت ..

وأسرفت كثيرًا فى استخدام « السرحان » أسلوبًا فى الوقاية من الناس ووجدته علاجًا للأحاديث المملة .. فأنا أتابع وفى الحقيقة لا أتتبع ما يقول .. ووجدت أن السرحان أحسن وسيلة لادخار الطاقة .. طاقة الرؤية والاستماع .. والاحتفاظ لنفسى بأكبر طاقة ممكنة.. والاحتفاظ بحقى فى أن أهرب من كل ما يضايقنى ..

وأصبح السرحان عادة سيئة .. هذه العادة أوقعتنى فى مشاكل كثيرة مع الناس . فأنا أقابل الشخص الواحد عدة مرات . وفى كل مرة أنظر إليه كأننى لا أعرفه . أو كأننى أراه لأول مرة .. ولذلك فبعض الناس يقول : طبعًا أنت نسيت من أنا .. أنا فلان ..

ويكون اهتمامى الشديد به ، دليلاً على اننى نسيته .. رغم انه قدم نفسه قبل ذلك عدة مرات .. وكثيرًا ما فوجئت بمن يقول لى : والله لن أقول لك من أنا .. فليس معقولاً إننى تافه لدرجة أن ترانى عشرين مرة ثم لا تعرفنى مع اننا نسكن فى شارع واحد ! .

ووجدت أن هذا السرحان ينقذنى من مشكلة أخرى .. فنظرى ضعيف .. وأنا لا أستطيع أن أركز فى رؤية الناس ولذلك ليس من السهل أن أعرفهم .. ولذلك كنت ألجأ إلى أن أنشغل .. أو افتعل الانشغال لأننى لا أستطيع أن أرى بوضوح .. ووجدت حلاً لهذا المأزق وهو أن ابتسم لكل إنسان اعرفه أو لا أعرفه ويكون الابتسام تحية له كأننى أعرفه .. وحتى لا يكون الابتسام مقصودًا تمامًا كأننى أعرفه ، فإن الإبتسام يجىء مصحوبًا بشىء آخر .. كأن أنظر ورائى .. أو أنظر إلى شىء بعيد .. أى إننى عرفت الشخص ثم انشغلت عنه .. ولكنى لم أتجاهله ..

حتى هذا قد أوقعنى فى مشاكل أيضًا . فأجد من يقول لى : الله يا أخى انت تضحك لى كأنك لا تعرفنى .. طيب من أنا ؟

ولذلك كان من الأسلم أن أنظر من بعيد .. وتكون النظرة واسعة شاملة .. وتكون أحجام الناس أصغر .. ويكون إحتمال عدم وضوح الرؤية والخطأ كبيرًا . ولكن أدمنت

وأمعنت النظر إلى الناس .. وإلى العلاقات بينهم وأثرهم فى أعماقى .. فالناس فى أعماقى .. وهمومهم همومى .. ووسيلتى إلى معرفة نفسى وإلى معرفتهم أيضًا .. وأنا أستعين على فهم الناس بالناس ، وأتأمل الحيوان والطيور والحشرات والزواحف ، وكل ذلك فى أعماقى .. أراهم بعينى ، وأراهم بعقلى وأتابعهم بخيالى .. إنها دنيا لا أول لها ولا آخر ولا مكان ولا زمان ولا حاضر ولا ماض ولا مستقبل .. إنهم هنا فى دماغى .. وهنا فى قلبى ..

١٤

كل يوم جمعة مساء نذهب من القرية إلى المركز ـ أنا وأخى الأصغر .. فنحن نسكن فى غرفة قريبة من المدرسة . وواحد من اخوتى الأكبر سنًا يرافقنا . يعيش معنا يرعانا ..

ونحن نركب حمارين ووراءنا غفير .. وأخى الأكبر يركب حمارًا . أما الغفير فقد وضع أمامه قفه بها طعامنا لبضعة أيام .. الخبز والكعك .. وبعض الأرز والسكر والشاى .. ثم حلة بها أرز بالفرن .. وبعض الفطير المشلتت ..

وكثيرًا ما كنت وأخى نصحو على أصوات غريبة فى الغرفة .. وننظر من تحت اللحاف فنجد القطط تتخاطف الأسماك والكلاب تتخاطف الدجاج المسلوق .. وتقلب حلة الأرز فى الأرض .. أما القطط فقد دخلت من النافذة . لقد نسينا أن نغلقها أما الكلاب فقد وجدت الباب مفتوحًا .. أما أخى الأكبر فهو سهران لم يأت بعد ..

ويتكرر ذلك كل أسبوع أو كل أسبوعين ..

ويوم الخميس بعد الظهر تجىء الحمير لتنقلنا إلى القرية .. الطريق طويل .. بين الترع والمصارف .. والليل له صوت غريب .. والكلاب تنبح بعيدًا وأحيانًا تقترب منا وتتسابق مع الحمير أو نتعلق بها ونرفع أرجلنا ونضعها أمامنا فوق الحمار وينزل الخفير لطرد الكلاب ويطلق النار فى إتجاهها .. وكان الخفير يغنى طول الوقت .. وينبهنى وأخى ألا ننام ..

وفى إحدى المرات ظهر من الحقول جماعة مسلحون وسألوا الخفير : من هؤلاء ؟

قال : أولاد جناب المأمور .

ـ من المأمور ؟

ـ الله المأمور عمك محمد منصور ..

ـ آه .. ونعم الناس . إنه رجل طيب .. مع السلامة ! .

ثم يختفون وسط الحقول وقد تعلقت الأسلحة من أكتافهم ..

وفي إحدى المرات وجدنا واحدًا راكبًا حمارًا وقد غطى وجهه وسأل الخفير : من هؤلاء؟

قال الخفير غاضبًا : أولاد المأمور ..

ـ عباس .

ـ لا .. المأمور بتاع عدلي باشا .

ـ عم محمد ؟

ـ نعم ..

ـ والله صاحب فضل علينا جميعًا .. والله لقد أعطاني مهر ابنتي من جيبه ورفض أن أعيد إليه مليمًا واحدًا .. ألف سلامة يا أولاد الأمير ! .

وفي يوم مرض الخفير ولم يستطع أن يرافقنا . فتطوع خمسة من الفلاحين ورافقونا إلى المركز .. أما أخي الأكبر فقد كان دائم السهر .. هو يخرج من هنا ، والكلاب تزورنا والقطط .. ثم هو يرجونا أو يحذرنا أن نذكر شيئًا من ذلك لوالدي أو والدتي ! .

أما المدرسة فهي في نهاية الشارع .. وهي صغيرة . وأهم ما في هذه المدرسة ناظر المدرسة وهو من أقارب والدتي .. وكان رجلاً متعاليًا مكروهًا من الجميع .. فالمدرسون عندما يتحدثون عنه يمطون شفاههم أو يهزون أكتافهم . ويتساءلون : ألم يكن واحدًا مثلنا في العام الماضي ؟ فمن أين جاءت هذه العنطزة ؟ وكيف لا يحمل أوراقه .. إنما يتركها للساعي ينقلها إلى الفصول ذهابًا وإيابًا .. ثم إنه يضع يده في جيب الصديري إذا تكلم مع أحد.. وزوجته في البيت تضربه بالجزمة ..

ولم أفهم في تلك السن ما يقال عن مدرس إنه مسيحي .. شيء غريب أن أحدًا لم يقل ما معنى ذلك .. ولا ما هو الفرق بين مسيحي وأي مدرس آخر .. لم اسأل . ولم يتطوع أحد بأن يقول المعنى .. ومن الطلبة وجدت واحدًا اسمه جورج وقالوا مسيحي . ونظرت

إليه .. لا فرق بينه وبين أى طـالب آخر .. هو مهذب أكثر .. ضـاحك دائمًا .. حريص على أن يكون منعزلاً ولكننى أجد فيه صورة منـى .. فأنا أيضًا إنطوائى .. وأفضل أن أجلس بعيدًا وأن أتفرج وأن أكتفـى بواحد فقط أتحدث إليـه .. ويكون الحديث عن الكتب .. أما جورج هذا فهو يعرف أنواع الزهور والنباتات .. فأبوه يعمل فى العطور . وهو يساعده فى عمله كـل يوم بعد الظهـر . وقد دعانى أن أزوره فى المحـل . وكنت أحب أن أذهب إليه .. وأجلس فى داخـل المحل وهو يتحـدث إلى الناس ويعرف كـل الزبائن ويتحـرك بسرعة .. فيأتى بالزجاجات الكبيرة ويفـرغها فى الصغيرة . ويفتح درج الفلوس . ويكتب فى ورقة . كل شىء يتم بمنتهـى السرعة . وله حكاية مع كل زبـون .. وليس على لسانه إلا كلمات : حاضر .. من عينى .. تحت أمرك .. نورت .. شرفت .. ألف سلامة .. غدًا تدفع على أقل من مهلك ! .

وكنت مبهورًا بجورج هذا .. فمن أين يأتى بهذه الكلمات . وكيف يعرف كل الناس ، وكيف يحب كل الناس . وهم أيضًا يحبونه .. فإذا جاء أبوه تغيرت معالم وجهه . وأصبح إنسانًا آخر . وخرج من المحل وأتابعه لكى يترك مكانه لوالده .. فإذا سرنا فى الشارع عاد تلميذًا يتكلم عن التلامذة الآخرين وعن المدرسين وعن الكتب وعن الكراريس . وعن بنات الجيران .. فلانة وفلانة .. ويسألنى إن كنت أعرف واحدة منهن . فلا أعرف . ويندهش .. إن فلانة تراك كـل يوم وأنت خارج وتقول إنك فى غايـة الأدب .. وإنها حاولت أن تكلمك ولكن وجهك أحمر ورفضت حتى النظر إليها .. وهـى حزينة لذلك فلماذا .. وهو ينبهنى إلى ما يجب أن أعمله .. وكيف أحدثها .. وأين وبعيدًا عن الناس . وعنده خطابات وعبارات وأساليب وحيل ..

وماذا أقول لو رآنـى والدى أو والدتى أو حتى والدتها .. وخصـوصًا أخوها الأكبر .. ومن هى أقـرب الصديقات لها والتى تسكـن فى البيت الملاصق لبيتنا . ويمكـن أن أبعث معها برسائل مـن كل نوع .. إنه شخصيًا يفعل ذلك.. وهو يعـرف عددًا كبيرًا من البنات لأنهن جميعًا صـديقات أخته وزميلاتها فى المدرسـة .. وحكى لى المطبات التى وقـع فيها وكيف خرج منها ..

وكان لنا زميل إسمه لويس .. ونصحنى بأن ابتعد عنه لأنه شديد التدين وهو يرى أن كل شىء فى الدنيا حرام .. الوقوف مع البنات .. ومجرد النظر إليهن .. ثم إنه يريد أن يكون قسيسًا عندما يكبر .. وسألنى : طبعًا انت عارف أن يكون الإنسان قسيسًا ؟

ولم أكن أعرف ولكنه أوضح لى ذلك بأن قال - تمامًا كما يذهب الناس عندكم إلى الأزهر ويكون شيخًا ! .

وجاءت كلمة « عندكم » هذه غريبة .. أو كانت مثل سكين قطع شيئاً بينى وبينه .. عندهم وعندنا .. هم ونحن .. قساوسه ومشايخ .. شىء غريب أن يقول ذلك بسرعة ودون أن يتنبه إلى أثرها فى نفسى ..

وكنا نقف بالقرب من باب المدرسة نتفرج على خادم ـ يقولون إنه خادم ـ مع انه يشبه أى واحد منا تمامًا فى ملابسه .. وهو صغير ونظيف ومؤدب .. وهو يحمل سلة من الطعام لاثنين من التلامذة .. وفى هذه السلة حلل صغيرة وأكواب وفاكهة .. وسندوتشات..

والمدرسة لها حوش كبير نلعب فيه الباسكت بول .. وحوش صغير وضعت فى جانب منه منضدة البنج بونج .. وكل الفصول تطل على الحوش .. وهى أعلى من مستوى الحوش . ولذلك يصعد لها بسلالم . هذه السلالم مكسرة وقذرة . وإن كان السعاة يرشونها بالماء.. وخصوصًا الفصل الذى سوف يدخله حضرة الناظر ..

وعندما رآنى حضرة الناظر قال لى :

احضر والدك غدًا ..

ثم دخل مكتبه بينما ظللت أبكى طول الطريق إلى البيت . فأبى ليس هنا . ولم أستطع أن أقول لحضرة الناظر .. ولا أعرف ما الذى سيفعله إذا لم يأت والدى غدًا ..

وفى اليوم التالى قالوا إن حضرة الناظر مريض . ولم يأت وحمدت ربنا وتمنيت أن يظل كذلك حتى يجىء أبى ..

وسألنى والدى : إن كنت أحب أن ألعب الباسكت ..

فقلت : لا .

ـ ولا البنج بونج ؟

ـ لا ..

ـ ولا أن تشترك فى فريق الموسيقى ؟

ـ لا .

ـ غلط يا ولدى .. لا تكن وحدك . يجب أن تشارك فى كل شىء .. فيكون لك زملاء وأصدقاء وتدب الحيوية والانتعاش فى حياتك .. فأنت شاحب الوجه وأنت لا تأكل كما يجب لأنك لا تمارس أى نشاط يفتح الشهية على الطعام والنوم العميق وأن تكون فى اليوم التالى أكثر حيوية .. لقد قلت لحضرة الناظر إننى أريدك أن تشترك فى كل شىء .. ثم إنك أول المدرسة .. لا تخف إن هذا لن يعطلك عن التفوق .. صدقنى ! وأنا لا أحب أن تكون متفوقًا مريضًا هزيلاً .. إن الطريق أمامك طويل يا ولدى .. طويل جدًا يجب أن تمشى فى طريقك بصحة وعافية وأعصاب هادئة وحب للعلم والحياة والناس .. يجب ياولدى ..

وكانت والدتى تعارض فى كل ذلك .. لأنها مصاريف لا لزوم لها .. ولأنها تشغلنى عن المذاكرة .. ولأننى كثيرًا ما تشاجرت مع زملائى فى المدرسة .. وإننى مثل خالى وأمى لا أعرف كيف أتشاجر .. وإننى أبدو ضعيفًا . وهذا الضعف يشجع التلامذة بالاعتداء علىّ لاننى لا أخيف أحدًا.. ولأنهم يحقدون على تفوقى.. فأنا أذاكر وأقرأ ولا أشارك فى اللعب..

والمدرسون يقولون دائمًا : إن اللعب سوف يذهب بهم جميعًا فى ستين داهية .. أنا وحدى الطالب الذى سوف يكون له مستقبل .

وكان ذلك يضاعف غيظ التلامذة وتحرشهم وتربصهم .. وإلقاء الحبر على كتبى والطوب وأحيانًا الوحل ..

ثم إننى لا أشكو لأحد ..

وإن كان بعض التلامذة يتطوعون نيابة عنى .. فإذا علم المدرسون بذلك . استدعوا التلامذة الذين ضايقونى فأداروا وجوههم إلى الحائط .. ثم طلبوا منى أن أصفعهم أو أضربهم بالشلوت .. وكنت أرفض ذلك ـ فيتولى المدرس ذلك وبمنتهى الشدة ! .

وكانت مدرسة البنات ملاصقة لمدرستنا .. فكنت أرى البنات تنظر من النوافذ وأحيانًا المدرسات .. وعرفت من عزيز أن المدرسات يعاكسن المدرسين .. ولم أفهم .. وأنه رأى واحدة منهن تلقى بخطاب لمدرس الألعاب الرياضية .. وأن هذا المدرس يسكن وحده فى آخر المدينة .. وأنه رآها ليلاً وقد غطت وجهها وهى تتجه إلى بيت هذا المدرس .. ولم تعد إلى بيتها إلا فى ساعة متأخرة .. وأنه ظل يلف حول البيت حتى يتأكد من ذلك.. وسار وراءها وأنه على يقين من كل كلمة ..

ولكنى لم أر تلميذة واحدة من هذه المدرسة لا دخولاً ولا خروجًا . وهزنى عزيز قائلاً: طبعًا لأنك أعمى ! .

كأننى لا أمشى فى الشارع وإنما أنا أدور حول نفسى .. أو أدور مثل الجاموسة فى الساقية .. وقد غطوا عينيها .. أو أنها لا تنشغل بشىء غير الدوران فى الساقية .. وأنا وضعت كتابًا على هذا الجانب من الوجه وكتابًا على الجانب الآخر .. أو اننى أنظر إلى الدنيا بعينى أمى .. وأعصابها .. ولذلك فدنياى خالية تمامًا .. أو يجب أن تكون فارغة من كل أحد ومن كل شىء .. وإننى مربوط بحبل .. أو بأستك من الجلد .. وكلما ابتعدت عن البيت شدنى بعنف .. ولذلك أخرج بصعوبة من البيت ، وأعود إليه بسهولة .. إن الجاذبية التى تشدنى ليست من تحت قدمى .. ولكنها من أنفى .. من شفتى .. من شعر رأسى ..

وأدرك والدى كل ذلك فى الساعات القليلة التى نقعدها معًا . ولذلك يحاول أن يوقظنى.. أن يهزنى لكى أصحو .. أن يستخدم السكين ليفتح عينى بالقوة .. أو يكسر الشرنقة أو المحارة التى أقبع فى داخلها ..

ولكنه كان فى غاية الرفق ..

أما طريقته فهو أن أصاحبه إلى رؤية أناس أكبر سنًا وإلى الاستماع إليهم .. دون أن ينبهنى إلى الذى أسمع أو الذى يقصدون من وراء حكايتهم .. ونوادرهم .. ولا حرج على أن أعرف أولادهم الصغار والكبار وحتى البنات وحتى زوجاتهم .. وأن أذهب إليهم دائمًا وحدى ، ولا داعى لأن أنتظر والدى حتى يجىء ..

إن والدى قد زرعنى بقوة فى أرض هؤلاء الأصدقاء ـ أصدقائه هو ..

١٥

أما كيف يختار والدى أصدقاءه ، فأنا لا أعرف . ولكن يكفى أن يلتقى بأى إنسان . كلمة من هنا وكلمة من هناك . وحكاية . ووالدى عنده حكاية مضحكة لكل موقف . وبسرعة يجىء مقعد لكى يجلس عليه والدى . وأجلس أنا أيضًا . ويجىء الشاى بالنعناع.. وبسرعة يتم الاتفاق على لقاء ..

لقد رأيت اناسًا صادقهم والدى . ولم يكن يعرفهم . ولكنه يلقى ترحيبًا من كل الناس. وأنا أحب أن أنظر إلى وجه والدى . إنه لا يكاد يقترب من أحد حتى يضىء فالابتسامة جاهزة .

والحكايات والنوادر والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأبيات الشعر كلها جاهزة عند أية إشارة منه ..

فإذا اشترى والدى فالبائع سعيد بأن يقدم له أحسن ما عنده .. ويعتذر عن قبول الفلوس . وكان والدى يرفض .. فكان البائع يعطينى الفاكهة والحلوى فوق البيعة ..

فى ذلك الوقت كان أهم أصدقاء والدى شيخ المسجد .. إنه على موعد معه دائمًا . يدق بابه . ويخرج الرجل وقد إرتدى جلبابًا وقد شمر عن ذراعيه : اتفضل اتفضل .. يا مرحبا يا مرحبا .. هلت روائح النبى .. أهل البركات والخيرات .. أهلاً ومرحبا ..

ويفتح لنا الباب . ولا يكاد يرانى حتى يقول : أهلاً بالحبيب ابن الحبيب .. أهلاً بباكورة الخير ..

وندخل فوالدى يعرف الغرفة التى نجلس فيها .. ثم يظهر امام المسجد وهو يضحك

قائلاً : يا سيدى انه شغل البيت .. الست بعافية .. ولابد أن أغسل الأطباق والحلل وملابس الأطفال .. الحمد لله على الصحة والعافية .. طبعًا شاى بالنعناع . وأثناء عمل الشاى أكون قد غيرت ملابسى وجئت بالملابس التى تليق بالمقام ..

وفى الصالون تمتد يد والدى إلى الكتب يقلبها .. وينسى وجودى .. هل أنا أخذت عنه هذه العادة .. ثم يقرأ بصوت هامس .. ويهز رأسه .. ويبحث عن كتب أخرى .. ويبدو إنه يعرف معظم هذه الكتب ..

ويجىء الشيخ بالجبة والقفطان والشاى والأكواب الصغيرة .. والرجل طويل نحيف أسمر وصوته غليظ .. وإذا تكلم فكأنه يخطب . وإذا ضحك كانت ضحكته مجلجلة .. وله شكوى :

والله يا محمد يا أخويا الناس ميتة على الدنيا .. نريد إصلاح المسجد ولكن أحدًا لا يتبرع بمليم واحد .. الرائحة كريهة تضايق المصلين .. والفئران تقفز من كل مكان والثعابين تطاردهم والناس يهربون من الصلاة . ومنذ أيام قفز فأر صغير أعمى أو مريض لا أعرف فإذا به يتعلق بالجبة وأنا لم أشعر بذلك فوجدت ثعبانًا واقفًا أمامى .. فلم أملك إلا أن خرجت من الصلاة والناس ورائى .. ووجدت الفأر فى جيبى ..

ويقول إنه عمل بنصيحة والدى وذهب إلى بعض الأغنياء . ولكن كل واحد وضع يده فى جيبه ودفع مبلغًا تافهًا . لولا أن والدى أقنع الباشا بدفع مبلغ من المال لبياض المسجد، لظل مظلمًا كأنه كهف أو مقبرة جماعية ..

والتفت شيخ المسجد ناحيتى وقال لى اسمع يا ابنى إياك أن تفكر فى أن تكون إمامًا لمسجد أو خطيبًا ..

وحكى لنا كيف انه سمع ابنه الصغير يقول لزملائه الأطفال إنه عندما يكبر سوف يكون له مسجد أكبر وانه سوف يكون إمامًا مثله .. فضربه علقة حتى لا يعود إلى هذه الأمنيات التعيسة مرة أخرى ! .

ولما حكيت لأمى هذه القصة كانت تدفعنى أن أذهب إلى بيت إمام المسجد وأن أجلس مع أولاده وأن أستمع إليه .. لأنه رجل طيب ـ ومن النادر أن تصف أمى أحدًا بهذه الصفات الفريدة ..

١٦

وفى الطريق إلى بيت القاضى الشرعى كان والدى يقول لى . إنه رجل طيب . ولكن طريقته فى الكلام لا تدل على إنه رجل غليظ القلب .. إنه لا يعرف كيف يضحك فلا تغضب منه

كل مرة ينبهنى ويحذرنى . وكل مرة أعود فى ضيق من هذا الرجل ..

ودق والدى الباب . وراح ينادى : يا فضيلة الأستاذ .. ضيوف ..

ويجىء صوته غليظًا عالياً من الداخل : أهلاً بالضيوف .. تفضلوا يا مرحبا ..

وتجىء خادمة تفتح الباب ويكون هو واقفًا وراءها .. العمامة كبيرة والجبة سوداء والقفطان أزرق مخطط بالطول .. وهو طويل وله كرش كبير ولا يكاد يرانى حتى يقول: ادخل انت يا ولد .. واذهب اجلس مع العيال .. ادخل ! .

وكنت لا أحب أولاده .. إنهم خمسة . إذا دخلت فإنهم يمضون فى الكلام وكأننى لست موجودًا .. حتى تجىء الأم وتطلب منهم أن يشركونى معهم فى الكلام .. وهم يأكلون دائمًا .. كل واحد قد ملأ جيبه ببلح أو جوافة .. أو بعض الفطير المشلتت .. أو بعض الفول الأخضر .. يتكلمون ويأكلون ويتشاجرون .. ومن الحين والحين يقترب واحد منهم ويسألنى : لماذا لا تظهر .. إننا نلعب بالقرب من بيتكم ..

ويتساءلون .. وهل أنا مريض .. أو كنت مريضًا ! أو هل صحيح أن أختى ماتت .. أو إنها خالتى ؟

أو هل صحيح أن الذئاب هاجمت الدجاج فى بيتنا وأن والدى قتل واحدًا من الذئاب ؟

ومن بعيد يجيء ـ عادة ـ صوت القاضى وينادى : تعال يا ولد .. ابعثوا به .

وتجيء الخادمة وتنتشلنى من بين هؤلاء الأطفال لأجلس مع والدى والقاضى .. ويكون القاضى هو المتكلم دائمًا · عيال عفاريت .. انت لا تعجبهم ، ولا هم يعجبونك .. انت هادئ .. انت تحب القراءة وهم يحبون الأكل مثل أبيهم ومثل أمهم أيضًا .. هذا الكرش من كثرة الأكل وقلة الحركة .. إياك أن تكون قاضيًا شرعيًا حتى لو قطعوا يديك ورجليك .. انت صغير لا تعرف .. ولكن بابا عنده فكرة .. إياك يا ولد .. خذها منى .. إياك!.

تصور يا سى محمد ــ يقول لوالدى ــ الولد الكبير يريد أن يقرأ فاتحة بنت خالته .. وأمه تشجعه على ذلك .. الولد الكبير فى الابتدائية .. ويا عالم هل سينجح .. المصيبة ان أمه وخالته متحمستان للفاتحة .. مصيبة والله .. العيال اتجننت والأمهات أكثر جنونًا .. ومع ذلك لا أجد كلامًا أقوله لمراتى وأمها .. والمصيبة ان كل الأسرة سعيدة بقراءة الفاتحة ! .

وسأله والدى : وأنت يا سعادة القاضى ماذا فعلت فى هذه القضية .. البنت صغيرة حقًا والولد صغير .. والكل متحمس لهذا الغلط .. وأنت أبو القانون ماذا فعلت ؟

ووقف القاضى يقول · وهل تظن اننى أعمل قاضيًا فى البيت ؟

إن البيت مكان للاتهام .. أنا متهم دائمًا .. متهم من أولادى بالقسوة ومن مراتى بالاهمال .. وهم جميعًا القضاة .. وأنا الوحيد الذى فى القفص .. علم ابنك ألا يتزوج إذا كبر .. والله العظيم ثلاثا لولا اننى قاض شرعى ما تزوجت يومًا واحدًا .. وإذا ارتكبت حماقة الزواج ما انجبت كلبًا واحدًا من هذه الكلاب التى تنهش صحتى ومالى وراحتى كل يوم ! .

وفى الطريق كان والدى يقول لى : إنه رجل ظريف ..

كأنه يريد ألا أصدق ما سمعت ، أو ألا أهتم باعادة التفكير فى ذلك .. وألا أنقله إلى والدتى ! .

١٧

وكنت ألاحظ أن والدى يتثـاقل وهو فى طريقه إلى بيت ناظر المدرسـة وهو من أقارب والدتى .. ويبدو أن والدى كان يلاحظ أننى أيضًا لا أحب هذا الرجل .. لا أحبه ولا أخافه. فكان يقول لى : إنه رجل جاد .. ولا يمكن أن ينجح إنسان فى إدارة عمل إلا إذا كان جادًا . وإذا هو ضحك مع الـذين يرأسهم فإن احترامهم له يكـون أقل .. ولذلك يجب ألا يسرف فى الهزار أو المداعبة .. أنا شخصيـًا لا أستطيع أن أكون كذلك .. ورئيـس أى عمل يحتار بين أن يكـون مخيفـًا وبين أن يكون محبـوبـًا .. والمخيـف لا يحبه النـاس ، والمحبـوب لايحترمه الناس .. وأنا لا أحب أن أخيف ! .

ونصعد الـدرج . وتمتد يد والدى تـدق الباب رغم انه مفتـوح دائمًا .. ولا يجىء أحد للرد على القادمين بسرعة .. إنهم يتركونه واقفًا بعـض الوقت . لماذا ؟ هذا ما يحدث فى كل مرة . ويظهر حضرة الناظـر . إنه أبيض طربوشـه قصير أحمر . ومنظـاره زجاج أبيض . وشاربـه يغطى جـانبًا نحيفًا مـن شفته العليا . وصـوته أجـش .. والسيجارة دائمًا بين أصابعه ..

وهو يتكلم بعض الوقت أمام الباب قبـل أن يقول : تفضلوا .. وفى الدقائق التى نقفها أمام الباب تكون أفراد أسرته قد انتقلت مـن مكان إلى مكان .. سيدة ممتلئة وفتاة وطفلة وخادمة ..

ثم يتلفت حضرة الناظر وراءه ويقول : الآن تفضلوا .. وانت ؟

يقصدنى أنـا .. أى اننى جئت مع والـدى . جئت أو ما كان يجب أن أجـىء .. وتكون

هذه البداية كافية لأن أنكمش فى مكان إلى جوار والدى ولا أرفع رأسى . لا أقوى . ولعلى لا أسمع أيضًا . فوالدى يتحدث عن لقائه بعدد من الناس هم أقارب حضرة الناظر . ويدخلان فى مناقشات طويلة عن الأرض والمحصول . ويقول حضرة الناظر دائمًا : ولكن المحصول عندنا هذا العام أفضل .. والدودة أقل . طبعًا انت عارف؟

يقصدنى . وبسرعة يرد والدى فيقول . أبدًا . لن يعمل فى إصلاح الأرض . ولا فى زراعتها . ولا الجرى وراء الذى دفع والذى لم يدفع .. ووراء الدودة واللطعة .. وينزل المصرف إلى الترعة .. ويتغذى عند الساقية ووراء الشادوف .. أبدًا .. وإحساسك طول الوقت انك تطارد الناس بكرباج لكى يدفعوا ما عليهم .. والناس لا يريدون أن يعطوا كما أخذوا .. بل أن يأخذوا ويأخذوا .. وينسوا حق صاحب الأرض .. وإذا أنا تغاضيت اتهمك صاحب الأرض بأنك متهاون .. وإذا أنا تشددت اتهمك الفلاحون بأنك بلا قلب .. فأنت متهم دائمًا . ولا أستطيع أن أمسك العصا واضرب الناس .. فلا هم تلامذة ولا أنا ناظر مدرسة .. أبدًا ابنى هذا لن يعمل فى الأرض .. بل سوف يعيش بعيدًا عنها ألف كيلو متر .. أنا كنت قد حكيت لك عن الخولى .. انه شاب نصف متعلم .. أنا الذى أتيت به . وأنا الذى ساعدته على الزواج .. وأنا الذى طلبت من الباشا أن يساعده .. واخترت له العروس وكان أهلها يرفضونه تمامًا .. وأقنعت أهلها . وتزوج والحمد لله . هل تعرف ماذا حدث .. لقد كتب خطابًا طويلاً إلى الباشا يقول فيه إننى اتفقت مع الفلاحين ألا يدفعوا الإيجار بدعوى أن الباشا لديه فلوس كثيرة .. مع أن كل شىء مكتوب ومحسوب .. الذين دفعوا والذين سوف يدفعون والذين طلبوا التأجيل بعض الوقت .. والباشا أعطانى الخطاب . وواجهت الخولى .. فبكى وراح يبوس يدى ورجلى .. ولأن الباشا يثق فىَّ تمامًا فقد فصله!.

ووقف ناظر المدرسة وقد وضع يديه فى الصديرى وقال مهددًا . إياك أن تكون قد طلبت من الباشا أن يعفو عنه .. إياك .. فأنت تفعل ذلك عادة .. وتلقى أسوأ النتائج ..

وقال والدى : هذا ما حدث فعلاً ..

فقال الناظر : وهل وافق الباشا ؟

والدى قال : طبعًا لا

جلس الناظر وهو يقول : معه حق . وهذه هى الأصول ! .

والتفت لى الناظر وهـو يقول : إياك أن تتعلم من والدك هـذه العادات السيئة .. والدك طيب زيادة عن اللزوم ! .

ولأول مرة أسمع والدى يتكلم عن نفسه .. وأول مرة أسمعه يشكو الناس . وأن نقطة الضعف فى والدى انـه رجل طيب .. وانه متســامح .. وإن الناس أشرار .. فهل هـذه هى الأسباب التى تجعـل الأدب والذوق والعطف على الناس هـى مصدر الفقر .. هل هـذا ما تقصده والدتى وقريباتها عندما يتحدثن عـن الفقر .. فقرنا .. فكل من هو فى مثل أخلاق والدى ، هو الذى يعيش ويموت فقيرًا ! .

١٨

وقبل أن يصل إلى بيت حضرة مأمور المركز يستقبلنا عدد من رجال الشرطة .. وكلهم يرفعون أيديهم بالتحية .. وهم جميعًا يعلمون العلاقة التى بين والدى وحضرة المأمور .. وكل يؤكـد له أن حضرة المأمور موجود وفى انتظـاره من ساعة .. وأن والدى قـد تأخر .. وأنه لا أحد هناك سوى إخوة الهانـم .. وإنهم جميعًا فى انتظار والدى .. والمكان نظيف .. والبيت وسط حديقة .. والإضاءة قوية .. وكل من تقع عليه العين فمن رجال الشرطة ..

أما حضرة المأمور فقد ارتدى ملابسه الرسمية .. متوسط القامة صعيدى أصلع وفى جبهته وشم أزرق وفى ذقنه أيضًا ... وله شارب غليظ مقسوم نصفين تحت الانف ..

وقبل أن يرانـا يقول : أهلاً وسهلاً .. يا ليلـة بيضـاء .. أهلاً والله لك وحشـة يا محمد افندى .. والنجل العزيز معك . أهلاً زارنا النبى ..

ويتعانـق الرجلان .. ويمد يـده ناحيتى ويداعـب شعرى ويمسك أذنى .. ويتقـدمنا قائلاً : البيت بيتـك والناس أهلك .. تحب تشرب ماذا ؟ وتـأكل ماذا ؟ .. تستاهـل الدبح ! هاها . هاها ..

ويمضى قـائلاً : نحن قد ذبحنـا الأوز والبط .. ونحن مستعدون نـذبح خروفـًا هل استدعى لـك شيخ البلد .. إنه رجـل سيئ . وأنا صدقـت كل كلمة أنت قلتهـا .. إنه رجل كذاب مخادع ورجل بخيـل ولص .. ولا أعرف كيف عـاش طويلاً فى هذا البلـد إلا إذا كان الذين معه من اللصوص .. وفعلاً كلهم لصـوص . وأنا مسكت هذا الكلب الوسخ وقفلت عليه .. وضربته وأبكيتـه حتى عرفت منه الحقيقـة .. الحقيقة مؤلمة .. يا سيـدى أقدم لك

الدكتـور فتحى .. وهو الأخ الأصغر لـزوجتى .. لا .. لا .. الأخ الأكبر .. زوجتى مـا تزال صغيرة أصغر من جميع أولادها الذين تجاوزوا العشرين .. هاها .. هاها .. هذه تعليمات زوجتى بالحرف الـواحد .. إنها أصغر منى بـأربعين سنة .. وأصغر من أولادهـا جميعًا بخمس سنين .. هاها .. هاها ..

ثم يتصـدر حضرة المأمور الصـالون ويلتفـت لوالـدى ويقول لـه : ماذا صنعـت فى الحيوان الوسـخ الذى يتزوج كل يوم واحـدة ويطلقها . وهل طردته مـن العزبة ؟ إذا لم تكن قادرًا فأنا مستعد لذلك تمامًا . فهو المسئـول عن الجريمة التى وقعت من ثلاثة أيام عندك .. عندك فى القرية .. عارف طبعًا ! .

ولكن والدى أكد له انه لم يسمع عن جريمة ، ولا أحد قال له ذلك ..

واندهش المأمور ، وقال لـوالدى . خافوا منك .. فأنت قد دافعت عـن هذا الرجل وأنت غلطان يا محمد افنـدى .. إنه لص حتى لو كان عنده مـائة طفل وعشرون زوجة .. وكان مصابًا بألف مرض .. الذى أفهمه إنه لـص وانه قاتل فنحن أولى به .. المحاكم والسجون هذا هو الـذى أفهمه .. إن هذا المجرم طلب من الـداية وهى تولد البنـت مبروكة ، مبروكة بنت العمدة التى رفض أن يزوجها له .. طلـب منها أن تدخل فارًا صغيرًا فى بطن البنت .. ويعيد عنك هذا الفار بهدل الدنيا .. وماتت البنت هى والمولود .. مجرم حقيقى ! .

تولانى الـرعب وأنا أنظر إلى وجه المأمور الـذى لم يتغير وهو يحكى عشرات الجرائم بنفـس الحماس . ووالدى وكـل الحاضرين لا يعلقـون بشـىء . فهو الـذى يتكلم طـول الوقت.. وكـل شىء جديد .. ينتقـل من جريمة إلى جـريمة .. بسرعة غريبة . وكان هذه المنطقة ليست فيها إلا قتلة وضحـايا .. وأن البوليس يقضـى الليل والنهار فى وضع الناس فى السجون أو فى المقابر ..

ونظر حضرة المأمور فـوجدنى خائفًا . فقال : أنـا كنت مثل ابنك هذا أسمـع حكايات القتل والذبح ويغمى علىّ .. وفى يوم من الأيام لاحظت أمى اننى خائف .. وانت تعرف أمى كان أبوها ضابط بوليس وقتال قتله .. فما كان منها إلا أن أتت بفرخة وذبحتها أمامى .. ولما حاولت أن أنهض صفعتنى على خدى وقالت : يا بنـوته .. يا مايص .. وشوية شتائم

من اللى قلبك يحبها . وأكرهتنى على الجلوس .. ثم أعطتنى السكين وأتت بفرخة وقالت لى: اذبح الفرخة .. إذا لم تذبحها أنا سوف أذبحك .. ثم وضعت يدها على رقبتى ووضعت السكينة على أنفى .. اذبح يا ولد .. اذبح .. يا راجل .. يا ابن أبوك وأمك .. اذبح ! .

ثم استراح إلى هذه القصة وقال . أمى كانت جبارة .. وكانت بعد أن تذبح الفرخة .. تكسر رقبتها بيديها ! .

وسأل والدى · إن كان هو الآخر يذبح ..

فأجاب والدى . نعم . طبعًا . ولكن بعيدًا عن الأولاد .

وأشار حضرة المأمور إن كنت قد أحببت هذه الهواية . فأنكر والدى تمامًا قائلاً : إنها تحتاج إلى أعصاب قوية وإلى عناية فائقة .. وأعصابه ليست قوية ، ويجب ألا ينشغل عن الدراسة ..

وقال المأمور · إذن لن يكون مأمور مركز .. والله هذا أحسن وأفضل وأكرم ! .

١٩

تتغير معالم البيت عندما نعرف ان طبيب الصحة سوف يزورنا .. كل شيء يصبح نظيفًا والفاكهة تجيء . والشاى يكون جاهزًا يجب أن أقدمه فور وصول الطبيب ..

وهو لا يجيء فى موعده . وإنما بعد ذلك بنصف ساعة . وله دقات خفيفة على الباب .. ويدخل مباشرة متجهًا إلى سرير والدتى .. وبعد ذلك يجيء ويجلس معنا .. ويدور بينه وبين والدى نقاش عن العقاقير وعن الأعشاب الطبية وعن الوصفات البلدية . وإنها هى الأفضل . وأن البشرية كانت تعالج نفسها من ألوف السنين بأعشاب ومحاصيل الحقل . وكان المريض هو الطبيب .

ويسألنى الطبيب هل تحب أن تكون طبيبًا ؟

فبسرعة أقول: نعم .

ويقول الطبيب : ولكن لماذا ؟ إنها مهنة شاقة جدًا .. لماذا ؟

فأرد بسرعة وكأنى فى الفصل لكى أعالج ماما ..

ـ ابن بار بوالدته ..

ويقول والدى: وبوالده أيضا .. ويحب كل الناس .. بل والحيوانات .. والكلاب والقطط والطيور ..

ـ إذن أنت لا تصلح أن تكون طبيبًا .. لأن الطبيب يحتاج إلى قلب جامد .. وإلى أن يستبعد حكاية الحب والعطف والرحمة .. أنا شخصيًا لم أكن أطيق أن أسمع صوت طفل يبكى .. الآن أجدنى مضطرًا أن أقرص الطفل ليبكى لكى أرى لسانه وحلقه وأرى تنفسه وحركة يديه ورجليه .. دون أن اهتز ..

وعدت أقول: ولكنى أريد أن أكون طبيبًا ..

ووجدت والدى يهمس قائلاً للطبيب إنه يشكو من إرهاق عام .. وعطش شديد .. وانه وانه فقال له الطبيب : أخشى أن تكون مصابًا بالسكر .. هل كان أبوك مصابًا بالسكر ..

فقال والدى . لا .. جدى كان مصابًا بالسكر ..

قال الطبيب . معقول .. أولادك لن يصابوا ولكن أحفادك .. هذه هى القاعدة .. منذ متى وأنت تشكو من الارهاق والاعياء ..

قال والدى : منذ الأسبوع الماضى .

ـ ماذا حدث فى الأسبوع ؟ هل انفعلت إنفعالاً شديدًا .. هل أنت تسرف فى تعاطى الحلوى .. واضح انك تأكل كثيرًا يا محمد افندى .. طبعًا الأكل السمين والدهن ثم الانفعال الشديد .. وعدم الراحة .. كل ذلك يجعل الإصابة بالسكر ممكنة جدًا .. أنت محتاج إلى تحليل ..

وكان والدى قد أصيب بالسكر وهو لا يدرى .

وسأله والدى : وهل زوجتى ؟

فأجاب : لا .. ولكن ..

ثم تهامس الاثنان .. واتفقا على أن يكملا الحديث بعيدًا عنى ..

وكان والدى يقول لى إن هذا الطبيب أبوه بواب إحدى المدارس .. ولكنه كان جادًا متفوقًا فى دراسته .. حتى أصبح طبيبًا .. ثم هو شديد الامتنان لوالديه .. وأقسم إنه لن يتزوج مادام أبوه وأمه على قيد الحياة .. فهو لا يريد أن تجىء زوجة تسىء معاملة والدته .. وقد حاولت أمه كثيرًا أن تزوجه بنت اختها ولكنه رفض .. وهو يعطف على الفقراء من أقاربه .. ولكنه يقسو على إخوة له غير أشقاء .. وربما كان هذا هو العيب الوحيد فى سلوك هذا الطبيب الماهر الطيب..

وسألت والدى عن معنى القسوة فى المعاملة .. فقال : إنه لا يعطيهم مالاً .. إنه يمنعهم من دخول بيته ورؤية والدهم .. إنه ينكر أنهم إخوته .. وهو على حق فبعضهم غير مهذب ويتزوج ويطلق .. ولا يصلى ولا يصوم .. معه حق أحيانًا .. ثم إنهم كانوا فى غاية القسوة على أمه عندما كان صغيرًا لا يستطيع أن يدافع عنها ..

ثم يضع يده على كتفى ويقول : انت ما تزال صغيرًا .. وسوف تعرف عندما تكبر ..

٣٠

كانت ليلة ثقيلة لكثرة المصائب التى سمعتها .. وكانت سوداء لكثرة النهايات الحزينة.. وحمراء لما سمعت عن جرائم اشعال النيران فى المخازن والحقول والبيوت ..

فجاة ودون أية مقدمات جاء المأمور ومعه وكيل النيابة والعمدة وبعض الخفراء ..

وأناس على وجوههم كدمات وعلى ملابسهم بقع من الدم .. وبنادق وسكاكين .. ووضعت يدى على بطنى .. لقد تقلص مصرانى الغليظ واخفيت الألم عن والدى .. وضغت على شفتى حتى لا تفلت آهة من أعماقى ..

وشد المأمور يدى مصافحا وهو يقول لا تكن رخوا كالبنات .. أنت رجل .. صافحنى بشدة .. بعنف .. رجل لرجل .. هات يدك ..

وكاد يعجن أصابعى تماما ولكن لم أقل آه .. كما كان يتوقع . فاذا به يقول : الله أنت جدع جدا .. أمال شكلك لا يدل على ذلك .. أن اتخن رجل اذا امسكت يده فأنه يصرخ راكعا ! جدع والله ياولدى .. إبنك جدع يا محمد افندى !

ولكنى تألمت .. ولم أشأ أن اجعله يشمت ويسعد بصراخى .. والحقيقة أن أصابعى أوجعتنى جدا .. حتى بعد أن ترك يدى فأننى لم أعد أقوى على تحريكها ..

ولم يكن ذلك هو الألم الوحيد تلك الليلة ..

فقال المأمور وهو المتحدث معظم الوقت · أولاد الكلب الذين حبسناهم الآن تخصصوا فى سرقة الحمير .. ووضع السم للأبقار والجواميس .. وقد اعترفوا بأنهم سرقوا عشرة حمير وقتلوا عشرين جاموسة وبقرة .. وعرفنا من الذى حرضهم على ذلك..شىء غريب

أن نجد واحداً منهم قد حرض زوجته على أن تخطف طفلا رضيعا وتسد فمه .. ثم تلقى به عند الساقية .. حيث تعيش بالقرب منها ذئبة قتلوا زوجها وتريد أن تنتقم من أى إنسان .. وقد نهشت الذئبة بطن هذا الطفل ..

ووضعت يدى على الجانب الايسر من بطنى .. وضغطت عليه .. ولكن مصرانى الغليظ ينتفض كأنه سلك من النار يتلوى فى احشائى .

ومضى المأمور فى سعادة تامة كيف أنه كان يتوقع كل ذلك حتى النار التى اشتعلت فى مخازن الغلال .. كان يعرف من الذى سيرتكب هذه الجريمة .. لقد تابعه عندما خرج من بيته وراح يلف على كل البيوت ليتأكد بنفسه أن الناس جميعا قد ناموا .. وأنه رآه وهو يمسك زجاجة وضع فيها البنزين .. وأخفاها فى ملابسه .. وتركه حتى ذهب والقاها على جوالات القمح .. ثم أشعل فيها النار وعندما حاول الخروج هاربا وجد المأمور وشيخ الخفر فى انتظاره ولما حاول الهرب أطلق عليه المأمور النار فى إحدى ساقيه .. ولما حاول أن يهرب عاد فاطلق النار على ساقه مرة أخرى .. ولولا أنه كان رحيما به لأطلق عليه النار فى رأسه .. أو فى صدره أو بطنه .. أو فى ساقه الأخرى .. ولكنه من باب الرحمة وأنه صاحب عيال أصاب ساقا واحدة ..

ثم نظر إلى كل الحاضرين وقال لهم والله لولا أننى تخيلت أولاده وزوجته الطيبه بنت الرجل الطيب لقطعت ساقيه أو ساقا وذراعا .. ولكن ربنا رحيم بعباده !

والله العظيم ثلاثا وعلى الطلاق من زينب وشربات ـ هو الذى يقول ويحلف ويتلفت إلى الجميع يؤكد أن يقصد ما يقول بالحرف الواحد : ما رأيك يا محمد افندى لابد أن أجعل ولدا من أولاده يضربه بالجزمه أمام جميع الاولاد ..

وسألوه : من هذا الذى سوف يضربه واحد من أولاده أمام بقية الاولاد ..

فقال : الشيخ بريك !

فقالوا فى نفس واحد : الشيخ بريك .. هذا الرجل الطيب .. نعوذ بالله ..

ونهض المأمور واقفا ونادى احد الخفراء تعال يا ولد ..

ودخل خفير بشارب متساقط كأنه وقع . أو يحاول الوقوع فيرفعه .. شاربه ميت

يستعجل الدفن .. فقال الخفير : حدث يا سعادة البيه ..

المأمور يشخط . حدث ماذا يا ابن الكلب ؟

الخفير : استغفر الله العظيم ..

فقال المأمور · ابن الكلب عامل لى مؤدب . قل لهم ماذا حدث يا ابن الحلوف !

الخفير (يشير إلى مكان من مؤخرته)

المأمور . من التى قرسها

الخفير السست الهانم حرم طبيب المركز ..

وسأله والدى : ومن هى شربات ؟

المأمور : جرى لك ايه يا محمد افندى .. أنها زوجتى الجديدة ..

وكان والدى يرى أنه شىء عادى جدا أن يضرب المأمور .. وأن يعاقب وأن يعذب .. وأن يكون قاسيا .. ولكن هذا الزواج الذى تم سرا ولم يعرف به احد . ولم تعترض عليه، زوجته الاولى .. كان مفاجأة لوالدى ولكل الاصدقاء ..

وقد همس واحد فى أذن والدى : أنه يريد أن يطلق الاثنين لانه عينه على واحدة ثالثة عندها قرشين كويسين .. هل تعرف من ؟ بنت تاجر الغلال الحاج عبد الفتاح .. ابنته الوحيدة وكتب لها كل ما يملك .. عندها شىء وشويات .. ربنا يعطيه الصحة والعافية !

طبيعى أن اضع يدى على الجانب الايسر من بطنى وأن أقول . آه ..

والاحداث بعد ذلك معروفة لوالدى .. فأنا أقول آه .. واتوجع وافرغ كل ما فى بطنى .. واظل طريح الفراش أياما . والسبب هوأننى لا اطيق أن اسمع واتخيل صور العنف والرعب إلى جانب صور الخوف والفزع والقلق .

وصرخت بأعلى صوتى : عقربة !!

وأغمى على ..

وعرفت فيما بعد أنها لم تكن عقربة وإنما هى « فرس النبى » تلك الحشرة الخضراء المسكينة الوديعة .. قد تسلقت العصا التى يمسكها والدى .. ثم قفزت إلى ملابسه وفى طريقها إلى عنقه ..

٢١

أما صاحب محطة البنزين فكان يحرص على أن يكون اللقاء أمام المحطة نفسها .. يضع المقاعد ومن ينفخ فى الشيشة ومن يشرب العرقسوس .. كل ذلك فى داخل المحطة وتجيء السيارات وتخرج أشكالاً وأحجامًا وعلى الرغم من أنه يتكلم طول الوقت فعينه على كل شيء حوله ويكتب فى ورقة أمامه ..

وكان يرتدى الجلباب وفوقه جاكته وطاقية بيضاء . وهو رجل متعلم . دخل كلية الحقوق ولم يكمل . فقد مات أبوه . وكان لابد أن يخلفه أحد . فكان هو الابن الأكبر . وقد أدخل تعديلات كثيرة على المحطة .. وجعلها أكثر نظافة وأكثر ألوانًا .. وزاد عدد العاملين.. وكان خفيف الدم .. فلا يكاد يزوره أحد حتى يسرع إلى زجاجة كبيرة ويصب منها على يدى الضيوف .. ويشمونها فلا يجدون عطرًا فيتساءلون فيكون الرد سريعًا : والله أنا كنت أقدم للناس عطرًا . ولكن رائحة البنزين أقوى فكان الناس لا يميزون بين الكولونيا والبنزين .. وأخيرًا لم أجد إلا أن أقدم للناس ماء عاديًا فإذا قالوا : إنهم لا يشمون عطرًا أقول لهم . وماذا أعمل إن البنزين أقوى من أى عطر .. هاها .. هاها ! .

وكانت الصحف والمجلات على مكتبه .. إنه يقرأ ويحكى ما قرأ من أحداث فى مصر وفى الدنيا .. وكانوا يعرفون ذلك ، فهم يسألونه : وما أخبار الدنيا .. ماذا فعل هتلر ..

وكان يحكى ما الذى فعله هتلر فى ألمانيا وما الذى يهدد به . وكان شديد الإعجاب بهتلر .. كلهم كانوا معجبين إلا واحدًا : والدى ! وكان ذلك موقفًا شاذًا . وكان لا يصرح بهذا الرأى لأنه يبدو غريبًا .. وكانت كراهية والدى لهتلر سببها . انه قاتل وانه مثل أى

جزار .. لولا أن الجزار يذبح البهائم وهو يذبح البشر .. والجزار إذا كان يقتل بسكين صنع فى مصر يشبه الذى يذبح بسكين صنع فى شفيلد بانجلترا . أو فى ألمانيا .. كلاهما جزار .. وكلاهما قاتل .. ولم أكن قادرًا على متابعة ما يقال ولكن صاحب المحطة هو المتحدث الأول والشارح الأول للأحداث .. وكان يقول لوالدى : والله يا عم محمد انت الذى أفسدت زوجتى .. فأنا الآن لا أعرف كيف أكلمها .. تقول لى أنت لا تفهم .. هناك رجل واحد يفهمنى هو عم محمد .. إنها يا سيدى تقرأ شعر شوقى وحافظ والمتنبى وأبو تمام وأبو العلاء .. كلما كلمتها فى شىء قالت لى شعرًا .. فقلت لها سوف آتى لك بعم محمد لكى تأخذى راحتك معه .. مبسوط يا سيدى ؟ .

وكان والدى يقول . أحمد ربنا .. إنها راضية بالحياة فى البنزين ليلاً ونهارًا .. وكأنها تعيش فى صفيحة بنزين أو فى برميل زيت ..

ويرد صاحب المحطة : هذا هو الكلام الذى أفسدها تمامًا .. فأنا لا أعرف ما الذى أقوله لها .. إنها تقول لى دائمًا إنى لا أفرق بين عطر سواردى بارى وبين البصل والثوم .. ولذلك فإننى إذا سمعتها تقول شعرًا ابتلع لسانى ولا أنطق بكلمة واحدة ! يا عم محمد إعمل معروفًا وتزوجها أنت ! هاها ...هاها ! .

ثم يشير ناحيتى ويقول . والمحروس ما يزال يحفظ الشعر ..

فيقول والدى : الكثير جدًا من الشعر ..

ـ إذن .. إذهب للست أم شريف .. إذهب إليها يا حبيبى . سوف تحبك جدًا .. وسوف تقدم لك الحلويات .. ولن تتركك .. اذهب اسمعها شعرًا .. إذهب . وينادى أحد العمال ويقول له : خذ ابن عمك محمد وخليه يقابل الست أم شريف .. تفضل يا حبيبى ! .

والست أم شريف لطيفة رقيقة .. أخذتنى بالحضن .. وهى تقول كيف حال ماما .. تعال يا حبيبى . تأكل ماذا ؟ عندى فاكهة وعندى حلويات .. وسوف أسمع منك الشعر الجميل الذى قلته فى المرة الماضية .. وسوف أقول لك أنا أيضًا شعرًا .. أنت وأنا ووالدك الوحيدون فى الدنيا يتذوقون الشعر .. لا زوجى ولا أولادى ولا أخوتى يحبون الشعر ويسمونه كلامًا فارغًا .. ماما تحب الشعر ؟

قلت : لا ..

ـ انت فقط ..

ـ أنا وبابا ..

ـ وخالتك ..

ـ لا خالتى تحب الاغانى .. وصوتها جميل جدًا .

ـ انت تحب خالتك ؟

ـ جدًا ..

ـ أكثر من ماما .

ـ لا ..

ـ أكثر من بابا ..

ـ لا . .

ـ لما تكبر تريد أن تكون ماذا ؟

ـ طبيبًا ..

ـ أولادى يريدون أن يكونوا ضباط بوليس ..

ـ من قال لك تحب أن تكون طبيبًا .

ـ لا أحد .

ـ ماما ؟

ـ لا ..

ـ بابا ؟

ـ لا ..

ـ انت من نفسك . لماذا ؟

ـ لكى أعالج ماما .

ـ من ماذا ؟

ـ لا أعرف ..

ـ انت تحب الأطباء ..

ـ لا أحبهم ..

ـ لماذا ؟

ـ كثيرون ولكن أدويتهم لا تشفى ماما ..

ـ يعنى انت تريد أن تكون طبيبًا مختلفًا .. أفضل من هؤلاء الأطباء الذين يظهرون ويختفون ويتقاضون أجرًا ويصفون الدواء ولكن الدواء لا يشفى ماما .. مش كده ؟

ـ نعم .

ـ وإذا ربنا شفى ماما بكره أو بعده ، هل تريد أن تكون طبيبًا .

ـ لا ..

ـ يعنى انت تريد أن تكون طبيبًا لكى تعالج ماما ..

ـ نعم ..

ـ ربنا يحميك يا ابنى .. ويشفى لك ماما .. تحب تاكل ماذا يا حبيبى .

ـ شكرًا ..

ـ إذن أنا سوف أعطيك نصيبك ، مثل أولادى تمامًا ، وانت تأكله فى البيت .. وتسلم على ماما .. وتقول لها إننى سوف أزورها قريبًا جدًا ..

٢٢

لابد انها طريقة كلام الخواجة مخالى هى التى تجعل الناس يضحكون .. ثم أنه رجل ظريف وله حكاية مع كل واحد .. والناس يدخلون بشكل ويخرجون من عنده بشكل آخر. وهو يضع المقاعد والترابيزات أمام البار للذين يشربون القهوة أو الشاى أما الذين يشربون الكحول فهم فى الداخل .. وعلى الباب ستار أحمر .. هذا الستار يحجب الذين فى داخله حتى لا يراهم المشاة .

وكل الناس يداعبون الخواجة مخالى . ويقولون له : انت الرجل الذى تجنن الناس ..

ويقول : أبدًا .. الناس تجىء مجنونة تخرج مبسوطة .. عاقلة .. كل واحد يجىء عصبيًا قرفان زهقان يريد أن يقتل أخاه وزوجته وأولاده .. ولكن بعد ساعة يخرج يحب الناس كلها .. حتى حماته يموت فيها ..

ويقال له : كل الناس سوف يذهبون إلى جهنم عن طريقك ..

ويقول : وكم من الناس سوف يدخلون الجنة عن طريق أكبر حشاش هنا .. رجل يحب الحشيش ويحب الستات .. ثم يخطب الجمعة . هاها . هاها .. كم واحدًا سأكون سببًا فى دخولهم النار وكم واحدًا بسببه هو ؟ ! قل لى من فضلك ! .

واحد يسأله : وبعد أن تموت يا خواجة من الذى سوف يدير الخمارة ..

ـ ابنى .. ابنى مدرس فى أثينا الآن .. وبعد ستة شهور سوف يجىء إلى هنا .. الناس كلهم طيبون .. وابنى طيب جدًا ..

ـ عندك ولد واحد ..

ـ لا . ولدان وبنت .. البنت خلاص اتجوزت .. الولـد الكبير يريد أن يكون طبيبًا مثل ماما ومثل خاله ..

ـ ماما بتاعتك كانت دكتورة .

ـ لا .. ماما بتاعته هو .. مراتى كانت دكتورة . ولكن ماتت .. الله يرحمها .. وبعد ذلك لم أتزوج ولـن أتزوج .. وربما جاء وعاش هنـا فى مصر .. مصر حلوة .. والناس حلـوين خالص .. أنا أريد أن أستريح .. أنا تعبت خالص فى تربية الأولاد .. عاوزين فلوس كثيرة.. أنا أبعـث لأولادى كل مـا أملك . أنـا لم أشتر بنطلونـًا واحدًا مـن ثلاث سنـوات .. إحنا عايشين علشان نربى أولادنا .. أول ابنى ما يجىء هنا .. سوف آخذ اجازة وأعود إلى أثينا أستريح هناك .. استحم واصطاد سمك .. واستنى الموت . أدى الدنيا ! ولا ما رأيك يا عم محمد؟

ـ فعـلاً هكذا يـا خواجـة .. كلنا ضيـوف على هذه الـدنيا .. ضيـوف خفاف ظـراف وضيوف ثقـلاء .. أو ضيوف أحمالهم خفيفة ، وضيـوف همومهم ثقيلة .. والـذى عنده أولاد هو صاحـب الهموم الثقيلة .. والذى لا تـزوج ولا عنده أولاد ، هو صاحـب الهموم الخفيفة أو هو الذى بلا هموم ..

ـــ كل الـذيـن يجيئـون إلى هنا هـم أصحـاب الهمـوم الثقيلة .. يجيئـون يشربـون ويصرخون ويبكون .. إنهم يريدون أن ينسوا أن لهم زوجات وأن لهم أولادًا .. وأن هناك شيئًا اسمه مستقبـل الجميع . صحيح إن الخمر لا يفعل شيئـًا ولا تحل مشكلة ولكنها تحمل عـن الإنسان بعـض الوقت همومـه . الخمر مثل الشيـال فى المحطة .. يحمـل عن الإنسـان حقائبه .. ويضعها فى القطار .. ولكن الخمر لا هى الشنط ولا هى القطار .. ولكن الإنسان التعبـان من الممكن أن يغضب ويغلـط ويفقد أعصابه وعقلـه .. ولكنه إذا شرب تحولت أعصابه من أسلاك حديد ساخنـة .. إلى خيوط حريرية .. مشدودة أول الأمر ثم متراخية تمامًا .. وبعدها ينام ويصحو للمشاكل ثم يجىء هنا للراحة .. وهكذا..

وكانت تتعـالى الأصوات تقول . يا دكتور . يـا دكتور .. يا شافى مـن كل مرض .. إلا مرض البقشيش . البقشيش ده مرضك انت ..

ـ أبدًا .. ده مسألة ذوق . انت وذوقك .. أنا لا أطلب ! ولا ما رأيك يا عم محمد ..

وكان والدى يقول : البقشيش مثل الواحد الذى لا يكتفى بمصافحتك وإنما يحضنك.. أو يحتضنك ثم يقبلك .. فأنت تستطيع ألا تفعل شيئًا من كل ذلك .. ولكنه الحب الصادق للخواجة هو الذى يجعل الناس تحس إنه خادم الجميع وحبيب الجميع ! .

ـ خسارة يا عم محمد إنك لا تشرب ! .

ـ . . .

ـ إنت تعرف ماذا حدث أمس .. لقد جاءت مدام شوقى .. إنت تعرفه .. وفضحت الدنيا هنا .. أوه .. تعرف الحاج عبد الستار بتاع الحمص والسودانى كان يبحث عن ابنه.. والولد اختفى وسط الزبائن .. أوه .. ضربه علقة جامدة خالص هنا .. وأنا امبارح قلت لمسيو كمال الدين إنه لا داعى لأن يجىء هنا .. لأنه يشرب كثيرًا .. وإذا شرب شتم الزبائن .. وإذا منعته فإنه يحطم الأكواب .. وإذا منعته يهرب ولا يدفع .. وهددته بأننى سوف أقول للمأمور .. مادام الإنسان ضعيفًا وغير قادر على أن يمسك نفسه إذا شرب ، لا داعى للشرب ..

ـ ما أخبار هتلر ؟

ـ آوه .. هتلر .. يخرب بيته .. مش حيسكت خالص .. لازم يبلع الدنيا كلها ..الألمان جامد جدًا .. وموسلينى كمان .. هناك مصيبة كبيرة جدًا .. وعلشان كده أنا طلبت من أولادى أن يحضروا إلى مصر بسرعة .. فيه واحد شاف لى الكف وقال لى . إن أولادى سوف يهربون إلى مصر .. لأن فيه خطر على بلاد اليونان .. وأنا أصدق الرجل ده .. لأنه هو اللى قال إن ماما بتاعتى حتموت قريبا .. وماتت بعدها بشهر واحد ..

وكان والدى يجلس بعض الوقت عند الخواجة مخالى .. وكان يشترى منه نوعًا من الجبنة والزيتون .. ويبدو انها كانت موادًا نادرة ولذلك كان يقدم له الجبنة والزيتون فى ورقة جورنال .. وبعيدًا عن عيون الناس ..

وكان يهدى والدى بعض الزجاجات الفارغة الكبيرة .. وكذلك بعض الصناديق الخشبية ..

وكان يودع والدى وكل الذين لا يشربون قـائلاً : أنتم بركة . أنتم شرفتم.. إذا دخلت الجنة ولو يوم واحد .. فأنتم السبب .. أورفوار ! .

وفى العودة إلى البيت كان لابد أن أسمع تعليقـًا من والدى .. فكان يقول : إن الجماعة اليونانيين من أقوى الأجانب فى مصر .. الواحد يجىء بمفرده ويسكـن فى قرية لا يعرف فيها أحدًا .. ولكن بسرعـة يفتح دكانًا صغيرًا .. وبعد ذلك ـ يصبـح كبيرًا ويكون صديقًا لكل النـاس . ويكون بيته نظيفًا وملابسه نظيفة . ولا يكـذب ولا يغش ولا يسرق . ولا يغضب أى أحد .. وبعد سنة أو سنتين يأتى بأولاده وزوجتـه .. أو بأقاربه ويفتح دكانًا أكبر .. ومهما كبر الدكـان ومهما زاد عدد أولاده فهم جميعـًا لا يكذبـون ولا يغشـون ولا يغضبون أحـدًا من النـاس .. ثم إن فيهم رحمة .. فهـم يساعـدون الفقير .. ويحترمون مشاعر الناس ويجاملونهم فى كل المناسبات الدينية والاجتماعية ..

وقال والدى : إنه لم ير هذا الخواجة مكشرًا أبـدًا ولا حزينًا ولا حتى مريضـًا .. وإنما هو دائم الابتسام دائم الترحيـب والحفاوة بكل الناس .. وهـى من صفات التاجـر الذى يريد أن ينجح . وهم ناجحون دائمًا .

وقال لى : إنه يمضى الشهور فـلا يراه . ولكن عندما يراه فكأنه كـان معه بالأمس .. يتلقاه بالاحضـان ويسأله عن الزوجة والأولاد ولا ينسـى الأولاد . ولا ينسى أسماءهم . ولا ينسى آخر كلام كان بيننـا .. وهذه مقدرة فريدة للأجنبى الذى يـريد أن يكون مثل أولاد البلد .. كأنه واحد منهم ! .

٢٣

فى الصباح جاء رجل وزوجته ينظفان البيت .. وبسرعة تحرك كل شىء فى البيت .. أنا غيرت ملابسى .. ووالدى أيضا .. وراح يتلو القرآن .. ثم يرتله .. ثم يتغنى .. ثم يلقى ابياتا من الشعر .. ويشرح لى معانيها ويطلب منى أن أرددها وراءه .. كل حياة والدى قرآن وشعر وترتيل وغناء ومرح وشرح لكل ذلك .. وحكايات ونوادر .. وهو الذى يضحك .. فإذا لم أضحك ادرك أننى لم أفهم . شرح لى ذلك .. أو سألنى عن حالى وان كنت قد نمت جيدا . وإذا كنت قد خفت من النوم وحدى فلماذا لم أقل له ذلك .. وإذا كنت قد نهضت فى فزع كما تقول أمى . فلماذا لم أذهب إليه وأنام معه فى فراشه ..

وسألنى والدى : ماذا يحدث لك يا ولدى ؟..

ـ لا أعرف .. مرة اجد الذئب يمسك بملابسى .. مرة اسقط فى بئر .. ومرة اطير إلى ما فوق السحاب ثم اسقط إلى الارض .. ومرة اجدنى فى إناء يغلى .. واحاول الخروج فلا أستطيع .. ولكن أول امس وامس لم أخف أثناء النوم ..

وخرجنا . وفى الطريق قال لى والدى ان ماما لا تحب الناس الذين سوف نزورهم . وإذا عرفت أننا زرناهم سوف تغضب ..

وفهمت أن والدى لا يريدنى أن أقول لامى أننا ذهبنا لزيارتهم .. ثم اعاد والدى مدى كراهية أمى لهؤلاء الناس . وأنه لا داعى لاغضابها وهى مريضة ..

أنهم رجال كلهم .. أصدقاء والدى .. وبعد الاحضان والقبلات والاشواق قال أحدهم : هيا بنا ..

وانتقلنا إلى بيت فى نهاية الشارع .. المفتاح فى جيب واحد منهم .. والبيت كان نظيفا رطباً .. وليست به رائحة الطعام وإنما رائحة الدجاج .. واصوات الدجاج .. وظهرت الفرحة على وجوه الجميع .. وانفتح الباب .. ووجدت عددا كبيرا من الاقفاص .. فى كل قفص ديك واحد .. وكل واحد امتدت يده إلى قفص وأخرج الديك .. ووالدى هو الآخر كان له قفص .. وأخرج ديكا كبيرا جميلا .. وكانت الفرحة والسعادة على وجه والدى لا توصف .. فهو امسك الديك فى يده اليسرى .. وراح ينظر إليه .. ويقول له منقار كمنقار الصقر .. وعنق مثل عنق الحصان العربى الأصيل .. وصدره عريض .. وظهره وساقاه متينتان .. وأصابعه طويلة .. وذيلة طويل ..

وراح يعرض ذلك على أصدقائه ..

وكل واحد يباهى بالديك الذى فى يده ..

هذا يقول : المنقار الواحد منه يقتل الف ديك ..

وآخر يقول : ضربه واحدة من ساقه اليسرى وبعدها القبر ..

وثالث يقول : انه يأكل لحما نيئا بدمه . وهو لا يأكل إلا لحم الديوك الهزيلة ..

وانشغل عنى والدى تماما .. بل إنه لم يلاحظ أننى معه .. ولم يوجه لى الكلام مرة واحدة .. وحتى عندما كنت اسأله فانه لا يرد .. ولكنه يتطلع إلى كل مليمتر فى الديك الذى فى يده .. يراه من الامام ومن الخلف .. ومن تحت .. ثم يلمس منقاره ويشد جناحيه .. ويمر بأصابعه على أظافره .. ويرفعه إلى أعلى .. ويضغط على ظهره وعلى بطنه .. ويسحب ساقيه واحدة واحدة .. ثم يضعه على الارض ويشده من ذيله ..و يعود يرفعه ثم .. يزنه بكلتا يديه ..

والتفت إلى بقية الرجال أنهم يفعلون نفس الشيء ويطلقون كلمات استخفاف بكل الديوك الأخرى ..

وبعد ذلك ذهبوا إلى غرفة أخرى .. وجلس كل منهم على مقعد .. واجلس الديك على ركبته .. وراح كل واحد ينظر إلى ديك الآخر .. وكان والدى هو أول من تكلم واخيرا وبعد ساعة أو ساعتين وجدته يحدثنى أنا والآخرين : والديك هذا أسمه « برغوث » .. وهو من

أصل هندى . ولا يأكل الا البيض واللحوم .. ويجب أن يكون بعيدا عن الديوك الأخرى .. وكلما ابتعد عنها كان افضل .. لانه إذا ابتعد عنها خاف منها أو كرهها .. فلا يكاد يراها حتى يهجم عليها ويحاول قتلها .. ولكنه إذا اقام معها واعتاد عليها .. فإن الديوك تصبح كأنها زملاء .. أو أقارب .. فلا يهجم واحد منها على الآخر .. يجب أن يرى مناظر تريح أعصابه وأن تغير أنواع الحبوب التى يلتقطها من الارض وأنواع الخضروات .. ويجب أن يكون مع الدجاج وليس مع الديوك .. عدد قليل من الدجاج وليس عددا كثيرا ..

وحكايات كثيرة يقولها الرجال الآخرون عن ديوكهم .. وكيف دربوها على القتال..وكيف جعلوها أكثر شراسة .. وكيف أنهم قاموا بجعل أصبعها الخلفى مدببا .. وذلك باستخدام مناقيرها واصابعها المدببة فى ضرب الاعناق والبطون ..

لقد كانوا يستعدون لمعركة .. بين الديوك .. وهذه الديوك قد دربوها على القتال وقدموا لها طعاما خاصا ..

اما اسماء الديوك فهى . فارس .. العفريت .. والزرنيخ .. وعنتر .. والزير سالم .. وقلاوون .. والسلطان .. وشطة .. و ولعة .. وكايدهم .. وآخر صبرى .. الاكسبريس ..

وطلبت من والدى أن امسك الديك وعلمنى كيف امسكه بيدى اليسرى والا اجعله قريبا من وجهى حتى لا ينقرنى لاننى غريب عنه .. وأن ارفع يدى إلى أعلى ليكون فى مستوى النظر ..

قال رجل رآنى ارفع الديك : ما شاء الله يا محمدافندى ابن الوز عوام .. الطريقة التى امسك بها الديك مضبوطة تماما لا هى فوق ولا هى تحت .. تمام كده ..

ثم امسك والدى يدى ووضعها على منقار الديك .. ثم على رقبته وعلى صدره .. وعلى ظهره .. وجعلنى أشد ريش جناحيه وذيله ..

وانفتحت غرفة أخرى ..

ودخل والدى والديك فى يده .. ودخل رجل آخر .. وجلس كل منهما فى جانب من الغرفة والديك أمامه .. ثم أمسك كل منهما بذيل الديك وجعله يقترب من الديك الآخر .. ورأيت كل ديك ينكش شعر رقبته .. ويحاول الهجوم على الديك الآخر .. ثم يكرران

الاقتراب دون الاشتباك .. وفى كل مرة يزداد الديك غضبا واندفاعا نحو الديك الآخر .. ثم مرة ثالثة واخيرا يقف كل واحد والديك فى يده .. ويستديران .. ويهمس كل واحد منهما بشىء فى أذن الديك وبسرعة يجلسان ويترك كل منهما الديك الذى فى يده .. وبسرعة يندفع الديكان ويتحفزان ثم يتضاربان .. بالمنقار والساقين .. ويتصايح الرجال أن يقفز فوق الآخر. كمان مرة .. اسم الله عليك ..

أما احد الديكين فقد أحنى رأسه وراح يلوذ بالديك الآخر .. ولم أعرف ان كان المنتصر هو(برغوت) أو هو قلاوون.. فأنا لم أعرف الفرق بينهما .. ثم أن الديكين يتبادلان المواقع .. هذا فوق .. وهذا تحت .. ثم هذا يجرى ويتراجع .. وهذا يتقدم ثم يتراجع .. .. ولما نظرت إلى وجه والدى وجدت سعادته عظيمة .. لقد كان برغوت هو الذى انتصر .. ووجدت برغوت فى يدى والدى قريبا إلى صدره يلهث .. وراح والدى يقلب فيه ويتلمس كل مكان .... ليعرف أن كان قد أصيب .. أو جرح . ثم يفتش فى صدره وفى عنقه .. وفى رأسه وفى جناحيه .. ثم فى ظهره .. ثم أجلسه على ركبته وراح يداعبه ويقبله .. .. ويخرج الحبوب من جيبه ويقدمها للديك .. ثم يخرج به أمام البيت .. ويتركه على الأرض .. ثم يعود إليه .. ويقدم له الماء ويضع اصبعه فى الماء قبل أن يقدمه له .. فالماء يجب أن يكون فاترا لا ساخنا ولا باردا ..

وتبدأ بعد ذلك مباراة أخرى بين ديكين .. ولكن والدى قد وضع « برغوت » فى قفصه حتى لا يكون عصبيا إذا شهد عراكا آخر بين ديكين ..

وكانت هذه المعركة سريعة جدا .. فأحد الديكين قد أصاب الآخر فى دماغه .. لدرجة أن منقاره قد اخرجوه من رأس الديك الآخر بصعوبة .. وتعالت الاصوات والهتافات..

وبدأت معركة ثالثة .. ولكن لم يكد أحد الديكين يرى الآخر حتى هرب .. وكلما اعاده صاحبه إلى أرض المعركة ، إرتد هاربا واختفى فى ملابس صاحبه .. وقالوا فى تفسير ذلك أن الديك لم ينس !

فقد جرح فى معركة سابقة . وكان لابد أن يمضى وقت طويل حتى تلتئم جراحة الجسمية وينسى ما حدث له تماما ..

وقال صاحب الديك : أبدا أنه لم يكن جريحا .. وإنما أنا حبسته مع عدد من الدجاج ..

حريم من الدجاج كسروا ظهره !

ويضحك الجميع .. لتبدأ جولة رابعة ..

وعدنا إلى البيت .. ومازال والدى يقول أن ماما لا تحب هؤلاء الناس ولا تحب مصارعة الديوك .. وترى أنها اضاعة للفلوس والوقت .. وإنها لا تليق بأناس محترمين مع إنها كانت رياضة الملوك من أيام الفراعنة والإغريق وأن رؤساء أمريكا كانوا يتنافسون فى اختيار أحسن الديوك .. وكانوا يقيمون المباريات فى قلب القصور فلا يراها إلا الاغنياء ..

وسألنى : أعجبتك ؟

قلت : جداً

قال : لا تقل لماما إنها أعجبتك وأنا عندما اجىء فى المرة القادمة سوف نذهب ونتفرج عليها وحدنا !

وحاول أن يداعبنى فقال : مرة أتيت بديك من هؤلاء فى البيت .. وبعد أسبوع وجدت ماما قد ذبحته لانه كان يهجم على الديوك الاخرى ويفتك بها ..

وقال لى حكمة .لكى ينجح هذا الديك فى قتل ديك آخر يجب أن يكون غريبا عنه وغريبا عن هذه المنطقة . فلا يرى الواحد الآخر الا يوم المباراة .. وفى ذلك اليوم يقاتله لانه لا يعرفه .. ولذلك نحن نجعل الديوك تقيم معا بعض الوقت حتى تكون أقل شراسة.. وإذا سمع الديك وهو فى المعركة أو قبلها صوت الدجاج فإنه يشعر بأنه يدافع عن زوجاته وعن عائلته ولذلك فإنه يهجم على الخصم ويكون قاتلا .. ولكن المشكلة أننا إذا أتينا بالدجاج فإن وجود الدجاج يشعل النار فى أعصاب الديكين معا .. ولذلك نكتفى بأن ينفرد الديك بالديك الآخر معتمدا على غريزته وعلى كراهيته ورغبته فى القتل والنصر .. والديك أكثر حماساً إذا كان يقاتل على مرأى من الدجاج .. مما يجعل هذه المعركة اطول قليلا .. وبدلا من أن تبدأ المعركة وتنتهى فى دقيقتين .. فإنها تنتهى فى عشر دقائق وأحيانا ربع الساعة .. وفى الحروب الإسلامية كانوا يجعلون النساء تمشى وراء الجنود حتى تجعلهم يتحمسون أكثر .. ويخجلون أن ينسحبوا على مرأى من النساء !

حتى فى الطيور يتولد الخوف من الشعور بالغربة .. وتكون الكراهية نوعا من الدفاع السلبى .. والكراهية هى أم العنف والعنف هو أبو الحروب ..

٢٤

أما هذا الرجل فأنا الذى اخترته وهو أحب الناس .. وأنا أجد نفسى كل يوم ذاهبًا إليه.. وبيته فى آخر المدينة .. والبيت له شكل متميز .. فهو أبيض جدًا .. وله سور من الأشجار الشائكة .. وفى داخل السور توجد شجرة توت .. وحول شجرة التوت تناثرت المقاعد الثابتة على الأرض .. إنها مصنوعة من جذوع النخل .. ثم هناك شجرة لبلاب . وتوجد شجرات الورد بشكل منظم .. وعنده كلب أبيض . وعنده عدد من القطط .. وكلها تقف معًا ..

إنه عم (أبو آدم) ابنه اسمه آدم وهو فى مثل سنى .. أما أبو آدم نفسه فلا أعرف إسمه الحقيقى ولكن الناس ينادونه هكذا .. هو أبيض متوسط القامة أبيض الشعر خفيف شعر الرأس .. يرتدى البنطلون ذا الحمالات والقميص وقد انحنى ظهره قليلاً .. فهو حداد القرية . وهو دائمًا نظيف الملابس والدكان نظيف جدًا .. وأمام البيت نظيف والحديقة وكل شىء فى بيته نظيف ومنظم .. وهو يشعل نار الفحم . ويضع فى الفحم قطع الحديد .. وينفخ عليها حتى تلتهب وحتى تصبح حمراء بيضاء .. ثم يسحبها ويدقها وهى لينة حتى تأخذ الشكل الذى يريد . ويدق الحديد ساخنًا ويتناثر الشرر .. الشظايا .. ولكن هذه الشظايا لا تعلق فى ملابسه ولا فى وجهه .. وهو يغطى وجهه بغطاء من الزجاج .. ولا يزال يدق الحديد والحديد يطاوعه .. مرة يجعله فأسًا ومرة يجعله منجلاً .. ومرة يجعله سكينًا .. وبعد أن يفرغ منه يلقى به فى الماء ويكون له دخان .. وبعد الماء يصبح له الشكل الذى يريد وبسهولة عجيبة ..

ولا أحد يعمل مع أبو آدم فى الدكان .. ولكنه دائم العمل . وقد كتب لافتة على الباب : منْ التاسعة صباحًا حتى الخامسة مساء ما عدا يومى الاثنين والثلاثاء . إنهما اجاوة . ولم أره يعمل شيئًا بعد الخامسة مساء . أبدًا . ولا عمل قبل التاسعة صباحًا . ولا فتح دكانه يومى الاجازة . أبدًا . وقد حاول كثيرون أن يرغموه على تغيير هذا النظام . ولكنه رفض.

ويقول الخواجات علمونا النظام . إنتهى . وحياتى مستريحة تمامًا فى هذا النظام .. ثم اننى وحدى ولا يساعدنى أحد . فلماذا أرهق نفسى ؟! .

وأبو آدم إذا اشتغل انصرف تمامًا إلى عمله . ومن النادر أن يرد على أحد إذا كلمه . وإذا فرغ من عمله فهو رجل لطيف ظريف .. الوجه هادئ وفى غاية الصفاء .. والابتسامة بيضاء كبيرة .. وهو لا يدخن . ولا يشرب الخمر . ويقول : لم أتعلم من الخواجات الشرب . وفى إحدى المرات حاولت فمنعونى من ذلك . وقالوا : إن الإنسان يجب أن يحترم عادات بلاده وتقاليده ودينه ..

أما ابنه آدم فهو لا يعمل فى الدكان إنه تلميذ فقط . وهو الذى يروى الشجرة وهو الذى يطعم الطيور . وهو الذى يشترى احتياجات البيت من السوق . وهو دائمًا نظيف الملابس . وهو شديد الاحترام لوالده . وإذا جاء أبوه فإنه يقف . وإذا خرج صافحه وقبل يده . وإذا جاء صافحه وقبل يده .

وعندما ذهبت وحدى لأول مرة ظللت واقفًا بالباب حتى فرغ أبو آدم من العمل . فلما رآنى قال : أهلاً يا ابنى .. تعال .. انت واقف منذ متى ..

قلت : من نصف ساعة .

قال : ولماذا لا تذهب إلى أخيك آدم فى البيت .. إنه وحده .. إذهب إليه وسوف أجيء ونشرب الشاى معًا . ادخل يا ابنى .. هذا بيتك ..

ولما رآنى آدم كان مثل والده ضاحكًا محبًا للناس .. يرحب بهم ويدعوهم إلى الدخول. وجاءت والدته . إنها صغيرة السن بيضاء ذهبية الشعر زرقاء العينين . ووجدت معها كتابًا تقرؤه . نظرت إليه .

قالت لى روايات الجيب .. تقرأ ؟

قلت . لا أعرف هذا الكتاب .

قالت · ليست كتابًا واحدًا وإنما هى سلسلة طويلة مترجمة .. كلها قصص بوليسية ..

إنها أول مرة أسمع هذا التعبير : قصة بوليسية ..

ويبدو أن الدهشة وعدم الفهم قد ظهرا على وجهى .. فقالت بذكاء ورقة : إنها حكاية واحد قتل واحدًا .. وجاء البوليس يبحث عن القاتل .. طبعًا يجده .. لكن إلى أن يجده فإنه يدوخ القارئ .. ولكنها مسلية جدًا وممتعة جدًا .. سوف أعطيك واحدة .. فإن أعجبتك أعطيتك غيرها .. ماذا تقرأ؟

فذكرت لها عددًا من الكتب لم تسمع بها . ولا تعرف أى شىء عنها .. فقلت لها : إنها كتب والدى وكلها شعر ومدائح فى الرسول عليه الصلاة والسلام ..

ووضح على وجهها المستدير الأبيض الجميل إنها لم تفهم ـ ولا تريد ..

وجاء عم أبو آدم وقد غير ملابسه وارتدى ملابس أكثر بياضًا ويبدو أنه قد اغتسل تمامًا .. ونظر إلى زوجته وقال لها · الشاى بالنعناع يا عديلة ..

ـ حاضر يا أبو آدم ..

والتفت أبو آدم وقال لى · أريد أن تعرف من نحن .. أنا يا سيدى عمك أبو آدم .. وآدم هذا هو إبنى الوحيد .. وأنا رجل كبير كما ترى .. وكنت أتمنى أن يرزقنى الله بغلام .. والحمد لله .. أما زوجتى هذه فهى أحسن زوجة وأحسن أم فى الدنيا وهى من فضل الله .. مات أبوها وكان صديقى .. وماتت أمها يرحمها الله .. فأخذتها إلى بيتى .. وأنا رجل وحيد.. وخشيت من كلام الناس فقلت يا بنت الناس أنا تمنيت أن يكون لى بنت .. وأن يكون لى ولد وأن تكون لى زوجة . فما رأيك أن تكونى الزوجة والابن والبنت .. وكان من رأيها أنها أيضًا تريد الأب والأم .. فكانت هذه الأسرة التى تراها .. وأنا يا ولدى فى مكانة والدك وآدم أخوك وعديلة أختك الكبرى وأمك .. وهى تحب القراءة وسوف تربطك بها صلة قوية .. ومنذ هذه اللحظة هذا بيتك يا ولدى .. وأكون سعيدًا لو جئت كل يوم ودخلت وأكلت وشربت دون إذن من أحد .. إن آدم يحبك ويقول إنك أعز صديق له..

فالحمد لله الذى جمع بينكما على الحب ..

وجاءت عديلة فقال لها يا ست أُم آدم . أنا قلت له من نحن ..

ـ يوه يا أبو آدم انت لازم تحكى الحكاية لكل الناس ..

ـ لازم .. إنـه ابنى الثانـى .. وابنك أيضًا يا أم آدم .. وأبـوه رجل طيب جـدًا .. ورجل صالح وكل كلامه خير فى خير إنه طراز من الناس لم يعد له وجود ..

ـ والله إنـت يا أبو آدم الذى ليس لك مثيل فى الدنيـا .. ربنا يخليك لنا ويطـول لنا فى عمـرك حتـى تحمـل أولاد آدم على كتفك إلى المدرسـة . وأولاد أولاد آدم .. قـادر يـارب ياكريم..

وتظهر السعادة على وجه أبو آدم .. كأن الله قد استجاب لكل هذا الدعاء .

ويجىء الشاى بالنعناع .. والأكواب كبيرة . والسكر يضعونـه كثيرًا . وتحت شـجرة التوت يحدثنا أبو آدم . كيف جاء إلى هذا البلد . وأيـن كان قبل ذلك .. وكيف كانت رحلته الأولى إلى إيطاليـا .. وكيف إنـه عمل حدادًا على إحدى السفـن . وكيف إنـه تعلم اللغـة الإيطالية بسرعة . ولما عرض عليه حداد السفينة أن يزوجه ابنته وأن يعيش معه فى مدينة نارانتـو ، رفض أبو آدم . وقـال إنه ليس فى نيتـه أن يعيش خارج مصر .. وكـاد يتزوج إيطالية . أحب واحدة لأنها جميلة ولأنها طيبة .. وفى يـوم وجدها مع واحد آخر فى إحدى الحدائق ولم تعتذر . وإنما قالت : وجدتك مشغـولاً فناديت أحد الجيران وطلبت منه أن يرافقنى للنزهة ! .

وكان ذلك كافيًا لأن يعدل عن الزواج من إيطالية أو من أجنبية ..

وفى طريق عودته من إيطاليا توقـف فى بلاد اليونان . وعمل فى أحد البارات . ولكنه لم يسترح . إنه من الصعب أن يعمل الإنسـان فى البار ثم لا يشرب أو لا يجارى ما يحدث فى البارات . ثـم عمل فى إحـدى الحدائق يجمع العنـب ثم يشترك فى عصره .. وكـان لابد أن يذوق العنب المخمر من حين إلى حين .. فرفض لأنه لا يريد أن يغضب الله ..

وعرضـت عليه صـاحبة إحـدى مزارع العنـب أن يتزوجهـا على سنة الله ورسـوله . فتزوجها . وكانت تكبره بعشرين عاما . ولم تنجب وماتت . وجاء إخوتها ودفعوا له مبلغًا

من المال مقابل نصيبه من التركة . فوافق .. وعاد إلى مصر .. وكان قد قرر ألا يتزوج . ولكنه اشتاق إلى البيت والأسرة والشريكة والولد .. وأن يعمل هادئًا ويعيش فى هدوء . وكان له ذلك .

وكانت لعم أبو آدم كلمات حكيمة . فهو رجل قد جرب . ولكنه لا يدعى العلم .. فمثلاً يقول لك : ما الذى تريده من الدنيا . هذا هو السؤال الهام جدًا . وحياتك كلها تتوقف على هذا السؤال والإجابة عنه .. أنا شخصيًا أريد بيتًا صغيرًا . وأن أعيش على قدر كسبى . ولا أرهق نفسى بالعمل ولا أرهق نفسى بالمطالب . فعندى الضرورى . وهذا يكفى .. ففى استطاعتى أن أعمل عشرين ساعة فى اليوم . ممكن . ولكن كم عامًا أستطيع أن أتحمل ذلك ؟ سؤال آخر . كم صديقًا يكفى فى هذه الدنيا ؟ الجواب : واحد .. اثنان . كفى . وأنت لا تجد فى الدنيا من المخلصين إلا واحدًا أو اثنين .. ولكن أن يكون لك ألف صديق .. مستحيل .. تمامًا كما أن الواحد يرى الدنيا بعينين ويقطعها ذهابًا وإيابًا بساقين ويعمل بذراعين .. هذا يكفى جدًا .. وحكمة من الله إنه لم يجعل للإنسان عددًا من العيون مثل العنكبوت ولا مثل أرجل العقرب .. وإذا لم يكن لك إلا صديق واحد لا تحزن . فمن النادر أن تجد الصديق الوفى المخلص .. انت وآدم صغيران ولكن عندما تكبران ستكشفان حكمة الناس العواجيز مثلنا ..

وسمعنا من ينادى : يا أبو آدم .. يا عم أبو آدم .

وامتقع وجه أبو آدم وقال لابنه : اذهب يا آدم .. واسأل ماذا يريد ؟

وغاب دقائق وعاد ليقول لوالده : أنا قلت له إن بابا لا يعمل ليلاً أبدًا .. ولذلك رفض أن يعطينى العجلة المكسورة التى كان يريد إصلاحها وقلت له يأتى بها غدًا فى التاسعة صباحًا !.

ـ تمام كده . يا أم آدم هات لنا الأكل .. ولا انتِ بخيلة على آخر الزمن ..

ـ حاضر يا أبو آدم . حالاً ..

ـ وكان أبو آدم يحب أن يتكلم وأن يحكى تاريخ حياته . وأهم من تاريخ حياته أن يستخرج منها الموعظة والعبرة . بارعًا فى ذلك . فهو عندما يحكى لك الحكاية لا يبدو منه

انه أراد أن ينصحك وإنما هو أراد أن يسليك كضيف .. وبعد ذلك ينصحك كابنه .. أو على مسمع من ابنه .. ويبدو أن لديه القدرة على أن يحكي الحكاية الواحدة بأشكال مختلفة. ففي كل مرة يحكي حكاية تسمع زوجته تقول · الله يا ابو آدم انت قلت لنا الحكاية دى قبل كده ولكن بشكل آخر ..

فهو فنان يبتدع كل مرة حكاية لها بداية ونهاية .. حتى لا يمل هو وحتى لا يمل من يستمع إليه ..

واندهشت زوجته كيف انه ما يزال يحكي قصصًا جديدة .. رغم انه لم يتوقف عن الحكايات منذ زواجهما .. فلا تزال عنده حكايات .. أو انه قادر على الابداع ويكون ابداعه حسب الظروف ..

ثم التفت إلينا جميعًا وكأنه أستاذ ألقى محاضرة ، ثم يريد أن يقول لنا خلاصتها أو عناصرها الرئيسية . أو المعنى من كل الذى قال : شوف يا ابنى إذا أحد سألك ماذا تريد أن تكون عندما تكبر .. لا تقل شيئًا وإنما قل لم اقرر بعد فأنا ما أزال صغيرًا .. وفعلًا أنت صغير يا ولدى .. انت وآدم .. لم تتعلما بعد .. لم تجربا من الدنيا شيئًا .. ولا قابلت اناسًا كثيرين ولا سمعت ولا مررت بظروف تجعلك تقرر أو تغير طريقك .. انتظر .. ان ابنى آدم فى يوم من الأيام قال لى . أريد أن أكون حدادًا مثلك .. فغضبت منه .. وقالت أمه: مستحيل .. ومعها حق .. ولكن أنا لم أقل له شيئًا من ذلك .. وإنما جعلته يعمل معى يومًا ويومين وثلاثة حتى أرهقه العمل تمامًا .. ثم قلت له هل رأيت هذه الصناعة .. وإنما أردت أن تعرف بنفسك . لا تكن حدادًا يا ولدى كن شيئًا أفضل . وهذا الشيء انت الذى تختاره . وسوف تعيش منه وتعيش عليه طول عمرك .. ولكن ليس معنى الا يكون آدم حدادًا الا يحترم عمل والده .. بل كل عمل محترم . وأبوه عمل حدادًا وكان محترمًا ، لكنى أساعد آدم على أن يكون كما يريد .. وأنا الذى أجعل عملى محترمًا وأنا الذى أجعله محتقرًا . فأنا أعمل ساعات محددة . أنا حر . وآخذ اجازة أنا حر . ولا أعمل بعد الساعة الخامسة . أنا حر . وقد عرف الناس ذلك · فاحترمونى ..

وهنا ـــ ومضى يقول فى لطف وأبوه ـ أنا أدعوك إلى العشاء .. أقدم كل ما عندى ..

ولكنى لا أفرض عليك طعامًا ولا كمية الطعام . انت حر فى بيتك . هكذا تعلمت من الخواجات .. تفضل يا ولدى ..

وكل واحد مد يده إلى الطعام دون أن ينظر واحد ناحيتى .. ومضوا فى الاكل كأننى غير موجود .. ومددت يدى .. وأكلت .. واسترحت وأحببت الرجل . وأحببت ابنه وأحببت أمه .. وأحببت صناعة الحديد يوضع فى النار فيكون لينًا .. ملتهبًا لينًا .. ولأنه ملتهب فهو مطيع للطرقات فوق دماغه .. وهى ضربات موجهة مدروسة نحو شكل من الاشكال..

حتى الحديد إذا تغيرت ظروفه كان كالعجين ..

فلا حديد لا يلين ..

ولا نار لا تنطفئ ..

وليس من الضرورى أن تجد كل الحكمة فى الكتب .. إنها كثيرة جدًا عند اناس ليست صناعتهم الحكمة . ولكنهم أصحاب تجارب وشجاعة وتواضع ..

لم انس أبو آدم طول عمرى لا شكلاً ولا صوتًا ولا حكمة ولا بساطة ولا كرمًا ولا ابوة ولا استاذية .. ولا شيء من كل ذلك يبدو عليه وهو يدق الحديد ودموع الحديد تتطاير شررًا يتقيه بمنظار من الزجاج ..

ولو دخل أى إنسان دكان أبو آدم وسرقه ما شعر به . فهو فى ركن من الدكان وسط الشرار والنار والدخان . وهو يعمل واقفًا طول اليوم .. ولذلك إذا جلس فهو لا يقوم .. وكان يقول لنا . الذى يعمل بعضلاته يستريح إذا جلس واسترخى دون أن يحرك يديه أو رجليه ولذلك تجد البكوات والباشوات إذا جاءوا إلى الريف راحوا يركبون الحمير ويصيدون الأسماك ويطاردون العصافير ويمسكون الفأس .. فهم يعملون بالضبط ما لا يعملون فى المدينة .. هكذا علمونا الخواجات .. وتعلمت منهم ! .

وقال لنا أبو آدم إنه فى إحدى المرات زاره المغازى باشا ودخل الدكان وراح يقلب مقاعده ويمسك منفاخ النار ويثير الفحم .. ثم يمسك الحديد ويضعه فى النار .. ساعة وساعة .. وهو سعيد جدًا بالعمل . ولما دعاه إلى قصره العظيم جلس أبو آدم على أحد

المقاعد واسترخى تمامًا ومدد رجليه إلى الأمام ووضع ذراعه إلى جواره ..

وسأله الباشا . هل رأيت هذه الكتب ..

قال : لا والله يا باشا .. فقال الباشا : يقولون إنك تقرأ بلغات أجنبية .. من بينها الإيطالية واليونانية ..

قال : نعم ..

ورد عليه الباشا ومع ذلك لا تمد يدك إليها ..

فقال أبو آدم . لأنني أمد يدى طول اليوم .. فراحة يدى ألا أمدها وإنما ألقى بهما إلى جوارى هكذا كأنها لم تعد جزءًا من جسمى .. هكذا علمنا الخواجات ..

٢٥

كان فى بيتنا عدد كبير من الكتب .. وكانت دائمًا فى أماكن مختلفة .. فى غرفة النوم على المقاعد .. فى الأركان .. تحت السرير .. فى صناديق وفى مقاطف فوق السطوح .. بعض هذه الكتب بعثت بها عمتى إلينا .. فلم تجد لها مكانًا فى بيتها .. وكان من رأيها انها قد تنفعنى إذا كبرت فلم يعد أحد من أولادها يقرأها .. لقد كبروا وعندما وجدتها رحت أقلب فيها فلم أكن قد تعلمت القراءة .. ولما تعلمت وانتقلت هذه الكتب معى من مكان إلى مكان عرفت انها فى موضوعات زراعية .. إصلاح الأرض وحرثها وبذرها والعناية بالمحاصيل وتربية الدواجن والنحل . فقد كان ابن عمتى طالبًا فى كلية الزراعة ثم أستاذًا بها . ثم وجدت كتبًا لأحد أعمامى وكان أزهريًّا .. ولما حاولت أن أقرأها لم أستطع.. ولم أفهم .. فهى عن موضوعات غريبة وبعبارة أغرب .. ووجدت كتبًا قديمة منزوعة الأوراق والأغلفة أيضًا . وعليها آثار التراب والحشرات والقهوة وقد مسح التراب والحشرات الكثير من حروفها وصفحاتها . وكتب فيها شعر كثير ولكن لا أعرف أسماء هذه الكتب.. وحاولت أن أحفظ هذا الشعر ولم أستطع . فهو شعر صعب ..

ولذلك كانت « روايات الجيب » كشفًا وحدثًا مضيئًا .. فهى حكايات غريبة . وحكايات مثيرة . ومن الصعب أن أترك الكتاب دون أن أكمله فى يوم وأحيانًا فى جلسة واحدة .. وأنا أقرأ هذه الروايات واقفًا وجالسًا ونائمًا وأنا آكل وأنا أشرب وأنا أمشى فى الشارع . لم أر مثل هذا النوع من الكتب . ورقها أبيض . ولها أغلفة ملونة .. أحيانًا عليها بنات عاريات .. وفيها لوحات ورسومات .. إنها شىء مختلف . ولكن كتب الشعر أنفع

وأجمل . لولا أن هذا الشعر الذى أجده فى هذه الكتب أو بقايا الكتب صعب جدًا . فلا أنا قادر على قراءة هذه الكتب ، ولا أنا قادر على تجاهلها .. فهى دائمًا فى يدى .. وأنا دائمًا أحاول وأفشل .. ولم أتوقف عن تقليبها من أولها لآخرها أو من آخرها لأولها..

وشكوت لوالدى .. فوافقنى على صعوبتها .. ووعدنى بكتب أفضل . أو أن أذهب أنا إلى المكتبات وأرى ما يناسبنى . أو أذهب إلى المكتبة العامة وأسأل وأختار .. ولكنه وعدنى بأنه سيأتى لى بكتب يسهل فهمها وحفظها .. كتب فاتحة لشهية القراءة والتذوق والتعود على ذلك ـ وهذه عبارة والدى .

أما الكتاب الذى لا أعرف اسمه فقد وجدت فى أول صفحة منه هذين البيتين .. وهذان لبيتان قد كهربا كل أعصابى وخيالى وحفظتهما بسرعة .. وكنت أفتعل المناسبات لكى أرددهما على مسامع زملائى .. ولكن أحدًا منهم لم يكن يعى ما أقول أو يتحمس له .. ولم أكتف بذلك وإنما قلتهما لوالدى .. وظل يضحك . وأنا سعيد بأننى أعرف ما لا يعرف .. وإننى عندما عرفت وجدت شيئًا يبعث على الضحك .. أما البيتان فهما :

إن النساء شياطين خلقن لنا
نعوذ بالله من شر الشياطين
فهن أصل البليات التى ظهرت
بين البرية فى الدنيا وفى الدين

وعرفت من والدى أن هذا الكتاب هو جزء من « ألف ليلة وليلة » وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع عن مثل هذا الكتاب . وحدثنى والدى كثيرًا عنه .. وتمنيت لو قرأته ..

ولم تكن لى أية تجارب مع المرأة لا فى الدنيا ولا فى الدين . ولكن أسعدنى أن أجد مثل هذا الهجوم على المرأة .. فهل كان ذلك دليلاً على اننى ضقت بكل النساء اللاتى عرفتهن : جاراتنا وقريباتنا وصديقات أمى . فما الذى ضايقنى منهن ؟ هل هذا النوع من الناس ؟ من المشاكل ؟ من الحكايات التى تتكرر كل يوم .. بصورة مملة .. هل ما تقوله النساء عن الرجال وعن الأزواج وعن الأولاد .. هل هى الكلمات التى أسمعها من جدتى ولا يبدو أنها تحترم والدى ؟ هل سكوت أمى على مثل هذه الكلمات يجعلنى أغضب من أمى أيضًا ..

To: www.al-mostafa.com

هل هـى تلك الفتاة التـى وجدت نفسى فى حضنها .. ولم أعـد أراها ؟ هل هـن التلميذات اللاتـى ينظرن لى وكـأنهن يعرفن مـا كان بينـى وبين هذه الفتـاة على السلم .. أو تحت الكوبرى .. هل لأنها اختفت .. هل لأننى وجـدت فى نفسى ميلاً شديدًا لها ولكل البنات .. ولكنى لا أجـد الشجاعة مثـل كل زملائى .. فـأنا لا أعرف كيف أتحدث إلى فتاة .. وإذا تحدثت فما الذى أقول . وإذا قلت فكيف يبقى الحديث ساعة أو كل اليوم .. إن زملائى يتكلمون طـول الوقت ولا يتوقفـون عن الكلام إلى أية فتـاة .. ماذا يقولون كـل يوم لا أعرف.

هل لأننى أشتاق إلى أختى ولا أستطيع أن أراها . هـل لأننى أحب خالتى ولا أجدها .. هل لأننى أحب أمـى وهى مريضة دائمًا .. مرهقة .. عصبية .. هل لأننـى أحب أبى وأجد أمى تشكو من انـه ليس هناك . هل لأننى أحب أن أكون فى حضرة نسـاء أخريات ولكن أمى تمنعنى وتحذرنى .. فنحن إذا ذهبنا إلى ست أم عزيز .. حذرتنى من الجلوس طويلاً مع بناتها .. وهن جميلات .. ثم إنها عاتبت والدى كيف إنه يصر على ذهابى معه للجلوس وسط الرجال ، ثم يطلبون منى أن أذهـب وأجلس مع السيدات والبنات . ما هذا الخوف من البنات ومن الزوجات ؟ ما الذى يمكـن أن تفعله واحدة منهن .. إننى أنظر إلى أصابع البنات فلا أجد مخالب ولا أسنانهن أنيـاباً .. وإلى عيونهن لا تخرج منها النار والشرار .. يتكلمـن ويضـحكن .. ثـم إنهن لطيفات ظـريفـات ناعمات جميـلات .. فمن أيـن يجىء الخطر؟ وما هو هذا الخطر ؟

إذن لابد إنهن مخيفات . ولكـن ما الذى يمكن أن يفعلنه لمن يجلـس معهن أو يستمع إليهن .. إنهن شياطين .. أمى تقول .. والشعراء يقولون .. وأبى يضحك على ذلك .. وأنا لا أفهم ..

ووجد والـدى صعوبة شـديدة فى تفسير أبيات وجـدتها فى (ألف ليلة وليلـة) وكلها تمتدح المرأة .. ولكن والدى يعرف مشكلتى .. فهناك أبيات تلعن المرأة .. وأبيات تمتدحها فأيهما أصح ولماذا ؟

مثلاً :

ثلاثة منعتها من زيارتنا

خوف الرقيب وخوف الحاسد الحنق

ضوء الجبين ووسواس الحليّ وما

حوت معاطفها من عنبر عبق

هب الجبين بفضل الكم تستره

والحلى تنزعه ما حيلة العرق ؟!

مثلاً :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم :

ما لذة العيش إلا للمجانين

نعم جننت فهاتوا من جننت به

إن كان يشفى جنونى لا تلومونى!

مثلاً :

ورد الكتاب فلا عرفت أناملا

كتبت به حتى تضمخ طيبا

فكأن موسى قد أُعيد لأمه

أو ثوب يوسف قد أتى يعقوبا

مثلاً .

تعشقت ظبيًا ناعس الطرف أحورا

تغار غصون البان منه إذا مشى

يمانعنى والطير يحظى بوصله

وذلك فضل الله يؤتيه من يشا

مثلاً :

بدت قمرا ومالت غصن بان

وفاحت عنبرًا ورنت غزالاً

كـأن الحـزن مشغـوف بقلـبى

فسـاعـة هجـرها يجـد الـوصـالا

مثلاً :

نشرت ثـلاث ذوائب من شعـرها

فى ليلـةفـأرت ليـالى أربعـا

واستقبلـت قـمر السـماء بوجههـا

فـأرتنى القمـرين فى وقـت معـا

وآخر صفحة فى الجزء المتمزق من (ألف ليلة وليلة) جاء هذان البيتان :

كل ابـن انثى وان طـالت سـلامتـه

يومـا على آلـة حـد بـاء محمـول

وكيـف يلهـو بعيـش أو يلـذ بـه

مـن التـرابُ علـى خـديـه مجعـول

ولا اذكر انى رأيت أبـى مهمومًا مقهورًا مثل هذا ليوم فأنـا حفظت شعرًا لم أسمعه منه وأنا أريد شرحًـا لهذه المعانى التى فوق إدراكى أو فوق قـدرتى على فهمها . ولقد تحير والدى تمامًا فى وصف جمال المرأة وحب الشعراء لها . ثم تعب جدًا فى شرح لماذا إذا كتبت المرأة خطـابًا فإن للخطـاب رائحة العطر ومـن أين يجىء هذا العطـر . ولم أشم للنساء عطرًا فى أى وقت . وإنما دائمًا رائحة الصابون النابلسى .. أو رائحة المطبخ الأرز والبصل والسمن .. فما الذى يجعل لها عطـرًا إذا أمسكت القـلم وكتبت .. ولـماذا تكتب وكيف تكتـب .. ثم كيف تبـدو كالقمر .. ومـا الذى يعذب الـرجـال .. لقد أرهقـت والدى تمامًا.. ولكنه بقدر ما أسعده اننى بدأت أقرأ ، أحزنه أن أبدأ فهذا الكتاب الذى به عبارات كثيرة نابية ووصـف جنسى للعلاقات بين الـرجل والمرأة .. وقد لاحظت ذلـك وأدهشنى ولم أستطع أن أصارح أحـدًا بذلك ولقد أعـدت قراءة هذا الجزء من « ألـف ليلة وليلة » مرات كثيرة .. وكأننى أنظر من ثقب الباب إلى عالم غريب عجيب .. عالم لم أره ولم أسمع عنه .. عالم سحرى .. ولكنه فى نفس الوقت عـالم إنسانى مثير .. والرجال يقولون شعـرًا

والنساء .. وهناك رقص وغناء وخمور ومعارك وعفاريت وشياطين .. حتى العفاريت تقول شعرًا . فما معنى ذلك ولماذا لا أحد يعرف هذا الكتاب . لقد سألت زملائى فلم أجد أحدًا قد سمع بهذا الكتاب .

وكانت أمى تمنعنى فى كل مرة أمسك كتابًا بالليل . فقد حدث أن غلبنى النوم فنمت .. فأحرق المصباح الغازى شعر رأسى ورموش عينى .. ومرة سقط المصباح وانكسر وكادت تقع حريقة فى كتبى وكراريسى وملابسى . ثم إن أمى نبهتنى إلى أن كثرة القراءة ليلاً ونهارًا تضعف البصر .. ثم إنها كتب ليست مدرسية .. وهذه الكتب لم تنفع والدى فى شىء . وأكثر الذين نفعوا فى حياتهم ، كانت بيوتهم خالية من الكتب . وأن بائعى الحمص والسودانى يمزقون الكتب ويجعلون منها قراطيس .

وأمى تريدنى أن أقرأ الكتب المدرسية فقط ولكن ما الذى يمكن قراءته فى الاجازة ؟ لابد من قراءة كتب أخرى .. ولم تكن من عادة أمى أن تناقشنى أو تحاورنى . إنها تقول . وكلامها أوامر . وأنا أطيع فقط .. وقد سمعت أحد أقاربى بعد أن قلب فى الكتب التى وجدها على سريرى إنها كلام فارغ . وكيف أشغل نفسى وأنا التلميذ المجتهد المتفوق بمثل هذه الكتب .

وكانت أمى تقول عادة . قل له .. والنبى .. قل له الله يخليك ..

وكان يقول ولكن لم أكن أسمع ما يقول . ولا أصدقه . ثم إننى حر أقرأ ما يعجبنى .. أنا حر .. أصبحت عبارة أقولها كثيرًا وفى ذلك دليل على نمو شخصيتى وعلى استقلالى بالرأى أو بداية هذا الاستقلال .. وكنت أقول لأمى بصورة قاطعة . إنت لك أن أكون الأول . أليس كذلك ؟ إن شاء الله سأكون الأول . ولكن ما ينفع وما يضر من الكتب ، فأنا وحدى الذى يقرر ذلك ..

وكانت أمى تحتج على حريتى هذه .. وترى فيها تقويضًا لسلطانها أو نفوذها .. وإننى لم أعد ولن أكون الإبن المطيع الذى لا يعرف مصلحته ومنفعته . أمى فقط هى التى تعرف .. كانت دائمًا تعرف ، ويجب أن تبقى كذلك . حاضر يا ماما ـ هذا ما أقوله دائمًا ، سواء كنت مقتنعًا أو لم أكن . وأغلب الظن اننى لم أكن . ولكن لا أحب أن أغضبها..

أما الكتاب الذى استولى على خيالى وبهرنى وسحرنى وأنا لا أعرف ما هذا .. ما هذا الأسلوب أو ما هذه الكتابة .. وما معناها وما اسمها .. ولماذا هى هكذا · فهو كتاب «مقامات الحريرى » . الكتاب صعب . ولا أعرف له معنى .. وإنما كان الشعر ، بعض الشعر أسهل ما فى هذا الكتاب . وفى نفس الوقت أصعب ما أعده كل أسبوع لوالدى وأسأله عن المعنى ..

مثلاً وكنت أقول من الذاكرة دائمًا ما جاء فى المقامات :

وقع الشوائب شنّيب

والدهر بالناس قلّب

إن دان يوما لشخص

ففى غد ينغلب

فلا تثق بوميض

من برقه فهو خلّب

واصبر إذا هو أضرى

بك الزمان وألب

فما على التبر عار

فى النار حين يُقلب

وكنت أتعجب لمثل هذه المعانى ، وكيف إهتديت إليها .. وكيف قالها الحريرى .. وفى نفس الوقت أنتظر التفسير من أبى .

يقول الحريرى أيضًا ·

لا تزر من تحب فى كل شهر

غير يوم ولا تزده عليه

فاجتلاء الهلال فى الشهر يوم

ثم لا تنظر العيون إليه !

أما معجزة المعجزات فاختياره للألفاظ المتشابهة المتقاربة ثم وضعها كلها فى شعر جميل كيف ؟

زيـنت زينـبٌ بقـد يقـد

وتـلاه ويـلاه نهـد يهـد

جندها جيدها وطرف وظرف

ناعـس تـاعـس بحد يحد

قدرها قد زها وتاهت وباهت

واغتدت واعتدت بخد يخـد

فارقتـنى فأرقتـنى وشـطت

وسطـت ثم نم وجـد وجـد

فدنت فديّت وحنـت وحـيّت

مغضبـا مغضيـا يـود يـود !

وعند هـذا الشعر والحيرة والدهشة والعجب نصحنى والدى ألا أنشغل كثيرًا بمثل هذه الكتب ، فليس أوانها الآن .. سوف يجىء الاهتمام بعد أن أكبر .. لأنها تحتاج إلى فهم أعمق ومعرفـة باللغة والنحو والصرف والشعر والبلاغة وطلب منـى أن أحتفظ بهذا الكتاب ، ولكن بعيدًا عن يدى الآن ! .

وكنت أقرأ فى كتاب آخر لا أعرف معنى الكثير مما جاء فيه .. الكتاب اسمه « الكامل » من تأليـف أبى العباس محمد بن يزيـد المبرد .. ولم يكن كتابًا كاملاً وإنما هـو جزء من كتاب كبير ..

وفيه أن رجلاً نظر إلى زوجته العجوز فوجدها تتجمل فقال لها .

عجـوز ترجـى أن تـكون فتيـة

وقد أنحب الجنبان واحد ودب الظهر

تـدس إلى العطـار سلعـة بيتهـا

وهل يصلح العطار ما أفسـد الدهـر

ووجـدت هـذين البيتـين أيضًـا :

ومـا غـرنى إلا خضـاب بكفـها

وكحل بعينيها وأثوابها الصفر

وجاءوا بها قبل المحاق بليلة

فكان محاقًا كله ذلك الشهر !

وكان والدى يشرح ويقول ويحاول أن يقرب هذه المعانى وكان يستعين بالقاموس ولم أكن أعرف معنى القاموس ، ولا أن فى بيتنا قاموسًا . وعلمنى أبى كيف أقرأ لكى أجد معانى الكلمات .. وكان ذلك فى غاية الصعوبة .

وسألت والدى عن معانى هذه الأبيات التى تحيرت فى فهمها . وبعد الذى رأيته على وجهه من الحيرة والقلق وأنا أنتظر وأتطلع ولا أتراجع عن فهم كل هذا الذى جاء فى الأبيات التى وجدتها أيضًا فى كتاب الكامل ، قررت ألا أسأله بعد ذلك .. لن أسأله .. لا امتحنه .. لا أحرجه .. لا أفرض عليه ما لا يريد .. ولكن أنا لا أقدر على مقاومة رغبتى فى أن أفهم وفى أن أعتمد عليه .. وأن أكلمه وأن أشغله معى قال الشاعر :

لم أر مثل الفقر أوضع للفتى

ولم أر مثل المال أرفع للرذل

ولم أر عزا لامرئ كعشيرة

ولم أر ذلا مثل نأى عن الأهل

ولم أر من عدم أضر على امرئ

إذا عاش بين الناس من عدم العقل !

كأن هذه الأبيات تشير إلى معنى عميق توارى بين الأحشاء ولا يريد أبى أن يفصح عنه .. أو يدلنى عليه . وفى نفس الوقت لا يريد أن يظهر لى أنه تضايق وأننى دفعته إلى كشف سر دفين .

وحاول وحاولت أن أفهم .. وحاول كثيرًا . وفهمت بعض الذى قال ، فهو لم يقل كثيرًا من المعانى وإنما دار حولها ولم يدخل ! .

فى كل ليلة وأنا فى فراشى مستلقيًا على ظهرى أستعيد ما حدث طوال اليوم .. ولم أفلح فى فهم الخوف . هذا الخوف المستمر .. هذا الهرب أو الرغبة فى الهرب .. لماذا أنا فى حالة

خـوف دائم .. خوف مـن أى شىء ؟ لا أعـرف .. لأى سبب ؟ لا أعـرف . ولكننى خـائف عمومـًا . خائف عام .. مذعـور مطلقًا . إذا أحد دق البـاب أصابنا الرعـب .. وإذا فتحت الباب فإننـى أسأل من الذى يـدق الباب .. وانتظر حتى أتـأكد من الصـوت . فـإذا كان غريبًا سألت : وماذا تريد ؟ وإذا لم أفهم ماذا يريد ذهبت إلى أمى أنقل إليها ما سمعت ..

وهذه الكتـب على الأرض أو تحت السرير أو فى جانـب من الغرفـة لماذا هى مربـوطة بدوبارة . دائمًا مربـوطة . لأننى أتوقع أن نترك البيت والبلـد فى أى وقت . وحتى إذا لم يكن هناك أى سبب ، فقد أصبح من عادتى أن أحزم الكتب ..

وإذا سمعت صوتًا غير مفهوم قلنا الذئب . جـاء يخطف الدجاج .. أو هو التعلب أو هو قط يطارد ثعبانا أو إنهم اللصوص . مع إننى لم أر لصًـا فى حياتى .. ولا أعرف من يكون واللصوص يجيئـون ليلاً . وسمعت انهم يغطون وجوههم بشـىء أسود حتى لا يعرفهم أحـد .. وسمعت انهم إذا ذهبوا لسرقة المراكـب الراسية فى الترعة فـإنهم يكونون عراة .. وأحيانًا يدهنون أجسادهم بطبقـة من الزيت أو الشحم أو الطين حتى يصعب أن يمسك بهم أحد .. ولكن لم أر واحدًا منهم .. وإن كنا نتوقعهم فى أى وقت .. وأنا لا أسأل . ما الذى يمكن أن يسرقه من بيتنا .. إن أهم ما فى البيت موجود فى غرفة النوم ..الملابس فى الدولاب والساعة الكبيرة على الحائط والكتب تحت السرير ..

والليل فزع ورعب .. والنهار آمان . فأنت ترى والناس يرونك .. ولا أحد يستطيع أن يهرب.. يخطف ويهرب .. والناس كلهم من الممكن أن يسمعوا أى صراخ أو أى استغاثة . والذئاب تظهر فى الليل والثعالب والأفاعي نادرًا .. وكل جرائم القتل تتم فى الليل . والدفن يتم نهارًا . مـرة واحدة سمعـت صراخًا فى الليـل ولما صحوت قـالت لى أمـى : نم أنـت ياحبيبى سوف أذهب لأرى .

ولكن لم أستطع أن أنام فقالت لى : أنت تعرف عم عبد ربه .

ـ نعم ..

ـ مات .

ـ مات كيف ؟ ولماذا ؟

ـ مات .. كل الناس سوف يموتون ..

ـ كيف يموت الإنسان ؟

ـ حكمة ربنا يا ابنى نم أنت وسوف أذهب إلى هناك . ولا تفتح الباب لأى أحد . ولا تخف . نصف ساعة وسوف أعود حالاً يا ولدى .. لا تخف ! انت رجل ! .

إذن من الممكن أن يموت الإنسان ليلاً والناس يبكون ليلاً ونهارًا .

وسمعت يومها دقًا على الباب . وجلست فى السرير . ولم أرد . ولكن الدق كان له وقع خاص.. ودون أن أسأل فتحت الباب .. وكان أبى وقلت له إن والدتى خرجت لأن عم عبده مات .. وتغيرت ملامح والدى . ولكنه لم يقل شيئًا ولم يشأ أن يخرج . وإنما جلس وبدأ يخلع حذاءه وأنا أساعده على ذلك .. وكان أحد الخفراء قد أدخل قفصًا من الفاكهة وسلة بها فطير مشلتت وزبدة وجبنة وعسل .

وطلب منى والدى أن أنام وأنه هو الذى سوف يفتح الباب . ولكن أريد أن أجلس إلى والدى وأن أتحدث معه .. واقترب منى والدى وأخذ يقبلنى وينظر فى وجهى .. وفى عينى وفى أذنى وفى عنقى وفى يدى وذراعى .

وسمعت طرقًا على الباب وأبى ينادى بأن افتح . ولكن والدتى هى التى ذهبت .. وغطت هى وجهى لكى أنام

وبعد ساعة أو ساعتين صحوت من النوم على حوار مرتفع .. شجار ..

والدى يقول : أنا تلقيت خطابًا من أحد الأولاد ـ إخوتى غير الأشقاء ـ يقول فيه : إنك ضربت الولد ضربًا موجعًا حتى نزل الدم من أنفه .. وإنه سقط على الأرض مغشيا عليه . لماذا؟

واعتدلت فى سريرى لكى أسمع .. فغرفة والدى لا تبعد عنى كثيرًا .. وكانت أمى لا تريد أن تناقش هذا الموضوع الآن .. وكأنها لا تريد أن يستمر فى الكلام فتقول له . هذا ما حدث .. الولد شقى جدًا . لقد وجدته أمسك ديكًا وفرخة وقد نزع ريشهما تمامًا .. ولما سألته قال : إنه لا يعرف الفرق بين الديك والفرخة وانه يريد أن يعرف ذلك بنفسه.. الولد اتجنن .. الكتب أصابته بالجنون . الكتب التى تأتى بها معك . إنه أحيانًا يكلم نفسه .

وقد وجدتـه منذ يومين قد وقف على أحـد المقاعد وراح يخطب بصوت مـرتفع .. ويقول آيات مـن القرآن .. والشعـر الذى لا أفهمه . ولم يكـن فى البيت أحـد إلا أنا . وهـو يكلم نفسـه.. وقد نصحونى أن أبخره .. وأن اخذه للحاجة فاطمة لترقيه .. الولد أصابته العين . ولولا اننى أخاف عليه لا حرقت كل هذه الكتب ..

قال والدى الكتب التـى عنده فيها كلام الله والرسول .. وكلهـا كتب دينية .. أحسن كتب .. وأنـت لا تجدين مثلهـا فى بيت أى واحـد من زمـلائه .. ثم هـو صغير . ويعيش بمفرده .. لا أحد يقول له ماذا تقرأ وماذا تعمل . وما هو الصح وما هو الخطأ ..

ويبدو أن أمى قـد أغضبها أن يقول لها إن أحدًا لا ينصحه ولا يـوجهه .. لأنها تعمل ذلك طوال الوقت ..

وقال والدى · ولكن ليس بالضرب . بالكلام . بالعقل .. بهدوء ..

وردت والدتى . أنت يدك فى الماء البارد .. أنت تراه ساعة وتنام خمس ساعات وتراه ساعة . ثم يخرج ليعود فينام وتراه ساعة وتسافر ..وأنا الذى يقع فوق دماغى مشاكل النهـار والليل . الأكـل والشرب والغسيل والكنـس والواجبـات كلها . فمـن أين أجـىء بالأعصاب الهادئة .. انت الذى أفسدت الولد . انت الذى قلت له إنه أحسن الناس .. وإنه يفكر .. وإنه العاقل .. والعالم . هل تعرف أيـن يذهب الآن . إنه يذهب إلى بيت أبو آدم .. طبعًـا عارف لماذا ؟ لأن مـراتـه ست حليـوه ودلـوعة وصغيرة وتظـل تقـدم له الشـاى والحلويات وتعطيه الكتب . ويجلسان معًا بالساعات والرجل زوجها لا هو رجل ولا عنده غيره .. إنه رجل كالخواجات لا يصلى ولا يصوم .. وأنا أخاف على الولد ..

ـ أبدًا الـرجل يصلى ويصوم ومحترم ومؤدب وزوجته مـؤدبة وابنه الوحيـد فى غاية الأدب .. وأنتِ لا تعرفين زوجته إنها محترمة ..

ـ أعرفها .. زرتها .. ورأيت حـالها لم يعجبنى .. إنها تهزر مع ابننا وتضحك وبينهما كلام لا أفهمه .. وحكايات كثيرة يضحكان لها .. ولابد انهما جلسا معًا طويلاً وسرًا .. هذا هو الذى يعجبك ؟

ـ عارفه ما هذه الحكايات ؟ إنها التى جاءت فى القصص البوليسية التى يقرآنها معًا ..

قصص كلها عن اللصوص ومطاردة البوليس لهم ..

ـ وأنت تريده أن يكون لصًا ؟

ـ ولماذا لص .. لماذا لا يكون من رجال البوليس ؟

ـ بوليس مثل أبو المكارم زوج بنت خالتى . عسكرى بوليس .. لا .. لا .. أبدًا لا عسكرى ولا ضابط .. أبدًا .. إنهم يسرقون الناس .. ويخطفون وينهبون .. أبدًا .. إن طعامهم حرام وفلوسهم حرام .. أبدًا .. إننى أقول لك من الآن . وأنا سوف أمنعه من قراءة كتب العساكر والحرامية .. غدًا سوف أحرق هذه الكتب ! .

ولم أسمع ليلتها بوضوح ما الذى قاله والدى ..

نمت . وصحوت لأجد أمى تقول ووالدى يحاول أن يسكتها . أو يخفض صوتها حتى لا أسمع . لابد أن تقول له شيئًا .. إنه ابنك كما إنه ابنى .. وأنا لا أحب أن أكون أنا البعبع الذى يخيف الولد .. بينما أنت تجىء كالملائكة وتعود كالملائكة . كلمه .. اشخط فيه يجب أن تخيفه بكلمة ولو مرة واحدة .. إنه يسمع كلامك ولم يعد يسمع كلامى . لا أعرف ما الذى جرى . ما الذى أصابه ..

ـ لقد كبر . إنه الآن يدخل فى مرحلة الشباب . أى إنه رجل صغير ويريد أن يكون له رأى .. وهو يحاول أن يتكلم بصوت مرتفع . ألم تلاحظى . وأن يجعل صوته غليظًا .. إن رفع الصوت ليس قلة أدب . ولكنها مرحلة نمو .. يريد أن يقول . أنا عملت .. أنا من رأيى .. أنا أحب .. أنا لا أحب . أنا لا أوافق .. ألم تسمعى إنه قال لى فى الأسبوع الماضى يا بابا أنا أحبك وأحترمك ولكن أختلف معك . وأنا لم أعلق على ذلك .. فقد مررت أنا أيضًا بهذه المرحلة وإنتِ لماذا كانت أمك تضربك كثيرًا مع إنك كنت قد كبرت .. لأنك كبرت .. ولأنك لم تعودى طفلة .. يجب أن تعطيه فرصة لكى يكبر .. إن الولد مؤدب جدًا .. إنتِ التى تقولين ذلك .. وكل الناس أيضًا .. بل إنه لا يعجبنى لأنه طيب أكثر مما يجب.. مؤدب أكثر مما يجب إنه بنوته .. ولو تركته يعمل ما تريدين لجعلته يرتدى ملابس البنات وتكون له ضفاير .. يجب أن يكون رجلاً . يجب !

ولا أعرف إن كانت أمى تبكى .. أو إن والدى يحاول إقناعها بعدم البكاء .. وفجأة

سمعتها تقول : هل تعرف ماذا حدث أول أمس . أنا كنت فى طريقى لزيارة حرم المهندس . وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر .. مررت على بيت سليمان الخفير .. وجدت سليمان نائمًا أمام الباب وإلى جواره زوجته وابنهما .. ثم وجدت إبننا نائمًا هو الآخر .. ولما وجدتهم جميعًا نائمين .. لم أقترب . وعندما رجعت وجدت الرجل قد جاء وابنهما الصغير .. ولم أجد إلا ابننا إلى جوار حرم الخفير .. هل يرضيك هذا .. هل هذا هو الأدب .. ينام أمام بيوت الناس .. ولماذا لا ينام أمام بيتنا أو فى البيت . ويأتى بمن يشاء من زملائه .. لابد أن تكلمه ؟ .

ـ إنه طفل .. صحيح إنه يدخل فى مرحلة الشباب .. فهو طفل كبير . ولابد انه جلس معهم . وطلبوا إليه أن يمدد فهو ليس أكثر من ابن لهما .. وزميل لابنهما فى المدرسة .. ونام فى أدب ونهارًا وأمام البيت .. وأفضل أن تسأليه .. بدلاً من أن تضربيه ويفاجأ بالعقاب دون أن يعرف غلطته ..

ـ أنت يجب أن تكلمه ؟

ـ عندما أراه فى الصباح

ـ ولكن فى الصباح لن تقول له شيئًا .. أنت دائمًا تقول فى الصباح ويجىء الصباح ولا تقول شيئًا . وإنما تقول يا حبيبى .. ماذا تقرأ . ما الذى أعجبك .. ماذا فهمت .. تعال معى إلى بيت فلان . ولا تقول له كلمة . وأنا الذى يجب أن أقول وأن أعلم وأن أضرب وبعد ذلك يكتبون لك الجوابات يتحدثون عن الضرب ولا يذكرون لك الأسباب .. وهذا هو الذى يصيبنى من أولادك .. هم المؤدبون وأنا قليلة الأدب . وأنا لا أحب أن يجلس إليهم .. إنه أصغر سنًا وإنهم يدخنون ويعاكسون البنات . أنا لا أحب هذه المسخرة ..

ـ غدًا إن شاء الله ..

ـ تريد أن تنام ..

ـ لا ..

ـ أحكى لك حكاية غريبة ولا أعرف ما الذى يجب أن أعمله . انت الذى يجب أن تعمل شيئًا ..

ـ حكاية أخرى

ـ أشنع حكاية .

ـ حكاية لابننا أيضًا ..

ـ منذ ثلاثة أيام انتظرته أن يعود وقد بعثت به يشترى خبزًا وجبنًا وطعمية وفولاً وليمونًا .. وفوجئت بأنه عندما خرج حمل معه كل كتبه .. ولم أفهم السبب . ولما سألته قال إنه سوف يعطيها لأحد زملائه لكى يقرأها ثم يعيدها بعد أيام .. ولما طلبت إليه أن يترك الكتب وأن يؤجل هذه المهمة إلى غد قال لابد اليوم .. وانتظرته ساعة ساعتين .. ارتديت ملابسي وذهبت إلى زميله فقالوا إنهم لم يروه وذهبت إلى بيوت أصدقائه .. فقالوا جميعًا إنهم لم يروه . وكدت أفقد عقلى وعدت إلى البيت بعد أن طلبت إلى جارنا الخفير أن يبحث عنه .. فوعدنى بذلك .. وذهب إلى قسم البوليس . وكانت ليلة سوداء . وخفت أن يكون الذئب قد أكله .. أو يكون قد غرق فى الترعة .. أو يكون قد قتله أحد اللصوص .. وربنا هو الأعلم بما أصابنى .. وعند الفجر سمعت طرقًا على الباب .. وقفزت أفتح الباب فوجدته ووراءه إمام المسجد وقال لى الحمد لله وجدته .. إنه ما يزال صغيرًا.. الحمد لله على السلامة ..

فسألها والدى · أين كان ؟

تقول أمى وهى تبكى · لقد أخذ الخبز والفول والطعمية والشاى والسكر والكتب وذهب إلى قبر جده .. إنه سمع ان الموتى ينهضون بالليل .. لقد قرر أن يعيش هناك .. فأخذ طعامه وملابسه وكتبه .. وفوجئ شيخ المسجد بصوت طفل يسعل فى داخل الضريح . فاقترب ووجده ثم أتى به إلى هنا !.

ولم يرد والدى طويلاً .. ثم عاد يقول لها . الولد لا يريد أن يبقى فى البيت .. إنه يتركه وينام فى الشارع بين اناس آخرين .. ويريد أن يترك الدنيا ويذهب إلى المقابر .. الولد تعبان .. عنده شعور بالعزلة .. بأنه وحده .. حاولى أن تعيديه إليكِ .. أن تكسبيه .. إنه هارب منك .. أو خائف من كل الدنيا .. ولا أعرف من الذى قال له إن الأموات ينهضون من نومهم ليلاً وانهم يتكلمون إلى الأطفال ؟ فهو ذهب يتكلم مع جده .. أو يشكو إليه ..

أنا وجدت عنده خطابًا قد كتبه إلى جده .. لا تقولى له إننى فتشت فى أوراقه وعثرت عليه .. إنه طفل لا يعرف ماذا يريد من هذه الدنيا ..

وتلاشى الكلام ولم أعد أسمع شيئًا . لقد نام والدى ووالدتى . ونمت أيضًا ..

* * *

وسمعت ضوضاء وناسًا كثيرين ورأيت وحوشًا غير واضحة .. وجاء إنسان وحملونى من ساقى .. ثم ألقوا بى فى ماء .. الماء يغلى وأنا أصرخ . ولكن أحدًا لا يرانى ولا أراه . وحاولت أن استنجد بوالدى ولكن يدًا غليظة سوداء انحشرت فى فمى .. ومسامير ساخنة انغرست فى أذنى . ووجدتنى أغوص فى الأرض وأصرخ .. ثم بدأت الأصوات تسكت .. وفتحت عينى لأجد أمى قريبة منى وهى تقول لى

مالك يا ابنى يا حبيبى .. انت تهلوس من ساعة ولا أعرف ما تقول .. سوف يأتى لك الطبيب حالاً . خذ . اشرب .. والله يا ابنى ما أنا عارفه ماذا جرى لك . إنت كنت كويس.. حاضر يا ابنى لن أزعلك .. غصبا عنى يا ولدى انت ما تزال صغيرًا لا تعرف شيئًا من الدنيا .. الدنيا وحشه . الناس أوحش ما فى هذه الدنيا .. ربنا يجعل دنياك أحسن وأفضل.. يارب يا كريم .. اشرب بالشفاء إن شاء الله ..

٣٦

وكنت قد كتبت خطابًا إلى جدى لكى أضعه فى يديه عندما أراه يصحو من قبره .. وتظاهرت بالنوم عندما قرر والدى أن يقرأ الخطاب على اخوتى مندهشًا مبهورًا قلقًا .

قلت لجدى :

(أنا مش عارف يا جدى ليه كل الستات تبكى . لماذا كل البنات تكره الرجال .. لماذا يتكلمون بصوت عال . والرجال يتكلمون بصوت منخفض .. لماذا كل الأمهات تضرب الأطفال .. لا أفهم ماذا تريده أمى . وقبل أن أحاول فهمها تكون قد ثارت وغضبت وبكت ونزفت دمًا .. وأنا أزداد حزنًا عليها .. وأجدها تبكى فابكى .. أنا ترتيبى الأول فى المدرسة يا جدى .. ومع ذلك ماما تعاملنى كما لو كنت قد سقطت فى الامتحان . كانوا يقولون لى إن الذى يحفظ القرآن الكريم لا يمرض .. وأنا أتعرض للزكام فى أسرع وقت.. وقالوا لى أن الذى يحفظ القرآن يجد الطعام تحت المخدة .. أو يجده أمام السرير .. ويجد الفلوس فى طيات كتبه .. وأنا سألت الأطفال عن ذلك فقالوا لى إنهم لم يجدوا الطعام ولا الفلوس .. وألاحظ أن والدى يضع يده على رأس أى إنسان يشكو الصداع ويقرأ آيات من القرآن أنا أعرفها .. فيذهب الصداع .. ولكن والدى الذى يحفظ القرآن يمرض ، وأنا أمرض .. ووالدى يقرأ القرآن عند رأس والدتى ، ولكن القرآن لا يشفيها .. مش فاهم .. وسيدنا الشيخ الذى حفظنى القرآن كان يطلب منا أن نسرق له بيض الدجاج من فوق الأسطح .. وكان يضربنا .. وكان يطلب منا أن نسرق الكراريس من المدارس المجاورة .. مش فاهم .. وكلما نظرت إلى ضيوف أمى وجاراتها وقريباتها وجدتهن يصرخن فى وجهى : ابعد .. لماذا

تنظر هكذا ؟ الولد كبر وأنا مش فاهم يا جدى .. لقد اعتدت أن أجلس مع السيدات .. والآن كلما حاولت أن أجلس إليهن أشارت أمى وخالتى أن أبتعد . مش فاهم .. وفى إحدى المرات ذهبت إلى غرفتى وتظاهرت بالنوم فوجدتهن يتحدثن عن فلانة وزوجها .. وفلانة وزوجة أبيها .. وفلانة وفلانه وحبهما لفلان .. وكلمات كثيرة لم أفهمها .ولم أحاول أن أسأل أحدًا .. جدى العزيز أنا عاوز أموت زيك . ومستعد أن أرى أبى وأمى إذا جاءوا لى ليلاً . ولكن لا أعرف ما هى الطريقة التى يمكن أن يموت بها الإنسان .. سألت الأطفال فضحكوا وواحد قال إغرق فى النيل لكى يأكلك السمك .. فإذا أكلنى السمك فمن الذى يحملنى إليك هنا . وواحد قال : إطلع فوق النخلة والق بنفسك من فوقها وأنت تموت فورًا .. ونظرت إلى النخلة ولكنى لا أعرف كيف أتسلقها .. وطفل قال لى : عندما تجدهم يشعلون نيران الفرن ادخل برأسك مرة واحدة . واقتربت من الفرن ووجدته ساخنًا جدًا. وكان نصيبى علقة مؤلمة من جدتى . فقد ظنت اننى سوف أمد يدى إلى ما فيه من أرز وفطير .. وطفل قال : إذا امتنعت عن الأكل والشرب . لقد حاولت ولكن أكرهتنى أمى على الطعام حتى لا أمرض وأموت .. ولم أجرؤ أن أقول إننى أريد أن أموت ..

ولما مات خالى .. حاولت أن أتسلل إلى داخل الغرفة التى يتمدد فيها . منعونى .. ولما وجدتهم يلفونه فى الأقمشة الحريرية .. حاولت أن ألف نفسى وأدخل إلى جواره فى النعش منعونى وضربونى ..

جدى العزيز هذه هى المرة الثانية التى أزورك فيها .. ولكنك لا تريد أن تقابلنى . سوف أترك لك هذا الجواب .. وأرجوك يا جدى ألا تعطيه لأمى بعد أن تقرأه أرجو أن تقطعه أو تخفيه فى جيبك حتى آخذه منك فى المرة القادمة .. وأنا سوف اقطعه وأرميه فى النيل .. جدى العزيز . أرجوك وأتوسل إليك أن تزورنى فى المنام .. وسأنام مبكرًا .. وسوف أتوضأ قبل أن أنام وسوف أقرأ القرآن حتى أنام .. وسوف أضع المصحف تحت مخدتى . أرجوك أن تزورنى فى المنام وتقول لى إنك تسلمت الخطاب وإنك قرأته .. بس ربنا يخليك يا جدى ... والسلام عليكم ورحمة الله ..)

وكان والدى يقرأ الخطاب على إخوتى وأنا قد تظاهرت بالنوم وهو يقول لهم : الولد

ده مش عارف ربنا حيجعل منه إيه عندما يكبر . إن جسم هذا الولد لن يتحمل عقله .. مسكين جدًا .. عقله أكبر من سنه .. وأكبر من جسمه .. ولن يكون سعيدًا .. أنا مهموم بأخوكم هذا ..

* * *

وضحك إمام المسجد وقال لوالدي بعد سماعه لهذا الخطاب : الولد كاتب ولأنه لم يجد جمهورًا بين الأحياء ذهب إلى الأموات .. هاها .. هاها ..

اتفقت مع أختي على الهرب .

أختي قالت لأمي أن أذهب إلى بيتها وأبيت عندها حتى الصباح . وترددت أمي . ولكن أمام إلحاحها وتقبيل يديها وافقت أمي وطلبت من أختي أن تساعدني على ترتيب ملابسي في حقيبة من القماش .. وأن تضع المصحف بين ملابسي .. وطلبت منها أن تغطيني باللحاف . لابد من اللحاف حتى لا أصاب بالزكام فالدنيا برد .

وكنت قد أعددت ملابسي .. ولما لاحظت أمي إنني أحمل اللحاف معي . أشارت أن أتركه فأختي لديها لحاف ..

وبسرعة مرت أختي على بيتها الذي يبعد عن بيتنا ودخلت وغيرت ملابسها وحملت بقجة فيها بعض الملابس وبعض الطعام .. ووجدت ان معها عصا طويلة .. وقالت إنها تستخدمها لضرب الكلاب لأن في خيام الغجر كلابًا كثيرة ..

وكنا في طريقنا إلى خيام الغجر .. فأختي لاحظت انني أحب أن تكون (زؤيه) معنا .. وهي طفلة غجرية في مثل سني .. بيضاء سوداء العينين والشعر تبدو وكأنها في الرابعة عشرة مع إنها في الحادية عشرة . وإذا نظرت إليك فإنها تنظر مباشرة إلى وجهك .. وتظل تنقل عينيها من عينيك إلى شفتيك إلى أصابعك إلى ملابسك .. إن نظرتها تلخبطني .. ولكن يخفف عني هذا الاضطراب إنها مبتسمة دائمًا .. وإنها إذا صافحتني ألقت بنفسها على صدري أو على كتفي قائلة : حبيبي .. عريسي ..

والمشوار طويل .. ولكن لا أستطيع الا أفكر قبل أن أراها .. فكنت أقول لأختي : وأين

تنام هذه الليلة ..

أختى هناك .. عندهم خيام كثيرة ..

ـ وهل ستكون معنا زؤيه ؟

ـ طبعًا . هي قالت لى أمس .

ـ انت قابلتها أمس .. أين ؟ ماذا قالت لك ؟

ـ قالت إنها سوف تنتظرنى وإننا سننام معًا فى خيمة واحدة .. وإنها طلبت منى بعض السكر والأرز والسمنة .. وقد أحضرت لها كل ذلك .. إنها تحبك يمكن أكثر منى .

ـ وأنا أحبها أيضًا .. كم يومًا سوف تبقى هنا .

ـ الليلة فقط .. لو أمى عرفت الحقيقة .. أو زوجة أبى .. سوف تكون مصيبة كبرى .. لقد قلت لزوجة أبى أننى سأنام عندكم .. فوافقت .. وربنا يستر ألا تلتقى مع أمى الليلة أو غدًا ..

ومن بعيد ظهرت الخيام . إنها ملونة . أول مرة أراها زرقاء وحمراء وسوداء . وأرى هذا العدد الكبير من الكلاب والماعز والحمير .. وكما توقعت أختى تقدم ناحيتى كلب أسود فضربته بالعصا .. فتراجع يصرخ . وتعالى نباح الكلاب .. وأطلت الأطفال من الخيام .. وظهر عدد من الرجال ولم تظهر زؤيه حتى الآن . وتوقفنا قليلاً .. وفجأة ظهرت (زؤيه) .. لم أعرفها .. ويبدو اننى كنت مضطرباً .. إن (زؤيه) حلوة .. وجهها مستدير .. أبيض .. وخداها حمراوان وشفتاها غليظتان .. وكتفاها مستديرتان عاريتان رغم برودة الجو .. وصدرها رغم انها صغيرة .. وكان شعرها ضفيرتين غليظتين واحدة على كتفها والثانية وراءها .. وقد وضعت عددًا كبيرًا من الأساور فى يديها والخواتم .. ونادت علينا . وردت عليها أختى .. وأبعدت عنا الكلاب ودون أن تصافحنا تقدمت إلى إحدى الخيام .. وأشارت : هنا أنت تنام . وإلى جوارك أختك .. وأنا إلى جوار أختك . وسوف يجيء أخوان صغيران ينامان متجاورين هنا ..

ثم طلبت إلى أختى ماذا تحملين معك ؟

وأعطتها أختى البقجة .. وفتحتها زؤيه . فوجدت الأرز والسكر والشاى والصابون

وعلبة سمنة .. وعلبة عسل وعلبة جبنة قديمة .. وفطائر مشلتت .. ونهضت زؤيه وقبلت أختى .. ثم قبلتنى .. ثـم انطلقت إلى مكان آخر .. ووجدتنى مع أختى وأسـألها : كم يومًا نجلس هنا ؟

ـ يوم واحد ..

ـ لا أريد أن أعود ..

ـ يا نهار اسود .. لا .. اليوم فقط . وغدًا نعود ..

ـ لا أريد أن أعود .. هل عندهم كتب ؟

ـ كتب ؟ لا أعرف . اسألها .

وجاءت (زؤيه) وسألتها : عندكم كتب ؟

ـ توجد كتب ولكن أنا لا أعرف القراءة ..وكلها بلغتنا .

ـ لغتكم ؟

ـ طبعًا نحن لنا لغة أخرى غير العربية .. أنـا أعرف منها القليل . ولكن الرجال الكبار فى السن يتكلمونها معًا . وأمى تعرف ..

ـ وأمك أين ؟

ـ تجرى على عيشها

ـ ماذا تعمل ؟

ـ ليست هى وحدها .. وإنما كل النسـاء يعملن . والرجال يجلسون هنا .. يصنعون الخيام والملابس والطهى وتربية الدواجن والماعز وإطعام الحمير وإصلاح العربات ..

ـ ولكن أنا أريد أن أكون مع أمك

ـ معها ؟ إنها سوف تكون سعيدة جدًا ..

ـ ولكن ماذا تعمل معها ؟

ـ أساعدها ..

ـ أمى سوف تكون سعيدة .. لأنها بدأت تشكـو من آلام فى ظهرها وركبتها .. وأنا لن أعمل الآن .. بعد الزواج . ولكن الآن أبقى مع الأطفال فى خدمة الرجال الكبار ..

ومن فتحة الخيمة أطل أحد الرجال وتحدث إلى زؤيه .. ولم أفهم مــاذا يقولان ولكن زؤيه أشارت ناحيتنــا .. وتطلع إلينا الرجل بعين فاحصة قبل أن يقــول لنا أهلاً وسهلاً بالضيوف ..

ولم أفهم ما قالته زؤيه لـه . ولكن لم يظهر عليه الاهتمام . بل إن الإهتمام تحول إلى لا مبالاة .. وإلى لا شيء فاختفى .

وجاء رجل ثان أصغر سنًا وسلم علينا وسأل زؤيه بالعربية عنا فقالت : أخ وأخت .. وأنا أحبهما كثيرًا .. وأنا دعوتهما إلى المبيت عندنا .. وأنا سوف أبيت عندهما أيضًا ..

واختفى .. ولم يقل شيئًا .

وجاءت سيدة طويلة عريضة سمراء شديدة الاحمرار . وقد ارتدت ثوبًا أسود وتحته ثوب أحمر .. وشعرها أسود وعيناها واسعتــان والتف حول عنقها الكثير من العقود وفى يديها الكثير مـن الأساور والخواتم . وعلى خديها وشـم وعلى أصابعها وشـم.. ودخلت وجلست . والتفتت ناحيتى وقالت . وحشتنى يا ابنى .. هذه أختك ؟

قلت : نعم .

ـ تحبها ؟

ـ جدًا .

ـ وهى تحبك .

ـ جدًا ..

ـ أكثر من زؤيه .

وتلعثمت ولم أقل شيئًا فهذه هى أول مرة أقارن بين حبى لأختى وحبى لزؤيه .. ولما رأت اضطرابى واحمرار وجهى والعرق الذى ظهر على وجهى . ضحكت وقالت : كل هذا يدل على انك تحب زؤيه أكثر من أختك .. وهى تحبك جدًا ومستعجلة . على الزواج .

وامتــدت يد أختــى تهزنى وتســألنى . زواج ؟ انــت تتزوج دون علـم أمى ؟ يــا نهار اسود.. أنا لا أستطيع أن أبقــى هنا لحظة واحدة .. أنا ماشية .. هــذه مصيبة . اقعد انت معاهم .. لكن أنا سوف أعود ..

وانطلقت أختي وتركتني ..

وخرجت أم رؤيه وجلسست أنا وهي .. ولما رأت اضطرابي الشديد اقتربت مني أكثر وهي تقول :

انت لا تعرف أمي .. إن لها طريقة في الكلام لا تعجب الناس .. إنها هي التي تستعجل زواجي .. ونحن الغجر لا نتزوج إلا من الغجر .. وعريسي موجود .. ولابد أن أتزوجه .. ولكني أحبك .. وكنت أتمنى لو انك أنت العريس .. لكن انت حياتك شكل ونحن حياتنا شكل آخر .. أنا لا أستطيع أن أعيش بينكم ولا أنت تستطيع أن تعيش بيننا ..

ـ ولكن أريد أن أبقى هنا .. أريد أن أسافر معكم ..

ـ لابد أن تعمل .

ـ أعمل .

ـ ماذا تعرف ؟

ـ هل تحرث الأرض ؟ . هل تجمع الفاكهة ؟

ـ لا ..

ـ هل جربت السرقة ؟

ـ لا ..

ـ ولا سرقت مرة واحدة ؟

ـ ولا مرة ! .

ـ ولا وضعت يدك في جيب والدك ؟

ـ لا ..

ـ إن أختك قد سرقت الأرز والسكر والسمنة من بيتها .. لماذا لا تعلمك السرقة .. وبعد ذلك تعال وعش معنا .. ولكن هل أهلك إذا عرفوا إنك هنا جاءوا وأخذوك ..

ـ طبعًا .

ـ إذن كيف تختفي بيننا .. إن أختك سوف تبلغ والدك ووالدتك وأقاربك .. وسوف تثور علينا المدينة كلها ويضربوننا .. ويجيء البوليس ويتهموننا بسرقة الدجاج والبيوت

وخطف الأطفال .. ويهددنا البوليس بالحبس أو ترك المكان .. لقد حدث لنا ذلك كثيرًا جدًا.. لا أحد يريدنا .. وأنا أعلم أننا لم نسرق كل هذه الأشياء التى يتهموننا بسرقتها .. ولكن يبالغون فى جرائمنا .. أمى لم تسرق سوى بعض البيض .. انظر .. انظر..

ورأيت عددًا من الناس .. عشرة .. عشرين والكلاب تنبح وأنا أتوارى . والأصوات تقول : يا لصوص يا أولاد الكلب .. أين الحلل .. والأساور .. والقمصان التى كانت على حبل الغسيل .. وشوال أرز .. وصندوق سكر ..

ويظهر أحد رجال البوليس .. وينادى : أين الرجل الكبير هنا ؟

ويظهر رجل كبير له لحية بيضاء فى السبعين .. إنه يتوكأ على عصا .. وتسرع زؤيه وتضع تحته صندوقًا فارغًا لكى يجلس عليه .. ويقف إلى جواره . ويقرب منه رجل البوليس ويقول له : المسروقات لابد أن ترجع الآن وإلا فكوا الخيام وامشوا لحال سبيلكم يا أولاد الكلب يا حرامية .. رد .. ساكت يعنى ؟

ويكون للرجل العجوز صوت غير مسموع .. ولكن زؤيه بمنتهى الشجاعة تقول لرجل البوليس إنه مريض ويقول لك . اتفضل فتش كل شىء هنا .. بنفسك . وإذا وجدت شيئًا واحدًا من هذه المسروقات فضعنا جميعًا فى السجن ..

وقبل أن يتقدم رجل البوليس إلى الخيام تكون النساء قد أخرجن كل شىء على شكل قفف وأكوام من الأدوات والأخشاب .. ويضرب رجل البوليس كل شىء بيديه وقدميه .. وينظر إلى أقفاص الدجاج ولا يجد الماعز والحلل وجوالات الأرز والسكر ..

ويقول واحد من الجمهور :: هناك مجموعة من الغجر فى الناحية الثانية .. فلنذهب إليهم !.

وينفض الناس .. وتنظر زؤيه ناحيتى وتقول . لا يوجد غجر غيرنا ولكنهم يبالغون فى السرقات والجرائم .. ويبالغون فى عددنا وفى مواقعنا وقدراتنا على السرقة والاختفاء .. ويتوهمون إننا فى كل مكان .. وهم بذلك يخفون اللصوص الحقيقيين .. إن اللصوص بينهم وليسوا بيننا .. ولكن مادمنا قد ظهرنا فكل المصائب فوق دماغنا .. ويقولون لنا : إننا قذرون وأن لنا رائحة كريهة .. وأن الكلاب لا تنام فى الخيام لأنها لا تطيق رائحتنا ..

ثم تقترب مني أكثر وتقول لي : شم.. رائحتي.. هل هذه رائحة يهرب منها الكلاب .. إننا يجب أن نستحم مرتين في كل يوم وأن نغير ملابسنا قبل النوم.. دائمًا .. ونغسل أيدينا قبل وبعد الأكل وكذلك أفواهنا .. إن ديننا يقول لنا إنه مسموح لنا بالسرقة .. وسوف أنادي جدي لكي يحكي لماذا سمح الله لنا بالسرقة . أريده هو يحكيها لك بنفسه..

واختفت وجاءت وعلى رأسها صندوق من الخشب . وضعت الصندوق في منتصف الخيمة .. ثم ذهبت لتأتي بجدها . إنه رجل وسيم .. كان وسيمًا ثم أجلسته على الصندوق .. ونظر ناحيتي .. عيناه لامعتان ولكن شديدة التجاعيد عند أطرافها وتحتها.. ولكن له ابتسامة حلوة .. وتحدثت إليه زوزيه بلغتها وأخذ يحكي بلغته وهي تترجم .. ثم التفتت ناحيتي وقالت . المسيح .. عندما قرر الرومان صلبه .. تعرف القصة .

قلت : لا ..

قالت : المسيح .. عندما حكموا عليه بالاعدام فوق الصليب .. جاء الحدادون وراحوا يضعون أمامه أربعة مسامير من الحديد .. لكي يدقوها في كفيه وقدميه.. فتقدم واحد من أجدادنا وسرق مسمارًا .. فلم يجد الرومان إلا ثلاثة مسامير لكي يدقوها .. فكان اختفاء المسمار الرابع الذي سرقه جدنا سببًا في إنقاص آلام المسيح وعذابه .. والمسيح حكا ذلك لأبيه . فأسعده ذلك .. وقرر أن يسمح لنا بالسرقة مكافأة على ذلك . ومن يومها ونحن نسرق الأشياء الصغيرة ..

ثم دار بينهما كلام لا أفهمه ..

ووجدتها تقول له . قلت له .. إننا متهمون هنا بسرقة وقتل ونهب وسلب وخراب بيوت كل الناس .. وإذا مرض إنسان وإذا مات .. وإذا اختفى أي شيء .. وإننا عفاريت ليلًا ولصوص نهارًا .. وإننا قد أحطنا بالمدينة من جميع جوانبها .. وأن أحدًا لا يرانا إذا جئنا ، ولا يرانا إذا خرجنا .. وأنت الوحيد الذي تحبنا وتريد أن تعيش معنا وأن تكون واحدًا منا ..

ثم اقتربت مني وكشفت ذراعي ودار بينهما كلام وظهرت السعادة على وجه الرجل .. ثم مدت ذراعها ليراها . وضحك الرجل وقال بالعربية : مبروك .. يا ولدي !

وكنت قد نسيت أنني جئت وحدي وعندما طلبت من زوزيه أن نتزوج جاءت أمها ..

وجعلتني أشرب من دم زوئيه وتشرب هي من دمي .. أي إننا أخوان ولا نتزوج ! .

ولاحظت أن جـدها ينـاديها : زوئيه .. زوئيا .. وكـانت تقـول له . سـي .. أي نعم .. وكلمات أخرى حفظتها ونسيتها ولكن عرفت فيما بعد أنها خليط من اللاتيني واليوناني والأسباني والإيطالي والهندي والعربي .. إنها خليط من لغات البلاد التي يخترقونها على مدار السنة .. طول العمر ..

وخرج الرجل ومعه زوئيه .

وتركتنـي وحدي في ذهـول .. فانا هنـا أيضًـا وحـدي . في خيمة .. سجـن آخر .. ولا أستطيع أن أخرج من الخيمة .. وإذا عدت إلى البيت وحدي وإذا لم أعد .. وإذا أختي قالت لأمي الآن .. أو انها سوف تقـول ذلك غدًا .. وماذا تقـول لأبيها وزوجة أبيها عـن أسباب رجوعها .. وإن كانت أمي قد طردتها .. وكلام آخر موجع تقوله زوجة أبيها ولا تتركها إلا ودموعهـا على خديها .. أعرف ذلك .. رأيتـه وسمعته كثيرًا .. وتزداد حيرتـي : لماذا يبكى الناس .. ولماذا يتوقف الناس عن الكلام والشجـار إذا نزلت الدموع من العين .. ولماذا لا يبكي الرجال . وإن كنـت رأيت والدى يبكي مرة واحدة .. ولما رأيت ذلـك قال لى أبى أنا تذكرت والدتي يرحمها الله .. أنت رأيتها وأحببتها وهي كانت تحبك ..

ولم أسأل والدي إن كانت جدتي تزوره في المنام ..

ولكن وجدته يروى أحد الأحلام التي زارته فيها ..

ويحدث كثيرًا جدًا أن افكر في شـيء أو يخطر على بالى شيء ، فأجـد والدي يحكيه .. وكأنه قرأ ما في عقلي .. أو كأنه أحس بي .. أو كأنه قريب مني لدرجة أنه يسمع أفكارى..

وفي خيام الغجـر لا أكون في كامل وعيـي .. إنما في حالة مـن القلق والخوف والحيرة والدهشة والرغبة في البقاء والفزع من البقاء ..

وفجأة انفتحـت الخيمة ووجدت أختي وأمـي وراءها .. وبسرعة وجدت أختـي تلملم ملابسـي وتدفعنـي أن أخرج فورًا . ولم أستطـع أن أرفع عينـي في وجه أمـي ، ولا أمي نظرت ناحيتـي . ولا شـعوريًّا مددت لها يدى . ووجـدت يدى باردة ويدها . كـأنني نائم أمشي ، أو انني أمش نائمًا .. تشبثت بيدها .. أو كـأنني أمشي على حافة بئر .. أو كأنني غرقـان ووجدت يدها .. أو كـأنني اضغط عليهـا لعلى أنقل لها كل ما في نفسـي . وما في

نفسى إلا الخوف . منها ؟ لا أخاف منها .. أخاف عليها ؟ نعم .. ولكنى خائف .. ارتعش.. اختنق .. لا أمى قالت شيئًا ولا أنا .. وإنما كانت يدى تنتظر يدها . والتقت اليدان . وسرنا. وأمى لا تنطق واختى أيضًا . وأنا السبب ..

ولم تشأ أمى أن تعود إلى بيتنا وإنما قررت أن تذهب إلى بيت أحد أقاربنا .. لم أكن أعرفه . ولكن رأيت السعادة على وجه أختى . وقرصتنى فى ذراعى . ولم أفهم .. لعلها أرادت أن توقظنى أو تؤكد لى أن أمى ليست غاضبة .. وأن القصة التى حكتها أختى لم يكن لها معنى يضايق أمى ..

السلم طويل . وأمى تتنفس بصوت مرتفع . وأنا أتقدمها وأشدها .. سمعتها تقول : ربنا يعطيك القوة يا ولدى .. ربنا يكرمنى بك ويكرمك يا ابنى ..

وانحنيت على يد أمى قبلتها ..

وأشارت أن أدق الباب . وأحسست بالسعادة لأنها تطلب منى شيئًا . وأن كل شىء عادى بيننا .. فرحت أدق الباب كثيرًا وبقوة . وضحكت أمى لتقول : إنهم يجلسون وراء الباب !.

وانفتح الباب على شقة مضيئة وجدرانها خضراء والمقاعد حمراء .. وتتوسطها ترابيزة كبيرة . الوجوه لا أعرفها ..

وتقدمت أمى وهى تضحك ـ والله زمان يا ماما لم أرك تضحكين هكذا .. هل تخفين الحزن فى قلبك .. إلى هذه الدرجة انتِ قادرة على إخفاء مشاعرك .. ولكنك جميلة والله ياماما .. أمى بيضاء ووجهها وردى وعيناها عسليتان .. وإذا ضحكت كأنها تخجل من ضحكها فتحنى رأسها كأنها توارى وجهها . وقد أخذت منها هذه العادة .. ثم تمسح عرقًا ظهر على جبينها وبعد ذلك تلمس ضفيرتها الطويلة على كتفيها ـــ وتقول لصاحبة البيت . والله يا ست أم إلهام نفسى أزورك من زمان .. وأنا أتيت معى ابنى وبنتى ..

وفجأة ظهرت ثلاث بنات وولد هم كل أولاد الست أم إلهام ..

ولما شعرت بالاضطراب وجدت أمى تقول لى . أقعد يا حبيبى .. أقعد مع أخواتك ..

وقالت الست أم إلهام : إلهام الكبيرة .. وثريا .. ونوال .. وأصغر أولادى حمادة ..

لم أتابع ما يقال حولى .. ولكن كنت سعيدًا أن أجد أمى سعيدة .. وإنها لم تعاقبنى ..

أو إنها أرادت ألا أعود إلى البيت حزينًا .. وألا تجعلها حكاية كما كان والدى يقول لها : إنت كل حبة تجعلينها قبة .. كل شىء تافه يصبح عندك حكاية ورواية .. إن الولد لا يقصد كل هذه المعانى .. إنه صغير .. ولكنك انت التى تدبرين الحكايات فى دماغك وتجعلينها مصائب كبرى .. إنها أشياء تافهه ! .

* * *

وكان يومًا سعيدًا كله .. فى الليل جاء والدى وملأ البيت حيوية وحكايات .. وقدم لنا الحلوى والملابس الجديدة .. والجزمة التى وعدنى بها .. والكتب قد وضعتها تحت مخدتى حتى لا تراها أمى ..

وكان قد أحضر معه العشاء .. الأرز بالفرن والحمام والسمك المقلى والفاكهة واللب والسودانى .. وعلبة حلاوة .. والشاى الكثير والنعناع . وأعطانى مجموعة من أقلام الرصاص الشديدة السواد ..

وكما هى عادة والدتى قبل أن تنام فإنها تتأكد من اننى نمت .. فراحت تنادى .. فتظاهرت بالنوم . وجاءت لتتأكد بنفسها . فلم تشك انى نائم . وإذا بها تقول لوالدى : هل تعرف ماذا حدث .. إننى عملت بنصيحتك ولم أكلم الولد ولا كلمة .. وإن شاء الله كل شىء سوف ينتهى .. ذهب إلى الغجر مرة أخرى .. ولم يقل لى . وإنما كذب وقال إنه ذاهب إلى واحد صاحبه .. هل تعرف ماذا حدث .. والله أنا لا أعرف أين أخفى وجهى من وجوه الناس .. تصور ان الغجرية أم البنت التى تحبه .. طلبت منه أن يمشى وراءها فى الشوارع ويحمل القفة على رأسه .. وكلما نادى عليها أحد لكى ترى له البخت .. انزل هو القفة ليخرج منها كيس الرمل وتضرب الودع .. ثم تتركه إلى جوار القفة وتذهب إلى البيوت وتسرق وتخطف وتطلب إليه أن يحمل القفة .. وإذا سألها الناس من هذا الولد تقول لهم زوج بنتى .. أنا لم أر ذلك وإلا كنت سقطت ميتة .. أخته هى التى قالت لى ذلك.. ولم تجرؤ أن تقول له حتى لا يغضب منها .. ولما سألت أخته عن السبب وهى موضع سره قال لها . أريد أن أترك مصر وأسافر معهم إلى ألمانيا وفرنسا والهند .. وإنه يريد أن تكون له عائلة من الغجر .. وتكون له خيمة ويكون هو كبير العائلة ويكون هو

الطبيب والعمدة .. هـو الذى قال لها كل هذه الحكـايات .. ولما قالت لـه وهل تترك أمى .. قال لها : ماما سـوف تكون معى .. أنا لن أعمل ذلك إلا عنـدما أكبر .. ولكن الآن أريد أن أذاكر وأن أنجسح وأن أكون وزيـرًا ، كما تريد مـاما .. وبعـد أن أكون وزيـرًا أترك مصر وأعيش فى جبال الهند وسط مملكة الغجر .. الكلام ده من أيـن يأتى به .. هل هو موجود فى الكتب ..

قال والدى وهو يضـحك أبدًا .. أنا عمرى ما قرأت ولا سمعت عن هؤلاء الغجر ..

وقالت له أمى · لماذا لا تأخذه إلى أحد الأطباء ..

ـ الولد ليس مريضًا .. إنه صغير يتخيـل .. ويريد أن يعرف .. أن يكون شيئًا .. ولكن ظروفه لا تساعده .. إنه مختلف عـن بقية الأولاد .. الفرق بينه وبين الأولاد الذين فى مثل سنه .. إنهم مثـل الفراخ وهو مثـل الحمام .. هو يطير ولكنهم لا يطيرون .. هـم يمشون تحت وهو يمشى فـوق . ونحن لا نقول إن الحمام مريـض لأنه لا يمشى على الأرض .. ولا نقول عن الفراخ إنها مريضة لأنها لا تطير فوق الشجر .. إنها مختلفة .. وكذلك ابننا مختلف .. إنـه يحفظ القرآن الكريـم وهو طفل .. وهـو يحفظ مئات أبيات الشعـر .. إنه مختلف .. وهو طيب .. فاضل .. خجول . مؤدب .. ترفقى به .. لا تخافى عليه ..

وارتفع صوت أمى فى فزع وهى تقول لوالدى : ومنذ أيام كان وهو نائم ينادى البنت مقصوفة الرقبة .

ـ من هى ..

ـ الغجرية التى تحبه وتريد أن تتزوجه ..

ـ اسمها زؤيه .

ـ وهو نائم ؟

ـ نعم ..

ـ كان مريضًا ؟

ـ كان مجنونًا ..

ـ طبيعى أن يهلوس أى إنسان وهو نائم .. ومـن الممكن أن يذكر أى اسـم .. ينادى

أقرب الناس إليه . والده .. أمه .. حتى الكلب إذا كان عنده كلب . سوف آتي له بكلب .. وسوف أعلمه كيف يهتم به وينظف مكانه .. اتركيه يعمل ما يحب .. إنه فى عزله شديدة إنه لا يجد أحدًا له نفس الاهتمامات من زملائه أو جيرانه أو أقاربه .. لا تخافى عليه .. أنا شخصيًا لست خائفًا ..

وصمت طويل .. واستدرت لكى أنام . عندما وجدت والدى يضحك ويسأل وأين وجدت هذا ؟

ـ وجدته فى ملابسه ..

ـ إنه خطاب كتبه إلى جده ! إنه يعتقد أن الموتى ينهضون من نومهم ليلاً ويتحدثون إلى الناس ويقرأون الخطابات ..

ـ ماذا يقول ؟

ـ إنه يسأله رأيه فى زوْيه وهل يتزوجها .. ويقول له إنه يحبها . ولكنها تريده أن يسرق .. وأن يتعلم قراءة الفنجان والكف والودع .. وانه لا يريد ذلك ولا يحب إلا القراءة.. وانه لا يستطيع أن يكذب لانه قد حفظ القرآن .. وانه لا يسرق لأن هذا حرام .. ثم إنه لا يريد أن يتزوجها وإنما فقط أن يعيش معها وأن يسافر بعيدًا .. ويطلب إلى جده ويرجوه أن يظهر لك فى المنام لكى يقنعك أنت إنه لا يستطيع أن يكلمك فى هذا الموضوع .. ثم يقول لجده وإذا أنت لم تظهر لى فى أى منام هذا الأسبوع ، فمعنى ذلك انك ترفض زواجى من زوْيه والحياة معها .. وإنك لم تستطع أن تقنع ماما ..

ـ سلامتك يا ابنى يا حبيبى .. يا أحب إخواتك وأطيبهم .. كله حنية .. ربنا يحل عقدته وينتشله من الضيق الذى يعانيه . يارب يا كريم ..

ـ لا تخافى .

ـ ربنا كبير .

ـ . . .

ـ . . .

.. وأنا بعد ذلك نمت ! .

٢٧

امتلأت حياتى بالأشياء المخيفة . أو العلاقات المخيفة .. أو الأوهام المخيفة ..

فأكبر الكلمات انتشارًا فى حياتى واستقرارًا فى نفسى هى كلمة · الخوف ..

فـالليل مـخيـف . ويبـدأ الخوف قبل الغـروب مبـاشرة .. ولـذلك يجب ألا أمشـى فى الشارع.. فإذا جاء الليل واجهناه بالأبواب المغلقة والنوافذ المحكمة .. ثم حشرنا الورق أو القماش أو القطن فى الفتحات الصغيرة بالنوافذ .. أو الانصات الشديد لكل صوت يجىء من أى مكان .. صوت صرصار يمشى على الورق .. يكون له دوى .. وصوت وراء النافذة وصوت فوق السطوح ..

وأحيانًا أسأل أمى : ما هذا ؟

فتقول لى · غط وجهك .. نم ! .

وأحيانًا تقول لى . إنه ثعلب يطارد عرسة . أو انها بعض الفئران ..

وتكون هذه إجابات قاطعة واضحة ولكنها ليست مريحة ..

وفى إحدى المرات سمعت شيئًا وقع أو انكسر أو خنـاقة .. وصراخًا واحدًا يضرب ابنه الصغير . فأسأل أمى :

ماذا فعل حتى ضربوه ؟

ـ من هم الذين ضربوه ..

ـ إنه يبكى ..

ـ لا أحد يبكى يا حبيبى ..

ـ ولكنى سمعت صوت طفل يبكى لابد أن أحدًا قد ضربه .. ماذا فعل .. لكى يضربوه فى هذه الساعة من الليل ؟

ـ لا أحد .. انت تحلم !

ـ ولكنى متأكد ..

ـ لا أحد .. أنت تحلم ! .

ولكن لا أجد تفسيراً لهذه الأصوات القوية الواضحة التى أسمعها فى الليلة الواحدة عدة مرات ..

وفى إحدى الليالى ولم يكن ذلك وهماً . وإنما كل شىء واضح تماماً . فأنا لم أنم وفجأة سمعنا شيئاً يسقط من فوق السطوح .. واضح تماماً .. وبعد ذلك تعالت أصوات الدجاج .. ثم سكت .. وبعد ذلك تعالت أصوات الدجاج وسمعت أحداً يتكلم .. ونظرت إلى أمى فوجدتها تنصت هى الأخرى . وسمعت أحداً يتكلم .. وأصواتا أخرى لا أتبينها . وأنظر إلى أمى إنها هى الأخرى تسمع ولا تقول شيئاً . وظهر الضيق على وجهها.والحزن وطلبت منى أن أنام .. وسألتها ما هذا ؟

قالت : إنه فكرى ؟

ـ من هو فكرى .

ـ زميلك فى المدرسة ..

ـ وماذا يعمل عندنا ..

ـ يسرق الدجاج ..

ـ لماذا ؟

ـ ضع الغطاء على رأسك يا ولدى .. الصبح لـه عينان .. سوف أحدثك عن كل ذلك فيما بعد .. لم أفهم . ولا سألت أمى . وإن كنت قد حاولت أن أعرف معنى ذلك بنفسى ..

أما فى ليالى الشتاء فهى العذاب نفسه . فالهواء له صوت تحت الباب وتحت النافذة فى أغصان الشجر .. وللكلاب والذئاب صوت فى الوحل والطين .. وللناس أيضاً .. وفى ليالى الشتاء تتساقط الأشياء فى البيت وخارج البيت .. وكل ذلك يحدث أصواتاً متداخلة مفزعة غامضة ..

فلا يكـاد يظهر ضوء الشمـس حتى تستقبله بفتح النـوافذ .. أو إطفاء المصـابيح فى البيت .. ومـع الشمس يتبدد الظـلام الذى هـو الخوف .. وتختفى الأصوات الغـريبة .. وتغرق الدنيا فى حشد من أصوات الحياة اليومية .. الطيور وأصوات العربات والسيارات والراديـو والنداءات .. وبكـاء الأطفال وزعيق الآبـاء والأمهات .. وأصـوات بوابير الجاز والحنفيات . مع ظهور الشمس تمتلئ الدنيا أضواء وضوضاء وشعوراً بالأمان ..

وهناك الخوف مـن الناس . كل الناس مخيفـون .. كل الناس يعطلون عـن القراءة . والدراسة والتفوق والنجاح . كل الامهات تحسد الأولاد الطيبين المنشغلين بكتبهم فقط .. والتى عندهـا بنات تحسد من عنـدها أولاد .. والتى عندهـا أولاد كثيرون تحسد من لديها اثنان فقـط .. والذى أولادها مهملون تحسد كل تلميذ مجتهد مثلى .. وهذا تفسير مرضى أو إصابتى بالسخونة بعد كل زيارة من جارة من جاراتنا .

والكتب التى فيها صـور ضارة جداً إنها تشغل عن الكتب المدرسيـة . ومادامت فيها صور ففيها حكايات وكلام فارغ . ولكن مـا هو الكلام الفارغ أنه أى كلام ليس مفيداً .. أى ليس نوراً .. أما الكتب التى تظهر عليهـا وجوه أو صـور بنات فهى المصيبة الكبرى .. وهى وحـدها التـى سوف تضيع مستقبلى .. وأمى لا تمل من ذكر هـذه القصة بـألف طريقة .. فقد تضايق والدى من أن واحداً من إخوتى الاكبر سناً كان لا ينجح فى دراسته . مع إنه إنسان ذكى وطيب . وقد سمـع من المدرسين وخصوصاً ناظر المدرسة أن أخى هذ يلعب كثيراً . ومادام هكذا يهتم بمظهره الخارجى إذن فهو يضيع وقته مع البنات ـ طبعاً لم أفهم أن يضيع وقته مع البنات .. يعنى ما الذى يعملـه مع البنات سألت أمى . فاكفهر وجهها وزغدتنى ولم تشأ أن تقول شيئاً . وفى يوم من الايام راح والدى يفتش فى ملابس أخى الأكبر ثم يشمها .. ويفتش فى كتبه ثم يشمهـا .. وعندما فتش بين المراتب وجد عدداً كبيراً من صـور البنات وخطـابات كتبها للبنات وكتبتها البنات لـه .. ولم أفلح فى أن أفهم معنى هـذا الذى رأيـت . ولا جرؤت أن اسـأل أمى . ولا حتـى أن أسأل والـدى .. صور لبنات.. وخطابات لبنـات ومن بنات وتؤدى كلها إلى سقوطـه فى المدرسة .. ويفكر والدى فى أن يمنعه من الذهاب إلى المدرسة ويبحث لـه عن عمل . مادام بليداً هكذا فى المدرسة ..

وانظر إلى أخى فلا أفهم .. وإلى والدى فهو غاضب وإلى والدتى فهى شديدة الفزع .. وفى كل مرة تحكى هذه الحكاية تضع يدها على أذنى كأنها لا تريدنى أن أسمعها .. هى التى تحكى لى الحكاية وهى التى تريدنى ألا أسمعها وهى فى نفس الوقت لا تتوقف عن حكايتها .. كأنها تطلق قنابل ، وتريد أن أسمع جانباً منها .. لا كل هذه الحكاية .. أو كأنها تخشى على أذنى أو على عقلى أن يصاب بالارتجاج .. ولكنها لا تكف عن هذه الحكاية.

لا كل البنات .. لأنها تطلب منى أن أجلس مع فلانة وأن اتعلم منها .. ولابد أن تكون فلانة هذه مسيحية .. أو أكبر منى فى السن .. أو فى مثل سن أمى . ولا أعرف معنى ذلك ولا عندى وقت لكى أفكر حتى لو رغبت فى ذلك ..

سألتنى أمى : ماذا كانت تقول لك فكتوريا ؟

ـ فكتوريا أخت ميشيل ؟

ـ نعم .؟

ـ إنها تقول إنها عندما تكبر وتتزوج سوف يكون لها ابن اسمه أنيس .. وسوف تجعله مطيعاً مثلى محباً للقراءة مؤدباً ..

ـ هى تتكلم عن الزواج ..

ـ وتقول إنها تتزوج واحداً مسلماً ..

ـ وهى قالت ذلك .. كيف .. وما الذى جعلها تقول لك ذلك . لا تجلس معها بعد اليوم‼ قليلة الأدب ؟

إن أمى كانت تمتدح أدبها ورقتها وجمالها .. وفجأة أصبحت كالعقرب يجب ألا أكلمها وألا أذكراسمها ..

وفى يوم قالت لى · يا ابنى اسأل عن فكتوريا .. انت عارف إنها طيبة ومؤدبة وتحبك اسأل عليها وقل لها ماما سوف تجىء لزيارتك اليوم !.

وقبل أن أتساءل وأستوضح عن هذا التغيير ـ وإن كنت أحب أن أراها وأن أجلس إليها .. قالت لى أمى ويمكن تلاقى هناك خطيبها إنه شاب جميل وغنى جداً .. وسوف

يتزوجان قريباً ..

حتى صديقى عزيز الذى كان يجىء إلى البيت وتدعوه أمى إلى أن يبقى وأن يبيت عندنا لكى نتحدث ونتسلى .. هو الآخر حذرتنى أمى منه هكذا :

ـ انت تعرف انني أحبك .

ـ نعم .

ـ وأنا ليس لى فى الدنيا غيرك .

ـ نعم .

ـ وأنا أعرف أكثر منك ..

ـ نعم ..

ـ وكل حاجة قلت لك عليها إنها غلط .. ثبت بعد ذلك انها غلط .

ـ صحيح .

ـ وأنا لما قلت لك إن عزيز طيب وابن حلال ومؤدب . وزى البنت فى كلامه وقعوده .. وقلت لك إنه أحسن من كل زملائك ..

ـ نعم .

ـ لكن عزيز يا ابنى لانه مدلل غنى جداً .. لا أعرف من الذى علمه السجائر .. هناك اناس كثيرون رأوه وهو يدخن .. بل إنه يذهب إلى المقاهى .. وهناك اناس يقسمون بالله العظيم إنهم وجدوه فى السينما مع تلميذة .. ولما رآه أقاربه هرب من السينما .. وفى مرة من المرات جاء أقارب التلميذة وضربوها علقة .. وطاردوا عزيز .. وضربوه على دماغه .. حتى سال دمه .. أنا يا حبيبى أريدك أن تبعد عن عزيز .

ـ حاضر يا ماما .. يعنى أعمل إيه .. لا أكلمه ؟.

ـ نعم .

ـ ولا كلمة ؟

ـ يعنى إذا قال لك : إزيك قل له : كويس ..

ـ وإذا حاول أن يسألنى عنك ؟

ـ قل له كويسة .

ـ وإذا قال لماذا لا أكلمه ولماذا لا أحب أن أمشى معه فى طريقنا إلى المدرسة أو إلى البيت فماذا أقول له ..

ـ قل له إنك مستعجل ..

ـ وإذا أصر انه يمشى معى ؟

ـ اتركه وامش لوحدك .

ولكن أمى تعود فتقول لى : يعنى تكلم معه ولكن ليس كثيراً . وإذا قال لك إنه سوف يذهب إلى المقهى وانه يدعوك إلى هناك فارفض تماماً .. إلا المقهى يا ولدى !.

ولا أذكر أن أمى طلبت منى فى يوم من الأيام أن أتوضأ أو أصلى ولا حتى أن أصوم.. فقد كانت تندهش كيف اننى حريص على الصلاة وعلى الصوم .. إنها تخشى أن أكون مثل عمى الذى هو أستاذ فى الأزهر .. أو أن أكون شيخاً فى مسجد .. إن فى رأسها صورة لمستقبلى .. هذه الصورة تعلقها فى خيالها على قصور وعلى حدائق وكأنها تحمل هذه الصورة فى يديها ليلاً ونهاراً .. وتنظر إليها ثم تنظر إلىّ .. وكلما وجدتنى أبعد عن هذه الصورة ، فإنها تنزعج .. وكأن هذه الصورة فى برواز ثمين جداً ولها غطاء زجاجى تخاف أن ينكسر ..

ولم أجد أمى تشجعنى على قراءة الكتب .. فقط الكتب المدرسية ..

وتخاف من اهتمامى بالشعر .. الذى ترى انه السبب الحقيقى فى أن والدى يضيع وقته مع الناس يحكى لهم ويلتفون حوله .. ثم إنه رغم إنه محبوب من كل الناس ليس أغنى الناس .. فالشعر والأدب والكتب لا فائدة منها وهى سبب الفقر .. بل الناس جميعاً هم سبب الفقر .. والبعد عن الناس هو المكسب الحقيقى !.

وفى كل مرة يجىء عمى إلى البيت وهو رجل لطيف رقيق .. كلامه حلو .. وتمنياته سخيه .. وهو يرى اننى سوف أكون شيئاً هاماً إننى مستقيم ولأنى جاد وأحب القراءة.. فى كل مرة يجىء فإن والدتى تخترع شيئاً يبعدنى عن البيت .. حتى لا أجلس إليه .. وحتى لا أسمع إلى ما يقول وحتى لا يقنعنى بأن أكون شيخاً أزهرياً .. وفى إحدى المرات

جاء عمى فوجدنى نائماً فى الفراش . هو جاء مبكراً .. دق بابنا بعد صلاة الفجر لانه كان على سفر .. وسمعته يقول لوالدتى . أين هو ؟

ـ نائم ..

ودار همس وكلام بين والـدى ووالدتى .. وإذا بها تجيء وتهمـس فى أذنى . تظـاهر بالمرض .. لا تترك الفراش .. إياك !.

وظللت فى الفراش .. وجاء عمى ليسـأل عن صحتى . وكـانت أمى هى التى تقول إننى غير قادر على الكلام فعنـدى التهاب حاد فى حلقى .. والدكـاترة منعونى مـن النزول من السرير والكلام والذهاب إلى المدرسة .. وإننى لم أنم طول الليل .. وكنت على وشك النوم.

ومعنى ذلك إنه مـن الواجب أن يتركنى لكى أنام .. ويخرج فوراً مـن الغرفة .. وخرج الرجل وهو لا يعرف الحقيقة !.

ومن أهم الأحداث التى أفزعت حياتـى كلها .. وجعلت أمى تلزم الفراش بلا طعام ولا دواء فقد جاء بمحض الصدفة ، وعن غير قصد منى .. ولم أتنبه إلى معنى ما حدث .. ولا أمـى قالـت لى شيئا . ولانها أرسلـت خطابـاً لـوالدى لأول مـرة .. وتطلب إليـه ضرورة الحضـور فـوراً . وأن يترك كـل شـيء ليرى مـاذا حـدث لى ومـاذا سـوف يحدث لى فى المستقبل.

ولم أكن أتصور أن أمى لديها هذه المقدرة الفائقة على استدعاء الناس وحشدهم معها فى صف واحـد .. فقد جاءت جدتـى .. وجاءت خالتـى وخالى .. وجاء أحد أقـاربها وكان وكيلاً للوزارة . وجاء ابن خالتها وكان ناظـراً للمدرسة .. وجاء طبيب كان يعالجها وهو من أقاربها أيضاً ..

ثم جاء والدى فى حالة من الفزع ..

أما الفزع الأكبر فهو الذى أصـابنى فـأمى مرضت فجأة . وهى تنظـر لى فى حـالة من الخوف .. كأننى سوف أمـوت حالاً .. أو كأننى ميت .. فهى تقترب منـى وتضع يدها على وجهى .. وعلى رقبتى ولا تقول شيئاً وتبكى ..

وكل واحد يدخـل البيت الذى ضاق عن كل الناس يتعمـد أن يقترب منى ويبتسم ثم

يضع يده على رأسى ولا يقول شيئاً...

وأمام الجميع طلبت منى أمى أن أقول لهم ماذا حدث . وكيف حدث ،

وكان والدى هو أول من تكلم .

ـ ماذا حدث ؟ يا ولدى .

ـ لا شىء .. إنهم قالوا لى تعالى معنا .. وذهبت معهم .

أمى تصرخ . كم مرة ؟

ـ كثيراً جداً ..

ـ ولم يقل لى .. تصور لم يقل لى ولا مرة واحدة ..

ـ وماذا حدث يا ولدى ؟

ـ لا شىء .. إنهم اناس كثيرون رجال ونساء .

ـ وأنت كنت تصلى مثلهم .

ـ لا .

ـ ماذا كنت تفعل ؟

ـ فقط أجلس فى آخر الصف وأتفرج فقط ..

ـ ولا أحد طلب إليك أن تصلى فى الكنيسة .

ـ لا .

ـ إذن لماذا كنت تذهب معهم ؟

ـ إنهم أصحابى .. وبدلاً من أن اقف أمام الكنيسة فإننى أدخل وأجلس فى آخر صف فى انتظارهم .

ـ لم يطلب إليك أحد أن تصلى مثلهم .

ـ أبداً ..

ـ ومنذ متى وأنت تذهب إلى كنيسة المسيحيين ..

ـ من زمان ..

ـ ولماذا لم تقل لماما ؟

ـ نسيت .

وخرجت والدتي وهي تقول : هناك ما هو أفظع .. قل له .. قل له .

سألني والدي : ماذا فعلت ؟

ـ لم أفعل شيئاً

والدتي تقول . إنه ذهب إلى كنيسة اليهود .. يا مصيبتي .. يا مصيبتي !

والدي يسألني : وذهبت إلى كنيسة اليهود ؟

ـ نعم .

ـ وهناك ماذا فعلت ؟

ـ وقفت في آخر الكنيسة وتفرجت عليهم وهم يصلون .

ـ ولم يطلب إليك أحد أن تصلي مثلهم ؟

ـ لا .

ـ لا أحد ..

ـ ومنذ متى ؟

ـ من زمان .

ـ ولم تقل لماما ؟

ـ لا ..

ـ ولكن أنت متأكد أن أحداً من رجال الدين قد تكلم معك .. أو قدم لك هدية .. أو أعطاك كتباً ..

ـ نعم أعطوني بعض الكتب .. بلغة لا أعرفها ..

أمي : وهذه الكتب موجودة هنا في البيت .. أرمها في الشارع !.

ـ ارمي الكتب ؟

ـ نعم .. وتحرقها أيضاً . قبل أن تحرق البيت !

وأمي تبكي وتنظر إلى كل الحاضرين · قالوا لي اعمل إيه كيف أعيش بعد اليوم ..

والولد اللي حيلتي عاوزين يكفروه .. عاوزين يغيروا دينه ..

ويحاول والدى أن يقنعها أو يفهمها . ولكن أمى لا تريد أن تقتنع . . ووجدتنى خارج الغرفة .. خارج البيت . وأخذنى خالى من يدى .. وذهبنا إلى المطاعم وراح يحكى لى حكايات ويسألنى : ألم تكذب على بابا وماما ؟

ـ أنا لا أكذب .

ـ إذا كان فيه حاجة قل لى أنا ..

ـ لا شىء !.

ـ انت عارف ان ماما خايفة يكون النصارى واليهود قد غيروا دينك . انت تعرف شوقى سليمان .. فقد اقنعوه بأن يترك دينه .. فما كان من أهله إلا أن قتلوه ..

ـ شوقى قتلوه ؟

ـ نعم .

ـ شوقى سليمان قتلوه ..؟

ـ نعم .

ـ أبداً . شوقى لم يقتلوه إنه حى .. لقد رأيته بالأمس فى المكتبة .. وتحدثت إليه .. لقد أدخلوه الأزهر ..

ـ ولكن ماما تقول إنهم قتلوه ..

ـ أبداً .. إنه لم يغير دينه .. لا أحد قد غير دينه . لقد رأيته وقد ارتدى الجبة والقفطان وشكله ظريف .. وأصبح إنساناً مختلفاً تماماً ..

ـ إياك أن تذكر لوالدتك شيئاً من ذلك .. إنها تقصد أنهم قتلوه .. يمكن لأنها لا تريدك أن تراه فهى تخاف أن تذهب إلى الأزهر .. ولذلك فهى تؤكد انه مات .. أو يجب أن يموت.. أنا أصدق كل كلمة أنت تقولها .. وأنا أعرف انك لا تكذب .. هل طلب منك أحدا أن تغير دينك ؟

ـ أبداً ..

ـ أبداً؟

ـ أبداً

ـ خلاص .. أنا مصدقك . وأنا سوف أتولى إقناع والدتك هيا بنا ..

وبهذه الحادثة دخلت فى دوامة .. دوخة .. استمرت سنوات ولا أعرف كيف أخرج منها .. وأصبح موقف أمى صعباً جداً .. فالناس الذين أحبهم تريدنى أن أبعد عنهم .. ولكن الناس لا يبعدون . إنهم لا يفهمون . وكلما حاولوا أن يعودوا إلينا ، ازداد شكها وخوفها وفزعها .

ولكن أمى استراحت عندما جاءتها مدام بركات تقول لها : فى الدين اليهودى .. لابد أن يكون الأب والأم يهوديين .. إن أحداً لا يدخل ديننا .. ونحن لا نحب أى واحد من الأديان الأخرى يدخل ديننا .. فديننا لنا نحن فقط !.

وبسرعة أشرق وجه أمى فقد كانت تصدق مدام بركات .. وأيقنت أن مدام بركات وابنها وغيرها من اليهود لا يحاولون أن يدخلوا أحدًا دينهم ! .

وفى عيد ميلادى الذى أصرت الست أم جورج على إحيائه فى بيتنا ولأول مرة .. فقد أصر أولادها جميعًا على ذلك .. على إصلاح ما بيننا .. أو ظنًا منهم اننى أتمنى أن يكون لى عيد ميلاد .. ولكنى لا أستطيع .. أو أن أمى لا تريد ذلك . لأن والدى ليس هناك .. أو لأى سبب آخر لا أعرفه ..

وكان كل شيء جديداً .. التورتة .. وبعض السندوتشات الصغيرة .. والشموع والترابيزة والوقوف حولها .. وكلمات " هابى برثداى .. كل ذلك لم أره من قبل ..

وأعجب من كل ذلك .. ان الجميع جاءوا وقبلونى .. ولم أعرف ما الذى أفعله ردا على ذلك .. حتى البنات . وأحمر وجهى .. وجاء العرق من كل مكان .. وراح قلبى يدق .. يكاد يخرج من ضلوعى .. ودارت الأرض بى .. واعتقد اننى غرقت فى ضباب .. واعتقد اننى تساندت على الست أم جورج فقبلتنى مرة أخرى .. ودخت .. ودارت الأرض من اليمين إلى الشمال ثم عادت تدور من فوق إلى تحت .. الأرض والسقف ..

كم مضى من الوقت كى أفيق .. لا أعرف ..

ولكنى وجدتنى جالساً . وفى يدى طبق وشوكة وسكينة . وسمعت .. وكان الصوت مثل الضباب غامضاً .. وكان الصوت مرتجفاً .. كأنه صوت لواحد فوق السطوح ينادى واحداً فى الشارع .. أو كأن اثنين يطلان من نافذتين .. وكل واحد يزعق بأعلى صوته

يحاول أن يكون واضحاً .. ولكن أحدهما يقول للآخر : مش سامع .. وواحد ثان يقول له: قطعت نفسي . إن شاء الله ما سمعت ..

كم مضى من الوقت لينقشع الضباب .. وتظهر الصور واضحة .. والوجوه .. والابتسامات والملابس .. وسمعت الست أم أم جورج تقول لى : الولد ضعيف جداً ياست أم صلاح (والدتى) يظهر انه يذاكر كثيراً ويأكل قليلاً ..

ويبدو أن هناك حكاية كانت ترويها الست أم جورج لوالدتى .. ولم تكملها .. ثم قالت لها : دايماً الشخص الذى يغير دينه يكون قليل الذمة . ونحن لا نحترم من يغير دينه .. المسلم إذا غير دينه .. والمسيحى إذا غير دينه .. وننظر إليه باحتقار .. لأن الذى يغير دينه يغير ذمته .. ويكذب ويخون ولا أمان له ..

كانت هذه الكلمات وحدها إفراجًا عامًا .. فقد سعدت أمى بها تمامًا .. فلا أحد دعانى أو أقنعنى أو حاول أن يغير دينى ..

وكان ذلك اليوم عيد ميلاد حقيقياً لى وللعلاقة الجديدة بينى وبين أمى ..

وكان من عاداتها بعد ذلك أن تقول : أنا متأكدة انك لاتكذب .. وانك لم تكذب فى كل الذى قلته عن ذهابك للكنيسة مع أصحابك .. أنا متأكدة .. طول عمرك ياولدى لم تكذب.. ولن تكذب .

ـ حاضر ياماما ..

ـ ربنا يفتح عليك ياولدى .. وربنا يكرمك .. ويكرمنى بك ..

ولم تكن صدمة كبيرة لوالدتى عندما وجدت قسيسا يدق الباب يسأل عن صحتى .. ولم تعرف أمى ما الذى يمكن أن تفعله .. هل تكلمه من وراء الباب .. هل تدعوه إلى الدخول ..

ولكنه أدرك ذلك بسرعة فقال لها : إنما أردت أن أطمئن عليه .. فهو منذ فترة طويلة لم يتردد على المدرسة ليكمل دراسته للغة الإيطالية ..

إننى أدرس اللغة الإيطالية والألمانية واليونانية والعبرية .. وكل الذين يعلموننا هذه اللغات من رجال الدين . وهم اناس طيبون وفى غاية الصفاء والنقاء ..

وقالت أمى : إننى أصدقك ياولدى .. ربنا يفتح عليك .. ويثبت إيمانك ويحميك بدينك وفى القرآن الذى حفظته .. إننى أصدقك ياولدى ..

٣٨

اندهش جدًا عندما يقول زملائى . بيتنا .. شارعنا .. بلدنا ..

وألاحظ أننى أقول دائماً : فى البيت .. فى الشارع .. هنا فى هذا البلد ..

واندهش وأتعجب عندما أسمع الواحد منهم يقول : سريرى .. كتبى .. أفكارى .. حمامى .. مصروفى .. مستقبلى ..

وأنا أقول . السرير .. الكتب .. الحمام ..

ولا أعرف معنى المصروف ولا أى معنى للمستقبل ..

ولا أفهم لماذا يندفع بعض الشبان يهاجمون شبابًا آخرين لأنهم يعاكسون فتاة . يصفونها بأنها من شارعنا .. أو بنت الحتة .. فقط لأنها من الشارع الذى يسكنون فيه .. أو هى تسكن فى نفس البيت أو البيت المجاور له ..

فعندى هذا الإحساس : أننى لا أملك شيئًا .. وأنه لا يوجد لى شىء خاص ..

فلأننا ننتقل من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد .. فإننى لم أستطع أن أصف مكانًا بأنه مكانى .. أو بلدى .. أو بيتى .. أو جارى .. أو أهلى . أو عائلتى ..

ولا قلت ما يقوله زملائى : فلان أوحشنى فذهبت إليه .. أو فلان من مدة لم نره فلابد أن نسأل عنه .. أو أنه مريض يجب أن نحمل له هدية .. أو باقة ورد ..

أو أسمع أحدًا يقول : كيف تحتفلون ولا تدعوننا ..

أو من يقول . كيف تذهب بالقميص والبنطلون .. وكيف تكون الكرافتة قاتمة وأنت تعرف انهم فى حالة حداد ..

فما هذا الـذى يقولون .. ومـا هذه العـلاقات بين الناس .. أو بين النـاس والأشياء .. الأكل والشرب والسرير والحمام والشارع ..

لقد استمعت إلى الست أم جورج وهى تقول لـوالدتى : بعد أن أخذت حمامى وشربت قهوتى ..

ما معنى حمامها وما معنى قهوتها ..

وفى إحدى المرات عندما زرت الست أم جورج ووجدتها تشرب القهوة سألتها : وهذه قهوتك ..

فأجابت : نعم .. إنها لرابع مرة ..

ـ وهل هى من نفس البن الذى تقدمينه للضيوف .

ـ طبعًا .. أحسن بن .. الله يضحكك .. وهل أقدم للضيوف غير الذى أشربه أنا ..

لم أفهم معنى أن تكون لها قهوة خاصة .

ولكنه تأكيد لكل ما هو شـخصى ..

تأكيد للامتلاك .. وتأكيد للذات ..

وعندما سمعـت من أحد زملائى أنه عادة يـدخل غرفة والده ويختـار أحسن قميص وأحسن جورب وأحسن منـديل .. أى أنه يرتدى قمصان والده وجـواربه .. ووالده يعلم ذلك .. ووالدته أيضاً .. ولكن أحداً لا يضربه .. أو يحرمه من الطعام أو يحبسه فى البيت .. أو يعاقبه بعدم الذهاب إلى المدرسة أو يقطع عنه المصروف ..

وقد ذهبت هذه المعـانى الغريبة إلى جوانب شتى من نفســى .. واستقرت أو حاولت.. ولكن لا شىء من ذلك يمكن أن أفعله أو أقلده ..

مرة واحدة .. ذهبت إلى المدرسة وقد وضعت فى قدمى حذاء لواحد من إخوتى الكبار .. وكان الحذاء كبيراً جدًا .. ولفت نظر زملائى فى المدرسة .. وكانوا يتضاحكون سرًا وعلنًا .. ولاحظت فعلاً أن قدمـى لا تستقر فى الحذاء .. وأننى لا أعرف كيف أمشى.. وهـم الذين نبهونى إلى ذلك !.

ولاحظت أنى قد كتبت اسمى على كل الكتب التـى فى البيت .. كل الكتب .. ولكن عندما

أشير إلى هذه الكتب فأنني أقول الكتب.. الكتب التي في البيت .. ولا أقول كتبي التي في بيتنا .. أو في بيتي ..

فكأنني قد وضعت اسمي عليها تأكيداً سريًا لملكيتها .. تأكيدًا سريـًا لي أنا .. وأنني فعلت ذلك لا شعوريًا ..

ولاحظت أن الكتب التي استعيرها من زملائي ومن المكتبة العامة لبضعة أيام ، فإنني أكتب اسمي عليها ؟!.

ونبهني أحد إلى أن خطي جميل .. وكنت أكتب بالنسخ .. وكان والدي يكتب بالخط الفارسي البديع .. وكان ذلك اكتشافاً . فكنت استخدم القلم الرصاص .. وبعد ذلك استخدم الموس في تفريغ الخطوط على الورق .. ثم وضع الورق المفضض تحت الخط .. وكنت أتطوع بإعطاء هذه اللافتات لمحلات البقالة .. أكتب اسم المحل واسم صاحبه..

ثم اخترعت لنفسي شيئاً جديدًا ..

كنت أكتب اسمي على الورق الكرتون .. وأفرغه .. ثم آخذ الكرتون بعد ذلك .. وأضعه على الحائط أو على الباب .. وأملأ الفراغ بالبوية .. وكان اسمي مكتوباً على الجدران والأبواب لماذا ؟ لا سبب ..

ويبدو إنني وجدت عذرًا لكتابة هذا الاسم فكنت أكتب اللافتات على الشوارع هكذا : اطلبوا صلاح الخطاط .

أي إنني خطاط ومطلوب من الناس أن يجيئوا لكي أ كتب لهم هذه اللافتات ..

وفي يوم زارنا أحد أقاربنا ووجد لافتة كبيرة على باب البيت وسأل . من صلاح الخطاط ..

فقيل له : إنه أنا ..

ـ وهل أنت خطاط ؟

ـ لا .

ـ إذن ؟

ـ إنني أكتب اسمي والسلام .

فضحك الرجل ولم يقل شيئاً . وكان ذلك الصمت معناه أن الذى أعمله لا معنى له . فلا أنا خطاط ولا أعرف ما الذى يمكن عمله إذا جاءنى أحد يطلب لافتة من القماش أو من الخشب على الدكان أو عربة فول أو ترمس ..

ولكن المعنى هو اننى أعلن عن نفسى وعن امتيازى عن الآخرين .. واننى لم أكن أملك شيئاً ، فأملك اسمى بهذه الصورة الجميلة .. وحتى لا يكون اسمى لا مبرر لوجوده على الجدران ، فقد توهمت اننى خطاط محترف .. واننى أدعو الناس لأن يستفيدوا من خدماتى ..

ولا شعوريًا أصبح خطى رديئًا جدًا .. سريعًا ملتويًا منكسرًا ومن الصعب قراءته.. وأحيانًا لا أعرف كيف اقرأ خطى ! .

ولم أفهم ما الذى كان يقصده مدرس اللغة العربية الشيخ الدخميس وكان معمماً طويلاً عريضاً وبكرش عندما قال لى : العظمة لله ياصاحب الجلالة .. انت فاكر نفسك إيه.. اقعد .. اترزع ! .

وتضاحك زملائى فى الفصل ..

فقد لاحظ المدرس أن قلمى تدحرج من تحت المكتب إلى بعيد .. وسأل : قلم من هذا فقلت : إنه قلمنا .

ـ قلمنا ؟ ماذا تقصد ؟

فقلت : قلمنا .

ـ لا أفهم .. هل هو قلمك ؟

ـ نعم .

ـ ولماذا لا تقول : قلمى .. سبحان الله .. ما هذه العظمة .. فاكر نفسك ملكاً .. قلمنا؟! وهذه كراستنا !.

ونظر إلى الطلبة فقالوا له : إنه عادة يقول ذلك ..

ثم التفت ناحيتى وقال : قل قلمى .. كراستى .. جزمتى .. بدلتى ..

ووقفت أقول وراءه : قلمى .. كراستى .. جزمتى .. بدلتى ..

ـ ابن من أنت ؟

ـ ابن عم محمد منصور ؟

ـ نعم ؟.

ـ ولماذا تقول ابن عم محمد منصور ؟

ـ الناس هكذا ينادون والدى ..

ـ انت أمرك غريب .. أمرك غريب يابنى !.

والتلامذة يضحكون ..

ثم التفت وقال لى . قل لوالدك إننى أريد أن أراه .. غداً .

قلت : غداً ؟ إنه ليس هنا .

ـ إذن بعد غد .

ـ ولا بعد غد ..

ـ مات ؟

وبكيت ولم أرد .. وضحك التلامذة . ولا أعرف كيف انتهت الحصة .. ولكن وجدت نفسى وحدى .. وقد خرج التلامذة من الفصل ومن المدرسة ..

وجاء الساعى ينظف الفصل فوجدنى نائماً ، وأيقظنى وهو يقول : يابنى انت لا تنام فى بيتكم .. مالك ؟ مريض ؟

وكان التلامذة قد انصرفوا من حوالى الساعة ..

ولم تلاحظ أمى اننى تأخرت .. ووجدت والدى فى البيت . ولم أكد أراه حتى عدت إلى البكاء . وظن والدى أن بكائى من شدة التأثر عندما رأيته .. وكان قد غاب فترة أطول .. واحتضننى وهو يقول : انت رجل .. والرجال لا يبكون .. ولا يخافون .. لا يخافون انت رايتنى كيف أقتل الذئب وأمسك الثعبان .. وأمشى فى الظلام وحدى .. وأنت رجل ! لقد أتيت لك بعدد كبير من الكتب .. وكلها سوف تقرؤها لأنها سهلة وجميلة .. أنا قرأتها كلها.. أتيت لك بكتاب (أدب الدنيا والدين) و (مقامات الحريرى) .. وديوان (البهاء زهير) وبعض أجزاء من (الأغانى) وبعض كتب الجاحظ وروايات الجيب وقصص

بوليسية التى تقول إنـك تحبها .. وعدد من أقلام الرصاص والكراريـس لكى تكتب فيها مذكـراتك . وبمناسبة المذكـرات التى تكتبها .. أنـا قرأت بعضـها .. حاول أن تكتـب عن الناس .. عن غيرك .. لا تكتب طول الوقت عن نفسك .. وعن الذى تحس به أنت مع نفسك .. ولكن مـع غيرك من الناس .. وإذا كتبـت عن النـاس لا تكتب وأنت زعـلان منهم .. أو خائف منهم .. أكتب عن الصداقة وعن الحب الذى تكنه لهم ..

ثم سكت لحظة وقال لى : قل لى من الذى تحبه أكثر من أصدقائك ؟

وسكت . ثم عاد يسألنى . أى واحد منهم تفضله على الآخرين ..

وسكت ولم أجد ما أقوله . فلم أفكر لحظة واحدة أن لى صديقاً أو أن واحداً منهم أحبه أكثر من الآخرين ..

فقلت له : أختى ..

وضحك والدى . ثم عاد يسألنى . طبعاً لابد أن تحب أختك .. وأن تحب إخوتك أيضـاً.. ولكن أسألك عن الصديق .. أنت لك أصدقاء كثيرون تخرج معهم وتتكلمون وتزورهم فى بيوتهم ويزورونك .. لابد أن واحداً منهم أقـرب إلى قلبك ,.. واحد تحب أن تراه كل يوم .. وإذا غاب عنك ذهبت إليه . وإذا مرض سألت عنه .. هل انت تحبهم جميعاً ؟

وسكت . ولم أقل شيئاً ..

وضحك والدى : فهمت انت تحبهم جميعاً . لا تستطيع أن تفرق بين هذا وذاك .. الله يبارك فيك يـاولدى .. فاعظم شىء فى الدنيا أن يكون للإنسان أصـدقاء كثيرون .. هذا تزوره وهذا يزورك . وهذا تستريح إلى الجلوس معه .. وهذا تقرأ معه .. إن الأصدقاء أهم من الأشقاء .. وسوف تعرف عندما تكبر ياولدى ؟

ولكن الحقيقة غير ذلك . فأنا لا أعرف لى صديقاً . إننى أشعر بالخوف من الأصدقاء ، فلا أكاد أرتبط بواحد .. حتى انفصل عنه بالسفر إلى بلد آخر .. فكأننى دون شعور منى، لا أحرص على أن ارتبط بأحد ، حتى لا أتضايق عندمـا أبعد عنه .. ولذلك فكل الأصدقاء زملاء .. وأسماؤهم وصفاتهم كلها لا تعلق فى رأسـى .. ولا أحب .. وإذا أحببت فاننى لا أستطيع .. وإذا مرض أحـد فإننى لا أذهب إليـه إلا إذا طلبت أمى ذلك .. ولـو جاء واحد

منهم لزيارتي فإنني أندهش لذلك .. ولا أفهم لماذا يحرص الناس على هذه العلاقة .. ولماذا يتصور الواحد منهم انني سوف أغضب إذا لم يات . أو سوف أفرح إذا جاء ..

ولا أعرف الفرق بين الأخ الشقيق والأخ غير الشقيق وبين الصديق والزميل والجار والقريب .. وأبناء البيت الواحد والشارع الواحد والمدينة الواحدة . ما هذه المعاني ؟

وقد كان أقاربي يضحكون عندما كانت أمي تحكي لهم انني في يوم من الأيام عندما كنت صغيراً سألتها . لماذا لا أتزوج أختي ؟

ولم أفهم معنى ذلك .. وإنما كانوا يضحكون وأنا أندهش لذلك .. وليس عندهم ما يقولونه . ولكن والدي هو الذي تلا من القرآن آيات تحرم زواج الأخت والخالة والعمة ويحرم زواجي من بنت أخي ومن بنت أختي ومن أمي طبعاً . وهذا هو الذي حرمه الله . انتهى الموضوع . وأغلق الباب تمامًا وتحول حبي لأختي إلى معنى مختلف .. كيمياء وتفاعلات غريبة وعميقة وفورية في أعماقي وضعت أختي في مكانها الطبيعي المعقول دون أن أدري كيف حدث ذلك ..

أعجب شيء حدث هزني وبهرني وأذهلني في ذلك الوقت عندما مرض والدي . لم أره مريضاً . ولكن وجدته ممدًا في السرير . شاحب الوجه ، يتصبب عرقاً . وكان والدي يؤكد لي كلما رآني . إنه من الطبيعي أن يمرض الإنسان .. وأن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مرض . ومات وهو مريض . وكما لابد أن يمرض الإنسان لابد أن يموت أيضا .. ولما رأى أبي الفزع على وجهي قال . إن هذا المرض لن يجعلني أموت .. إنها وعكة سوف تذهب إن شاء الله !

وقررت ألا أذهب إلى المدرسة . ولكي يثبت لي إنه في صحة جيدة .. نهض من الفراش وأعد لنا الشاي .. وعلق صوراً على الحائط .. ونقل المائدة من مكانها . والمائدة من الخشب الغليظ .. كل ذلك ليؤكد انه قوي وانه لا خوف عليه ..

وعندما فتحت الباب وجدت مدام بركات تحمل باقة من الورد .. ومن ورائها ابنتها يحمل علبة بها حلويات ومن ورائهما الخادمة تحمل طعامًا .. عرفت فيما بعد انها دجاجة مسلوقة وأرز وسبانخ وبرتقالاً . كل ذلك لوالدي لأنه مريض .

ونهض والـدى لتحيتها وشكـرها وكـذلك والـدتى . وحـاول إقناعهـا بأن تتفضـل بالجلوس معنا . ولكنها اعتذرت . وطلبت منى أن أجىء إلى الغذاء عندها وأن ابنها سامى فى انتظارى . وحذرتنى أن أنسى ..

وبدأ الحزن الشديد على وجهى فسألت أمى . كم ثمن كل ذلك ؟

قالت . مجاناً ..

قلت · مجانًا .. يعنى لن تدفعى ثمناً لذلك .

ـ لن ندفع .

ـ ولكن لماذا ياماما ؟

ـ لأن بابا مريض .. وهذه عادة عند الخواجات .

ـ يعنى إذا مرضت هى فسوف نشترى لها ورداً وفراخاً وحلويات .

ـ نعم .

ـ يارب لا يجعلها تمرض أبداً !.

وضـحك والدى ووالدتى ..

وكلما جاء ضيف حكوا له هذه النكتة !.

وفى المدرسة حكيت ما حـدث فى بيتنا . وفوجئت بأن هذا الـذى حدث لنا ، يحدث عند اناس كثيرين .. وأن هذا ليس غريباً ولا شيئاً كبيراً . وأحد الطلبة قال لى إنه عندما مرض اشترت لـه والدتـه جزمـة جـديدة .. ومـرة بنطلونـاً ومـرة أعطوه فلـوساً ليضـعهـا فى (الحصـالة).. ومرة اشتروا له ساعة .. وزجاجة كولونيا ..

وفى ذلك اليـوم دق الباب وجـاءت سيدة تبكـى ، لم أرهـا قبـل ذلك . وطلبـت أن ترى والدى فوراً . وتعالى صـوتها وبكاؤها أيضاً . ووجدت والدى قد قفـز من السرير ليلتقى بها ..

قالت السيدة : هل يرضيك ؟ هل هذا يرضى ربنا ؟

ثم حكت كيف كان جارها قد قطع الشجـرة الموجودة أمام بيتها .. وقالت كلاماً كثيراً لم أفهمه .. ولكن معناه انها أرملة . وأنها وحدهـا . وأن أطفالها صغار .. وأن الناس كان

من الواجب أن يقفوا معها .. وأن يعوضوها عن زوجها الذى كان محبوباً من الجميع وصاحب فضل عليهم كلهم .. ولكنهم استضعفوها . وقطعوا شجرتها .. وأن أولادها الصغار الذين كانوا يلعبون تحت الشجرة وينامون فى ظلها يبكون .

ووجدت والدى متأثراً جداً . ودخل وارتدى البدلة . وخرج مع هذه السيدة . ووجدتنى وراءه لكى أرى هذه الشجرة التى يملكها الأطفال وأمهم .. وذهب والدى إلى الرجل الذى قطع الشجرة . وما كان من الرجل إلا أن اعترف له بأن أولادها قد صعدوا الشجرة التى أمام بيته .. وتعلقوا من أحد أغصانها . . وسقط بهم الغصن وانكسر . وأنه قد نهاهم عن ذلك كثيراً . ولكن أم هؤلاء الأطفال لم تحذرهم .. فانتقم هو بقطع شجرتها.. وكانت الشجرة صغيرة . ولكنها استحالت إلى جثة على الأرض . وأطفالها الصغار يبكون .. فعلاً وجدتهم يبكون ..

وتذكرت اننى شاركت عمال الرى والترع فى إزالة عدد من الأشجار أمام البيت الذى كنا نعيش فيه .. دون أن أشعر لحظة واحدة أن هناك أية علاقة بينى وبين هذه الأشجار.. ولا قلت إنها أشجارنا .. أو أشجار أمام بيتنا .. أو فى طريقنا فى شارعنا . لقد رأوا إزالتها .. ورأيت أن أشغل وقتى مثل كل الأطفال ، فاشتركنا فى إزالتها .

وتذكرت أيضاً إننا كنا فى زيارة لبيت جدى ، ان دخل كلب كبير .. واتجه مباشرة إلى حلل كبيرة قد وضعوا فيها اللحم .. ودخل ثان وثالث .. وكل واحد حمل جانباً كبيراً من اللحم . ونبهتنى والدتى إلى ذلك . ولكنى لم أتحرك . وقالت : انت إيه .. ألا ترى الكلاب تأكل اللحم .. إنه اللحم الذى أعدته جدتك ليوم العيد ..

ووجدت كل الذى تقوله والدتى بلا معنى جدتى .. لحم جدتى .. العيد . منع الكلاب من أخذ اللحم .

وغضبت والدتى .. وكان غضب جدتى أعنف .. فقد انهالت علىّ ضرباً .. ولم أسألها لماذا فعلت ذلك .. وإنما وقفت كأننى أتفرج على واحد غيرى .. وكنت أنظر إلى وجه جدتى وأقارن بين وجهها وبعض الحيوانات .. ولا أعرف من أين أتيت بهذه العادة أو كيف اكتسبتها..

وقد أعطانى والدى درساً طويلاً وكانت لهجته تتراوح بين اللين والشدة . وذلك عندما طلب منى أن أشترى بعض الفاكهة من السوق . فاعترضنى شحاذ . وطلب منى شيئاً من الذى أحمله ، فأعطيته كل ما معى . وعدت إلى البيت لأقول : قابلنى رجل غلبان . فأعطيته الفاكهة !.

ـ كل الفاكهة ؟

ـ نعم ..

وقال لى والدى . نفرض أن هذه الفاكهة لم تكن لنا .. كانت لاناس آخرين . فما الذى تفعله أو تقوله لهم .. فى هذه الحالة لابد أن تدفع لهم ثمن الفاكهة .. ومن الممكن ألا يصدقوك .. ويتهموك بأنك أخذت الفلوس .. وبدلاً من أن تكون الولد الطيب الأمين ، تصبح الولد الكذاب النصاب .. ولنفرض أن شحاذاً عريانا طلب إليك جلبابك فهل تخلعه وتعطيه له .. هل لو طلب حذاءك .. هل لو طلب كتبك .. هل لو طلب منك أن تسرق له . فهل تفعل .. ثم إن هناك بعض الشحاذين الأغنياء . وكثير منهم نصاب كذاب .. ألم تسمع عن الشحاذة العجوز التى وجدوا عندها بلاصاً قد امتلأ بالفلوس.. ومع ذلك لم تكف عن التسول .. لأن التسول عادة وجمع الفلوس عادة .. ولكن إنفاق الفلوس ليس عادة .. هل لو قال لك شحاذ إنه يريد أن يضربك على قفاك .. هل لو قال لك ذلك وهو يبكى .. أو كذب عليك وقال إنه رأى فى المنام انه يضربك .. وأن الذى أوصاه بذلك أحد الأولياء أو الملائكة .. وأن فى ذلك شفاء ليده وشفاء لعنقك هل تقبل؟ ألا ترى أن هذا الشحاذ قد خدعك .. قد رآك ساذجاً .. إن هذه إهانة لك .. ولعقلك ولكل الكتب إلى قرأت والشعر الذى حفظت ..

وجاءت أمى تسأله : ماذا فعلت ؟ هل ضربته : هل أدبته ؟

وأجاب والدى · هذه آخر مرة .. إنه بحسن نية قد فعل ذلك . انت تعرفين إنه طيب ورقيق ويتأثر بحال الناس المساكين والفقراء والمرضى ..

ـ لا أفهم .. هل علمته ألا يفعل ذلك مرة أخرى .. إنه يستاهل الضرب .. ولكنك تفسده بالكلام والحكايات التى ترددها على أذنه .. حتى صار لا يرى وإنما يسمع فقط .. ولذلك

يضحكون عليه .. إذا أتى واحد قال له كلامًا حلـوًا .. لن أترك لك مهمة تعليمه أبدًا .. وأنا أعرف كيف أجعله يضع عقله فى رأسه ! .

وكـانت أمـى تـرى أن عقلى ليس فى رأسـى .. وأن الكثير ممـا أفعلـه يدل على اننـى سرحان.. أو اننى لا أبـالى .. ولذلك فهى تنبهنـى بشدة ، وتحذرنى بالحاح شـديد .. فكل شـىء تقوله فإنها تكرره كثيراً ظناً منها اننى نائم على روحى أو لايهمنى ما تقوله أمى ..

مثلاً تقول لى : خذ بالك من الذى أقـول لك .. افتح أذنيك .. انت الآن تذهب إلى الست أم عزيز .. أم ايه .. أم عزيز وتقول لها : إن ماما فى إنتظار ضيوف .. وإذا سـألتك من هم الضيوف قل لها إنهم جماعة أقارب وأن هؤلاء الأقارب سوف يبيتون عندنا .. وإنها لولا الضيوف لجاءت لزيارتها ..

ـ هل أقول لها أن تجىء هى لزيارتنا ..

ـ لا .. ياأخـى لا .. أنا مشغولة والبيـت ملىء بالضيوف .. فإذا جـاءت هى وأولادها فليس لهم مكـان .. تقول لها إيه .. إن غـداً إن شاء الله بعد أن ينصرف الضيـوف سوف أزورها ..

ـ متى ينصرف الضيوف ؟

ـ إنت مالك .. انت تقول لها هكذا والسـلام .. لا تقول كم عدد الضيوف ولا من هم .. ولا متى ينصرفـون .. وإياك تقول لها : لا داعى لأن تجيئـوا فليس فى بيتنا مكـان .. خذ بالك .. سامعنى .. يعنى اننى مشغولة لأن عندنا ضيوفاً وأن الضيوف سوف يبيتون .. ونحن لا نعرف متى تنتهى الزيارة .. فاهم ..

ـ نعم ..

ـ قل لى ماذا ستفعل ..

ـ ياماما أنا فهمت .

ـ خلاص .. قل لى قبل أن تخرج ..

ـ سوف أقول لها . ماما كان فى نيتها أن تـزورك لولا ضيوف من أقاربنا جاءوا فجأة وسوف يبيتون فى البيت ..

ـ ياأخي لا .. إنهم سوف يبيتون وغداً يسافرون .. ولكن ماما لا تعرف موعد انتهاء الزيارة .. وبعد أن تنتهي الزيارة سوف أزورهم .. وجعت قلبي !.

ـ حاضر .. فهمت ..

ـ لا تنس الطبق الكبير الذي كانت به الحلوى ..

ـ ياماما انت قلت لى أن أترك الطبق هناك ..

ـ نعم .. تركته أمس ولكن تطلبه اليوم ..

ـ أنا لا أفهم .. المرة الماضية أتيت بالطبق ، فأنت غضبت منى وهذه المرة تستعجلين الطبق..

ـ يا أخي المرة الماضية انت ذهبت بالطبق وطلبت أن يفرغوه من الحلوى ويعطوه لك فوراً .. هذا عيب .. يجب أن تتركه عندهم يوماً أو يومين .. وبعد ذلك تطلبه .. ولا تطلبه فى نفس اليوم .. أو فى نفس اللحظة ..

ومن ضمن الألغاز فى ذلك الوقت اننا عندما نلعب أمام البيت .. أجد الأطفال يتشاجرون . أما السبب الذى لا أفهمه فهو أن كل واحد يقول : أنا ألعب أمام بيتنا .. وأنت مالك ..

وانظر فأجد أن حارة ضيقة تفصل بين البيتين .. فكل واحد يرى أن (أمام) بيته هو شبر .. وشبر آخر أمام البيت المواجه له .. وأن هذه هى الحدود .. حدود حرية كل طفل .. فإذا تعداها طفل آخر فهو عدوان على بيته وعلى المساحة التى يتحرك فيها .. ولم أفهم .. وعندما يتشاجر الأطفال ويردد الآباء أن الطفل كان يلعب (أمام) بيته .. لم يكن أحد يحدد المساحة التى يحق له أن يلعب فيها وألا يضايقه أحد .. وانظر إلى الأرض التى لا تزيد عن مترين .. واندهش كيف يحدد الأطفال هذه المساحة فيقول واحد : هذا بيتى .. وهذا أمام بيتى .. وهذا بيتك وهذا أمام بيتك ..

وكان الأطفال لا يستخدمون كلمة أمام البيت إلا عندما يتشاجرون فقط .. أما إذا كانوا على وفاق فإن الحدود تختلط وتدخل الكرة من هذا الباب ومن الباب المقابل له .. ولا أحد يشكو .. ولا أحد يقول : هذا بيتى .. هذا بيتك .. هذا أمام بيتك وهذا أمام بيتى..

وكنت أتعجب للأطفال الصغار الذين اتفقوا على معانى هذه الكلمات · بيتى .. بيتك .. أمام وخلف بيتى ووراء بيتك .. كيف تعلموها . وكيف لم أتعلمها .. أو كيف لم أسمعها من أحد .. أو لم أقرأها فى أى كتاب ـ وإن كنت قد سمعت من والدى وهو يحكى عن الخناقات الدامية بين الفلاحين على الماء وعلى الرى .. وعلى أن أحد الفلاحين سرق جاموسة فلان وأن فلاناً سرق الخضروات من أرض فلان .. وعلى الرغم من أن المسروقات كانت تافهة ، فإن الدماء قد سالت .. وإن أحداً قتل ابن أحد .. أو أحرق قمح أحد .. أو وضع السم لجاموسة أحد .. والسبب هو أن أحداً اعتدى على (ملك) أحد .. على أرضه .. على خضرواته .. على نصيبه من الماء .. على كوم السماد الذى وضعه فى أرضه .. فالاعتداء فى حد ذاته هو المرفوض .. وليس الشىء الذى اعتدى عليه .. يعنى ليست الخضروات التى لا تساوى قرشاً ، ولكن حادث الاعتداء .. الذى هو إهانة واستخفاف واستضعاف .. هو الذى يجب ألا يقع .. وإذا وقع فسرقة بطيخة تساوى سرقة ألف بطيخة .. وسرقة دجاجة يساوى جاموسة .. ووضع قدم فلاح فى أرض فلاح آخر دون إذن ، مثل وضع يده على صدر زوجة فلاح آخر ..

يعنى إيه ؟

لم أفهم بوضوح كل ذلك ؟

كان مدرس اللغة العربية رجلاً مخيفاً . فهو طويل عريض وله كرش . وصوته قوى غليظ مرتفع . وإذا اقترب منه التلميذ فإنه يمسكه من رقبته وأحياناً يهزه من كتفيه .. فإذا خاف التلميذ وحاول أن ينظر إلى الارض بعيداً عن نظراته النافذة كان يقول له : إرفع رأسك . انظر لى .. لكى أرى إن كنت كاذباً .. انظر لى ..

وكان الخوف يتولانا جميعاً .. ولا نريد أن نراه .. وإذا تغيب عن الحصة لأى سبب ، فتلك سعادة لا نستطيع أن نخفيها .. وكان الساعى إذا جاء وقال إن الشيخ الدخميس لن يأتى اليوم كنا نصرخ من الفرحة ونقول : هيه .. إن شاء الله دائماً !.

وكنا نخشى أن يبلغه ذلك .. ويوم قال لنا أحد التلامذة إن الشيخ يعرف مدى كراهيتنا له كان يوماً أسود .. فلم يستطع أحد أن ينظر إليه .. وبعضنا ادعى المرض ولم

يحضر .. وبعضنا ادعى الإسهال والإغماء فى الفصل لكى يخرج ..

وفى يوم قال لنا : أنا لا أفهم لماذا أنتم خائفون .. ما دام الواحد قد ذاكر فما الخوف .. وهل أنا أبتلع الأطفال .. إن عندى أولاداً مثلكم وأحبهم .. وأنا أريدكم أن تكونوا رجالاً .. أريدكم أن تكونوا ماذا .. رد .. قلت لك رد ..

ويشير إلى أحد التلامذة ..

فيقف ويقول : أن نكون رجالاً .

ويشير إلى واحد آخر ويقول له : وأنت ياولد ! .

فيقف وهو يرتجف : أن نكون رجالاً !.

ثم ينظر إلى واحد فى آخر الفصل وهو نحيف مريض ويقول له : أريدكم أن تكونوا ماذا ؟

فيقول : رجالاً .

ـ هل أنت رجل ؟

ـ لا .. أنا طفل !.

ـ لا .. أنت رجل .. جامد .. قوى .. خشن .. ابن أبيك وليس ابن أمك .. ابن من ؟

ـ ابن أبى .

ـ وأنت ؟

ويشير إلى أطول تلميذ فى الفصل وهو أقوى تلميذ أيضاً .. ونحن نخاف منه .. فيقف وبصوت غليظ يقول : أن أكون رجلاً .

وسأله : وأنت الآن رجل ؟

ـ طبعاً .

ويصفعه على خده بمنتهى القوة .. وينتظر حتى يبكى . ويضحك ويقول له : رجل؟ انت رجل ؟ وهل الرجل يبكى .. إنت عيل . انت ماذا ؟

لا يرد . ويعود يسأله : انت ماذا .. عيل أو رجل ؟

ـ رجل .

ـ إذن امسح دموعك . الرجل لا يبكى !.

ـ حاضر .

وإذا نظرت إلى الفصل فكل الوجوه فى الأرض . والعيون تنظر إليه من تحت لتحت ونتمنى جميعاً أن يدق الجرس لكى يغور هذا الرجل فى ستين ألف داهية تأخذه ولا تعيده إلينا !.

وكنا نلعب فى حوش المدرسة عندما جاء الساعى يقول : الشيخ الدخميس يريدك فوراً!.

وأكذب لو قلت إننى فهمت أو استوعبت أو فكرت فى أى شىء .. وإنما أصابنى نوع من القشعريرة جعلت كل أفكارى تتبخر وجعل شوباً من الخوف يعتصرنى بشدة ودرجات الحرارة ترتفع فى دماغى .. وتنخفض فى كل جسمى .. وتصببت عرقاً . ولا أعرف ما الذى قاله زملائى ولا ادعى اننى سمعت بوضوح كل ما يقولون ولا حتى بعضه .. وسبقنى الساعى إلى غرفة المدرسين .. ولكنه بادرنى بقوله : لا شىء ياولدى .. أنا فقط أردت أن أعرفك .. أنا قرأت موضوع الإنشاء الذى كتبته .. هل انت الذى كتبت ذلك .. أو إن أحداً ساعدك ..

فقلت : أنا ..

ولا أعرف من الذى قال : أنا .. هل أنا .. أو أصوات فى داخلى .. أو جاءت « أنا » من واحد غيرى ..

وقال لى : وأنت تحفظ كل هذا الشعر ..

قلت : وأكثر .. وأحفظ القرآن الكريم ووالدى يقول الشعر ..

قال . سمعت عن والدك .. إنه رجل طيب . كلهم يقولون ذلك . وأنا أحب أن ألتقى به .. قل له ذلك ..

وناداني أن اقترب وقال لى : مد يديك...

ولم أفهم . ومددت يدى .. فأمسكها وضبطها فى المكتب فصرخت وقلت : آه ! .

قال : يد من هذه ؟

قلت : يدى ..

قال . إياك أن تبكى . يد من هذه ؟

قلت : يدى ..

قال . من أجل هذا أتيت بك إلى هنا وأريد أن أراك . هذه يدك .. وهذه ذراعك .. وعينك .. وهذا بنطلونك .. وحذاؤك وكراريسك .. وهذا أبوك .. وكما أن يدك توجعك إذا أحد خبطها فى الحائط فكذلك رأسك .. وكذلك من يشتم والدك .. لأنه يشتم والدك أنت .. يشتم شخصاً انت تحبه وتعتز به .. فالذى يشتمك كالذى يحرق ملابسك .. يكسر ذراعك .. يعتدى على شىء تمتلكه .. ولأنك تمتلكه يجب أن تحرص عليه .. فاهم ياابنى .. قل لى : يد من التى خبطتها فى الحائط .

ـ يدى .

ـ نعم . يدك .. وعندما أوجعتك فقد أوجعت من ؟

ـ أوجعتنى .

ـ قل أوجعتنى أنا !.

ـ أوجعتنى أنا ..

ـ ولم توجع أخاك ..

ـ أوجعتنى أنا ..

ـ وإذا أمك بلغها اننى ضربتك فسوف تتألم لأنك قطعة منها .. فكأننى ضربت يدها .. وإذا أمك مرضت ألا تحزن ؟

ـ أحزن جداً .

ـ لماذا .. لأن أمك قطعة منك .. أو إنك قطعة منها .. فأنت تحزن على نفسك وتتألم للذى يصيبك .. وأمك هى نفسك وأبوك واخوتك وكل الذين تحبهم .. وكل شىء تملكه.. فهمت ؟

ـ نعم .

ـ فهمت ماذا ؟

ـ فهمت .

ـ هل البيت الذى تسكنه ملك لكم .

ـ لا .

ـ هل هذه المدرسة ملك لكم ؟

ـ لا .

ـ ومع ذلك تقول هذه مدرستى وهذا فصلى .. وكذلك تستطيع أن تقول : بيتنا .. وبيتى .. هل فهمت ؟ ماذا تقول عن النيل ؟

ـ إنه نيلى !.

ـ لا .. انه نيلنا .. إنه النهر الذى نعيش منه جميعاً .. فهو نيل مصر .. وهذه السماء .. سماؤنا .. وهذه الأرض أرضنا .. وهذا الهواء هواؤنا .. فهمت ؟

ـ نعم .

ـ هل فريد صديقك ؟

ـ نعم ..

ـ هل سمعته يقول بيتنا ؟

ـ نعم ..

ـ هل سمعته يقول والدى ؟

ـ نعم .

ـ إن فريد لا يملك هذا البيت .. إنه مثلك يسكن فيه هو وأسرته .. ووالده هذا ليس والده .. إن والده قد مات .. ولكن هذا الرجل قد تزوج أمه بعد وفاة أبيه .. فكأنه والده تمامًا .. وهو يحبه كأنه والده .. والرجل يحبه كأنه ابنه تماماً ! .

ـ وأنا لى أخت غير شقيقة وأحبها كأنها أختى تمامًا .. بل هى أختى .

ـ كلام عظيم .. لا تخف منى ياولدى .. وإذا سألك زملاؤك قل لهم إننى سألت عنك لكى أعرفك فقد أعجبنى موضوع الإنشاء الذى كتبته .. مع السلامة ياولدى !.

* * *

لقد شعرت بالراحة فى ذلك اليوم .. ولحسن حظى كان يوم خميس .. وشعرت بالاسترخاء الشديد والرغبة فى النوم .. وصحوت من النوم متأخراً على صوت أمى تقول : اصح .. انت مريض .. اصح .. عندنا ضيوف .. ما هذا الذى إلى جوارك ..

ومدت يدها .. وبدت عليها الدهشة وسألتنى : ما هذا يا ولدى ! .

قلت لها : ملعقتى .. وشوكتى .. وسكينى ..

ـ لا أفهم ..

ـ إنها أشياء تخصنى ..

ـ ولماذا تضعها معك فى الفراش .. ومن الذى سوف يأخذها منك .

ـ ياماما .. كل واحد له كوب وطبق ..

ـ نعم . ولكن ما سبب خوفك عليها ؟

ـ لا أحب أن يستخدمها أحد غيرى .

ـ أحد غيرك مثل من ؟ أنا .. أخوك ؟ أبوك ؟

ـ أى أحد !

ـ منذ متى ؟

ـ من اليوم !

ـ ولماذا ؟ ماذا حدث اليوم ؟

ـ الأستاذ قال لى ذلك ..

ـ قال لك ماذا ؟

ـ كل واحد لابد أن تكون له أشياء تخصه ويحرص عليها ..

ـ ليكن . ولماذا تنام وهى فى حضنك ؟

وأحسست بسخافة أفكارى كيف اننى قبل أن أنام اخفيت طبقاً وكوباً ووضعتهما فى فراشى دون تفكير .. ولكن السخرية على وجه أمـى قد مسحت كل الأفكار التى دارت فى رأسى .. أو التطبيق الساذج لهذه الأفكار .. ونهضت وأعطيتها الطبق والكوب .. واعتذرت لها .. وقلت لها كاذباً . اننى فعلت ذلك دون أن أدرى وأنه كان فى نيتى أن أضعها فى مكان آخر ولكن غلبنى النوم .

وصدقتنى أمى ..

ولم تقل هـذه الحادثة لأى أحـد ، مع أن من عـادتها أن تقول كثيراً إذا وجـدت شيئاً غريباً ، اما على سبيل التظاهر أو على سبيل الشكوى وأخذ المشورة ..

٢٩

كان يومًا غريبـًا .. أو أيامًا عجيبة أو دهرًا طويلاً لا أول له ولا آخـر .. فنحن فى حالة صمت. لا أحد يتكلـم .. أمى تذهب وتـدخل وتخرج ولا كلمة .. وتعد الطعـام فى صمت .. وإذا سألتها هزت رأسها أو أشارت بيدها .. فلم يعد عندها كلام أو رغبة فى ذلك ..

وظننت أن شيئًا ما أصابها فى حلقها أو فى لسانها .. أو هـى أسنانها التى توجعها من حين إلى حين .. وأنظر إلى عينيها فلا أجد دموعًا . ولم تلف شيئًا حول رقبتها . ولا أخذت دواء .. ولا وجهها شاحب .. ولكن الصمت شامل .

وسكت أنا أيضًـا ..

وشىء غريب جدًا أن الباب لا يدق .. وتمنيـت أن يدق وأن يجىء أحد ويتكلم فاسمع صوت أمى .. أو يقال لى شىء فاسألها .. أين القطـط التى كانت تقفز من فوق السطوح إلى حيث الدجاج .. ولا قطة . أين الكلاب التى تغافلنى وتدخل البيت بحثًا عن شىء . ولا كلب .

وكانت تجربـة فريدة أن نكون فى حالـة صمت . وكل شىء حولى بـلا صوت . حتى الهواء الذى كان يدفع الشباك وأحيانًا يسقط بسبب ذلك أى شىء ، لم يتحرك . وتعمدت أن أدفع إحدى المناضـد وأوقعها على الأرض . ولم تلتفت أمى . وكانت قبـل ذلك بيوم أو يومين تسأل : ولماذا ؟ وجرى لك إيه ؟ المذاكرة أرهقـت عينيك حتى لم تعد تـرى .. ضع قطرة ..

وذهبت إلى أبعد من ذلك فى الرغبة فى أن أعرف فأسقطت كوبًا زجاجيًا على البلاط .. لم

ينكسر .. ثم أعدت إسقاطه فانكسر . والتفتت أمي وأشارت بأن أجمع شظايا الزجاج .. وكانت تروح وتجيء وتنظر فى كل اتجاه ثم لا تتكلم . ولم أطق صبرًا . وسألتها . مالك يا ماما ؟

قالت : ولا حاجة .

ـ مريضة ؟

ـ لا .

ـ سلامتك .

ـ الله يسلمك .

ولم تقل فى نهاية كل إجابة : يا ولدى .. ياابنى .. يا حبيبى ! .

ومعنى ذلك أنها تريد أن يكون الكلام مختصرًا . وعدت أسألها : وهل يجيء والدى ؟

ـ نعم .

ـ متى ؟

ـ اليوم .

ـ صحيح ؟

ـ نعم .

ـ هل هو مريض ؟

ـ لا .

ـ ولكنه كان هنا بالأمس ..

ـ نعم .

ـ هل يجيء مرتين فى يومين ..

ـ نعم .

ـ لماذا ؟

ـ لأننا مسافرون ! .

أظلمت الدنيا .. ابتعدت الدنيا .. انتهى كل شىء .. لم يعد هناك شىء أمامى أو

خلفى.. ولم يعد لى أنا وجود .. ولا أمى .. ولا البيت .. كأننى سقطت فى بئر مظلمة .. وكان السقوط طويلاً هادئًا .. ولم يعد لشىء صوت أو لون .. أو لم تعد لى إذن أو عين ولسان..

هل جلست على الأرض .. هل أسندت ظهرى للحائط .. هل تزحلقت على الحائط .. على الأرض وتمددت .. ونمت ثم مت بعد ذلك ؟ هل الحائط الذى كنت أسند ظهرى إليه هو الذى خاننى وتساقط ترابًا أو قطعًا من الظلام .. أو ما لا نهاية له من الصمت والبرودة .. هل كان يحدث لى كل ذلك ولكن تماسكت وتساندت .. فهذا الذى فى يدى هو الباب .. أو اكرة الباب .. هل هى يد أمى .. عندما رأتنى أنهار امسكت بى وأسندتنى إلى صدرها .. هل انفتح الباب الخارجى فجأة ودخل شبح أبيض .. وفى وجه الشبح رأيت عينى والدى.. هل كل الذى أرى ليس إلا وهمًا .. أو اننى مت منذ زمن طويل ، وإننى أزال أتقلب فى قبرى .. إلى جوار جدى .. واننى سعيد بذلك .. أو اننى فى حالة من عدم الشعور بالتعب والراحة .. لا شىء يوجعنى .. لا شىء ثقيل على يدى على ذراعى على رأسى .. لا شىء يضغط على أى شىء .. لا شىء له وجود من اللون او الصوت أو الرائحة ..

وفجأة بدأ النور يدخل من بعيد .. والنور يزداد ويقترب والهواء أيضًا .. وكل شىء له طول المواسير الكبيرة .. فكل ما حولى عبارة عن ماسورة دائرية فى ناحية منها نور .. والظلام يلف الضوء ويقاومه .. واتسعت دائرة النور .. واتسعت فرأيت البيت .. بيتًا من جديد .. ورأيت أمى جالسة إلى جوارى على الأرض .. رأيت وجهها والدموع .. فعلاً فى عينيها .. ولما رأتنى افتح عينى مدت يدها إلى وجهى ومسحته .. وإلى عنقى .. وإلى شعرى وإلى صدرى وهى تقول : جرى لك إيه يا أبنى ؟ انت كل مرة تموت نفسك بالشكل ده .. سوف تجد اناسًا وسوف يكون لك أصدقاء .. ومدرسة .. لن ينقصك شىء يا ابنى .. وسوف أكون معك وأخوك وأختك .. وكتبك سوف تكون معك .. لا تخف يا ولدى .. لا تخف لن ينقص منا أحد يا ولدى .. إن شاء الله لن ينقص أحد .. قم يا ابنى .. نشفت دمى .. يا ابنى أنا مريضة أنا لم أعد قادرة على تحمل هذه الصدمات .. انت عارف إن أمك ضعيفة ووحيدة فى الدنيا .. وليس لها إلا أنت فإذا كنت أيضًا ضعيفًا فعلى من تستند أمك .. قم يا ابنى .. قم يا حبيبى ساعدنى .. لم يعد لدينا وقت طويل .. ساعدنى ياحبيبى !.

ولما سمعت أمي تقول إنها مريضة ضعيفة .. وكنت قد نسيت كل ذلك .. وإنها لا تستطيع أن تجمع حاجاتنا وحدها نهضت بسرعة . فأنا أعرف بالضبط ما الذى يجب أن أعمله . وكنت قد نسيت اننى فعلت ذلك من قبل عدة مرات ..

أعرف ما الذى يجب أن أعمله .. انقل الأطباق والشوك والسكاكين والأكواب ثم ألفها ف ورق وأضعها ف صندوق وأحاول أن أجعل هذا الصندوق يتسع لكل أدوات الطعام .. سمعت ذلك من أمى عدة مرات .. وبعد ذلك يجب أن ألف الكتب بالدوبارة . وأن اجعلها مجموعات صغيرة حتى يمكن حملها .. وكنت أختار أحب الكتب وأضعها إلى جوارى .. وأحاول أن أجعل هذه الكتب عشرة أو عشرين على الأكثر .. وبعد ذلك أضع بقايا الطعام والخضروات والفاكهة ف صندوق ... ثم أغسل الحلل .. وف نفس الوقت لا أترك شيئًا على الأرض .. فلابد من تنظيف البيت .. لابد أن نتركه نظيفًا كما تسلمناه نظيفًا — أمى هى التى تقول ذلك — مع اننا يوم تسلمناه لم يكن نظيفًا . فقد كان مليئًا بالصراصير والنمل والفئران الصغيرة والذباب والبعوض أيضًا . وخصوصًا ف دورة المياه والسقف ..

وعندما نظرت ف الغرف اكتشفت أن أمى قد ربطت المراتب والمخدات والألحفة .. وجميع الملابس .. وأن كل شىء جاهز تمامًا لأن تجىء سيارة وتنقله ثم سمعت دقات على الباب ورأيت عددًا من الرجال . واحد سألنى . ماما هنا ؟

ـ انت مين ؟

ـ هى تعرفنى .

ـ هى لا تعرفك . انت مين ؟

ـ يا سيدى إنها تعرفنى . قل لى ادخل .. الله يهديك.

سمعت ماما تقول له : إتفضل يا حاج ! .

ونظر الرجل ناحيتى وهو يقول لى : مش قلت لك .

تضايقت من هذا الرجل .. ووجدت ثلاثة آخرين قد دخلوا وراءه أيضًا . وكانت أمى تتوقعهم . ولذلك لاحظت انها قد غيرت ملابسها .. فكل شىء يتم بسرعة وف صمت ..

وفتحت لهم أمى باب غرفة الدجاج .. فهم الذين سوف يشترون الدجاج والبط

والأوز والأرانب .. وبسرعة امتدت أيديهم إلى الأقفاص التى احتبست فيها الطيور .. وبسرعة حملوها وبسرعة خرجوا .. وكان لابد أن نقوم معًا بعملية تنظيف لهذا المكان الذى تخرج منه رائحة الدجاج ومخلفاته .. ووجدت مقشة كبيرة ومقشة صغيرة وعدة مقاطف .. وبسرعة امتلأت المقاطف .. وحملتها إلى خارج البيت .. وألقيتها بعيدًا .. ثم طلبت منى أمى أن آتى بتراب جاف .. وأن أنشر هذا التراب فى مكان التراب الذى نقلناه..وكنت اندهش كيف يعيش هذا العدد الهائل من النمل والصراصير .. وكيف أن الفئران قد اتلفت بعض الكتب .. وحطمت بعض الأقلام .. وكيف أن إحدى القطط قد قفزت من أعلى الشجرة وخرجت بسرعة وفى فمها ثعبان صغير .

ولأول مرة تشير أمى إلى آثار الثعالب والذئاب التى كانت تتسلق الجدران وتهبط وفى مخالبها صغار الدجاج والبط .. وكانت آثارها غائرة على الجدران ..

وسألتنى : هل تخاف لو رأيت ثعبانًا ؟

قلت : لقد رأيت أبى يقتله بيده ..

قالت : انظر إلى الركن البعيد إنه ثعبان قد ابتلع فأرًا .. وهذا الانتفاخ فى بطنه هو الفأر الذى ابتلعه .. إن الثعبان لا يخيف إذا ابتلع فأرًا .. إنه يكون نائمًا . ولذلك من السهل قتله..

قلت : لا تقتليه .

قالت : لن أفعل .. إننا مسافرون ..

ولا أكاد أسمع كلمة « مسافرون » هذه حتى يهتز جسمى كله .. وتلاحظ أمى ذلك فتقول لى بسرعة : شد حيلك لا تدعنى وحدى .. أريدك أن تكون قد فرغت من كل شىء قبل مجىء والدك ..

ـ متى يحضر ؟

ـ بعد ساعة .. ساعتين .. إن شاء الله لابد أن يحضر ..

ـ إلى أين يا ماما ؟

ـ بلد أحسن من هذه البلد .

ـ أين ؟

ـ مصر .

ـ ولن تعود هنا أبدًا ؟

ـ لن نعود ..

ـ أبدًا ؟

ـ أبدًا ..

ـ ولماذا ؟

ـ الظروف يا ابنى ..

ـ ولماذا لا يسافر الناس مثلنا ؟

ـ كل واحد له ظروف ..

ـ ولماذا ظروفنا نحن فقط هى التى تجعلنا نسافر من حين إلى حين ..

ـ هناك اناس كثيرون مثلنا يا ابنى .

ـ مثل من ؟

ـ اناس كثيرون انت لا تعرفهم .

ـ بل أعرفهم .

ـ انت لا تعرفهم ! .

ـ أعرفهم وأحبهم أيضًا . وأنا كأنى واحد منهم !

ـ من هم ؟

ـ الغجر ! .

ـ عيب لا تقل ذلك وإلا غضب منك أبوك .. هل أبوك مثل الغجر .. هؤلاء اللصوص .. إن والدك رجل محترم .. والناس كلهم يحترمونه .. ويحبونه .. وأنت تحبه .. ونحن لا نعيش فى خيمة .. وأنا لا أضرب الودع وأسرق الدجاج .. ولا أبوك قاعد أمام الخيمة يربى الكتاكيت .. عيب اياك أن تقول الحكاية دى مرة أخرى .. أوع .. إذا والدك سمعها فلن ينساها أبدًا . إياك ! .

ولم يدق أحد بابنا .. كأن الناس جميعًا قد عرفوا اننا مسافرون أو اننا سافرنا .. فلم يأت أحد .. لا بائع اللبن .. ولا جارة واحدة جاءت تسأل أو تطلب شيئًا أو تأتى بشىء .. كل الناس يعرفون أننا مسافرون إلا أنا .. لابد أن أمى لم تشأ أن تقول لى ذلك حتى لا أصاب بالدوخة أو الانهيار الذى يصيبنى فى كل مرة .. ولا والدى قال لى .. وكان من المفروض أن يجىء بعض إخوتى اليوم صباحًا . ولكن أحدًا لم يظهر .. وأهم من ذلك اننى اتفقت مع أختى على أن نذهب معًا إلى السوق وسألت أمى : أختى لن تحضر اليوم ؟

قالت . لن تحضر .

ـ وهل عرفت عنواننا فى مصر .

ـ ليس بعد ..

ـ وأين نسكن فى مصر ؟

ضحكت أمى وهى تقول : وهل أنا أعرف مصر .. فى مصر والسلام ! .

وتمنيت لو اننى وجدت شيئًا يجعلها تضحك .. فوجهها يضىء .. كل وجهها .. فهى تضحك من كل قلبها .. ولأن ضحكتها نادرة فهى جميلة جذابة ..

وعدت أقول لها : هل نسكن فى الدور العاشر ؟

ـ العاشر ؟ ! .

وضحكت وضحكت وعادت تقول · ولماذا العاشر .. والأول عيبه ايه ؟

ـ يا ماما زهقت من الدور الأرضى .. لم أصعد سلمًا فى حياتى . لم أنظر من بلكونة .. لم أر الناس من فوق . كلهم ينظرون لى من فوق .. فى الدور الأرضى يشاركنا الكلاب والقطط .. وتدخل الكرة من الشارع والناس يخبطون علينا الباب ذهابًا وإيابًا .. ونحن لا نرى الناس قبل مجيئهم .. ولكن عندما نكون فوق فنحن نرى الناس من فوق ونعرفهم . ونكلمهم .. ويمكن السلالم تجعلهم لا يجيئون ولا يوجعون دماغك .. ومن البلكونة يمكنك أن تشترى الخضروات بدلاً من أن تذهبى إلى السوق ..

وضحكت وهى تقول . ولو كنا فى الدور العاشر فكيف أشترى الخضار ؟

ـ أنا الذى أذهب إلى السوق .

ـ ألم تكن تريد كلبًا صغيرًا .

ـ بل أريده فورًا .

ـ لو سكنا فى العاشر فإن الكلب سوف يقع من البلكونة ويموت ! .

ـ لا داعى للكلب ! .

وضحكت أمى كثيرًا حتى جاءت الدموع فى عينيها ..

يا حبيبتى يا أمــى .. لو كنت أعرف كيف أجعلك تضحكين . ولكنى لسـت مثل عزيز الذى يـزغزغ أمــه حتى تضحك .. وتصرخ وتطلـب من إخوتـه أن ينقذوهـا لأنها سوف تموت من الضحك .. وتجىء أخواته يضربنه .. لو كنت أعرف ذلك .. مع الأسف لن أرى عزيز من اليوم .. لا عزيز ولا أخواتــه البنات .. ولا سامى .. ولا فاتيما .. ولا نبيلة ـ نبيلة هذه تلميذة فى المدرســة الثانوية رأيتهـا مرة واحدة وفى هذه المرة وجـدت فى عينيها ما لا نهايـة له مـن الكلام .. لقـد ضبطتها تتـابعنى .. فتلخبطـت فى السير .. ولما رأيتها مـرة أخرى.. كـانت تـريدنـى أن اقترب أكثر وأن اتحدث إليهـا .. ولكنى لم أفعـل .. ولن أرى فيكى.. فيكتوريـا كانت تلميذة ولكـن فضلت أن تبقى فى البيت .. لأنها سـوف تتزوج .. وهى قريبة عزيز من بعيد . وهى فى غايـة الحيوية . دائمة الابتسـام . وفى كل مرة ترانى تقول لى : هالو .. انت فين ؟

وأضحك وأقول لها . هالو ..

وأمضى فى طريقى فتناديني وتقول لى : عاوزة أكلمك .. مستعجل على إيه ؟ .

وأعـود إليها لتســألنــى عن أشيــاء كثيرة لا تخطر لى على بــال . مثـلاً · هل كنـت فى السـوق.. هل رأيـت الرجل الذى يبيع الكتـب الفرنسية .. وهل محل الساعـاتى مفتوح .. وهل أعرف إدوارد الذى يجلس فى المحل .. هل رأيته أمس ..

وحكايات عنـدها كثيرة جدًا .. فإن وجـدتنى لا أرد عن الأسئلة تـروى هى القصص والحكايات .. وهــى لطيفة .. فى مثل طولى وأكبر منــى قليلاً .. وهى إذا قعدت لفـت ساقًا حـول ساق .. وإذا تكلمـت فإنها تقترب منــى أكثر وأكثــر .. هذه طـريقتها فى الكـلام .. وإخواتها يـروننا ويبتسمـون ولا يقـولون شيئًا . ولاحظت إنها ظـريفة مع كـل الناس .

وكنت قد أعددت لها حوارًا قلته لنفسى عدة مرات .. وكان فى نيتى أن أدعوها إلى المكتبة العامة لتقرأ وتتكلم هناك .. ذهابًا وإيابًا .. ولم أجد الشجاعة .. هى الأخرى لن أراها ..

لم أودع أحدًا ..

ولا أعرف ما الذى يقال . ولماذا ؟

فلست مربوطًا ولا مرتبطًا بـأحد .. كأنهم جميعًا عصافير على شجرة .. رأوا شيئًا متحركًا .. فطاروا جميعًا .. ذهبوا .. اختفوا .. ماتوا وماتت الشجرة ..

كأنهم تراب عالق بملابسى .. نفضت الملابس .. تباعدت ذرات التراب . كأنهم مسامير ودبابيس جذبهم مغناطيس وفجأة انعدمت الجاذبية .. تساقطوا متباعدين ..

كأنهم ريش فى جناحى طائر كبير .. هذا الريش لم ينبت فى جناحيه .. وانما ريش ألصقوه بالصمغ .. وظل الطائر يرتفع حتى اقترب من الشمس .. فذاب الصمغ وتطاير الريش وسقط الطائر ..

كأنهم ثمار على شجرة . نضجت الثمار فجأة وفى وقت واحد . فسقطت كلها على الأرض .. وليس بعد النضج التام إلا العفونة .. فسقطت الثمار قبل أن تتعفن .. أو كأنها ثمار قطفتها قبل نضجها سكين خفية .. قطعت رقابها .. فسقطت قتلى ..

كأنهم جميعًا حبات من الارز أو القمح فى جيب .. والجيب انقطع فجأة وسقطت حبات القمح كلها على الأرض .. فلا نظرت إلى جيبى ولا مددت يدى .. ولا فكرت فى أن أسمع سقوطها ولا رأيت جثتها .. اعتدت على ذلك .. اعتدت على تساقط الأشياء والناس بعيدًا .. اعتدت أن أكون بعيدًا .. وأن يصير القريب بعيدًا .. بل لم يكن القريب قريبًا أبدًا .. ولذلك فلا شعرت بأنه قريب ، ولا ندمت على انه صار بعيدًا .. إننى مثل عسكرى المرور تقترب منه السيارات لكى تبتعد .. وتقترب البعيدة لكى تبتعد مرة أخرى .. وهو يرقب ويرصد ويسجل أرقامها .. اعتدت على ذلك فلا البعد له معنى ولا القرب ولا القرابة ..

* * *

وجاء الليل بسرعة ..

أو اننا دخلنا الليل .. أو تسللنا إليه .. أو كان الليل ثوب أسود فضفاض سقط على الدنيا..

ودق الباب .. وكان والدى .. هل كان أنحف أقصر .. كيف أراه كذلك . كيف أحسست به كذلك .. وبسرعة نظرت إلى يدى .. إنها أصغر .. إلى ذراعى إنه أقصر . إلى وجهى فى المرآة إنه شاحب .. نظرت إلى أمى .. فوجدتها هى الأخرى مختلفة الطول والعرض .. ما الذى جعل كل شىء يبدو أصغر . أبعد .. نظرت إلى السقف وجدته أقرب .. تلمست وجهى .. لست محمومًا .. اقتربت بسرعة من والدتى : هل أنا محموم ؟

ـ لا .

ـ ولكن أشعر بسخونة فى رأسى .. ورعشة فى جسمى .. ورغبة فى القىء ..

ـ قل لوالدك ..

وكان والدى قد سمعنى .. فقال لى : كل مرة تسافر يكون هذا شعورك .. لست مريضًا يا ولدى . ولكنه الخوف والقلق وإحساسك بأنك سوف تبعد عن أحبابك وأصدقائك .

ولم يكن ذلك صحيحًا .. فلا عندى أصدقاء ولا عندى أحباب .. وإنما هم زملاء فى المدرسة أتردد عليهم .. وأتذكرهم وتدفعنى أمى إلى أن التقى بهم وأتحدث وأظل على صلة بهم .. وإذا لم تدفعنى أمى إليهم فلن أدق باب أحد .. وأندهش جدًا كيف يدقون بابنا .. وكيف يعتذرون إذا لم يفعلوا ذلك . لماذا ؟ لم أفهم . ولاأمى قالت لى معنى ذلك ولا والدى.. ولا اهتديت إلى ذلك بنفسى ..

ونادتنى أمى بصوت غاضب · تعال .. انت الذى ألقيت بهذه الصورة فى الزبالة ؟

واقتربت وأرتنى صورة لى مع زملائى فى المدرسة .. بمناسبة نهاية العام الدراسى .

فهززت رأسى إنى فعلت ذلك لأننى لا أعرف لماذا أحتفظ بها وأين أضعها . وما معناها ..

واقترب والدى وقال لى : عندما تكبر وتتحدث عن أيام الطفولة والشباب سوف تجد ان لهذه الصورة معنى .. وسوف تحدث بها زملاءك وبعد ذلك أولادك وأحفادك .. انت تحتفظ بصورة فى كتبك .. انها صورتك .. وصورة اخوتك وصورتى بينكم . لماذا ؟

ـ لأنها صورتك ..

ـ ولأنها صورتك أنت أيضًا . فإذا نظرت إليها سوف تقول إنك كنت صغيرًا وكنت مكلبظًا مكشرًا دائمًا . وانني على عكس ذلك باسم الثغر .. وسوف تنظر إلى وجهك ووجوه إخوتك وتقارن وتقول .. فالصورة لها حكاية كل مرة تراها سوف تجد كلامًا جديدًا .. هذه الصورة هي انت نفسك في ظروف قديمة .. وكل ما له علاقة بك انت يجب أن تكون له قيمة عندك .. فأنا لي قيمة عندك ؟

ـ طبعًا ..

ـ وأنت لك قيمة عندي وعند أمك .. وأهم من كل ذلك إن لك قيمة عند نفسك .. يجب أن تهتم بصحتك .. وبدروسك ونجاحك وتفوقك ومستقبلك .. انت ماذا تريد أن تكون ؟

ـ يعني ايه ؟

ـ يعني عندما تصبح رجلاً ماذا تريد أن تعمل ؟

ـ لا أعرف .

ـ لم تفكر .. وزملاؤك هل كانوا يحدثونك عن مستقبلهم ..

ـ نعم ؟

ـ ماذا قالوا لك ؟

ـ واحد سوف يكون طبيبًا وآخر سوف يكون مهندسًا .. أو محاميًا أو شيخًا في الأزهر أو قسيسًا .. وواحد يريد أن يتزوج فورًا ويكون له كثير من الأولاد .. وواحد يريد أن يهاجر وواحد يريد أن يتزوج واحدة أوروبية . وواحد يريد أن يكون غنيًا في أسرع وقت .. وواحد يريد أن يكون شاعرًا .

ـ وأنت ماذا تريد ؟

ـ ......

ويعود يقول لي : أنا أعرف ماما لا تريدك إن تكون مثلي .. ولا تريد أن تكون مثل عمك.. ولا تريدك أن تكون ضابطًا فماذا تريد ؟

ـ لا أعرف .

ـ تريد أن تقرأ وتقرأ ؟

ـ نعم .

ـ وأن تكتب ؟

ـ لا أعرف ..

ـ ولكنك حاولت الكتابة .. قرأت لك بعض مذكراتك .. جميلة . وأنا أعتقد انك سوف تكتب .. أنا متأكد من ذلك .. فأنا أيضًا كنت أحب أن أكتب .. فقط أكتب ..

ـ ولماذا لا تكتب ؟

ـ أحيانًا .

ـ تكتب ماذا ؟

ـ شعرًا .

ـ وتصبح غنيًا ..

ـ هاها .. فهمت الآن .. ماما لا تريدك أن تكون شاعرًا حتى لا تكون رجلا طيبًا مثلى ولست غنيًا ..

ـ هل كل الشعراء فقراء ؟

ـ بل هناك شعراء ملوك وأمراء ووزراء .. إمرؤ القيس أمير .. والبارودى وزير وهناك ملوك وخلفاء كلهم شعراء .

ـ لماذا تقول لى ماما ذلك دائماً ؟

ـ إنها تخاف عليك أن تنشغل عن دروسك .. وعن نجاحك .. انت تعرف ان ماما كان لها أخ يحب الطرب والموسيقى والشعر ومات فى سن صغيرة .. انت تعرف .. أريد أن أقول لك شيئاً بينى وبينك .. هل تعرف بينى وبينك أى لا تقول لأى إنسان .. لا ماما ولا أختك ..

ـ أختى ؟

ـ نعم .. هل تعرف لماذا تحاول ماما إبعادك عن أختك ..

ـ لا .

ـ لأن صوتها جميل جدًا ..

ـ ولكنى لم أسمعها تغنى مطلقاً ..

ـ لأن ماما منعتها من ذلك .. فالناس يقولون إن أختك هذه من الممكن أن تكون مثل أم كلثوم .. وانساس يقولون بل صـوتها أجمل وصورتها أجمل أيضاً .. ولابد أن مـاما لأنها رأتنى أنا أيضـاً أقول الشعر وأرتل القرآن وصـوتى جميل وأغنى أيضـاً .. فهى تخشى عليك ياولدى .. إن أمك معذورة . ولكنها لا تستطيع أن تقول لك كل ذلك .. حتى لا تخاف من كل الناس .. وحتى لا تكره كل الناس .. هل فهمت ؟

ـ نعـم .. ولكن لم أسمـع أختى تغنى أبدًا . أنا طلبـت من أختـك أن تجىء معنا إلى مصر . وأن تغنى لنا فى السيارة ..

ـ سيارة ؟

ـ نحـن سوف نسـافر بـالسيارة .. ولكن بسرعـة مامـا إتصلت بها وطلبـت إليها ألا تجىء..

ـ فعلاً .. لم أفهم لماذا عدلت عن السفر معنا .. الآن فهمت .

ـ ماذا قلت لك ؟ إن هذا سر بيننا نحن الرجال ..

نحن الرجال ـــ قالها والدى وهو يعنى كل حرف فى هذه الكلمـة . ثم ضغط على يدى وعلى ذراعى وعلى كتفى ..

وجاء صوت والدتـى من الداخل تقول إنها جاهزة وإنه لم يبـق شىء فى البيت . لقد حملوا كل شىء إلى سيارة لورى .. ومـن الغريب اننى استرحت فى الاستماع إلى والدى ، فلم أر أحداً من الشيالين .. ولا لاحظت ان صاحبـة البيت تجلس بيننا وفى يدها المفتاح .. وأن سيارة وقفـت بعيداً .. وبسرعة كل شـىء تم .. السيارة تحولت إلى صنـدوق دخلناه وأغلقت علينـا الأبواب . المقـاعد جلديـة .. أمى بينـى وبينها بعض الكتـب .. أما سـاعة الحائط فقد حملتها على ساقى ووالدى فى المقعد الأمامى .. ودار موتور السيارة .. وكأنها قطعة من الظلام تشق الظلام . أو تزحف على الظلام أو تخوض فى الليل .. نظرت ورائى وجدت تراباً يتطاير .. شظايا الظلام .. فتـات الليل .. تراب كأنه ينهال على أيام مضت .. أو كأنـه ساتـر ترابـى حتى لا أرى ما كـان .. وأمامنـا أضواء تـروح وتجىء .. وبيوت

مضاءة .. وكأننا واقفون وهي التي تجرى .. تهرب .. تتوارى .. تتراجع .. تتلاشى .. مشاعرى لا أعرف كيف أصفها .. هادئ .. إلى جوار أمي وأبي .. لست إلى جوارهما تمامًا.. بيني وبين والدى لوح زجاجي .. دائماً هناك مسافة ..هناك حائل .. عائق .. فاصل .. دائماً والدى هناك بعيداً .. لا أرى إلا جانباً منه .. من وجهه .. من جسمه .. من صوته .. هو الآخر ظل .. ظلال .. ضباب .. قطعة من الليل لها شكل قريب جداً من ملامح والدى .. وأنقل عيني إلى والدتي .. ملابسها سوداء .. المنديل على رأسها أسود .. وجهها شديد البياض .. الحزن على وجهها .. الصمت .. الصبر .. الأسى.. اليأس .. الخوف الذى أستقر واستكن . ومن حين إلى حين ترمقني أمي بنظرة .. وإلى الساعة الكبيرة التي حملتها على ساقي .. الساعة كالسيارة كل شيء فيها يموت . ففي الساعة يموت الزمان . وفي السيارة يموت المكان .. وكل شيء في علب وصناديق .. السيارة صندوق والساعة صندوق وملابسنا في صناديق .. والبيوت واقفة على حيلها كأنها صناديق .. الدنيا كلها معلبات .. والعلاقات بين الناس أيضاً .. جافة .. أو مسلوقة . بلا طعم .. لا تفسد . لا تضر .. ولا تنفع ولا مذاق لها ..

كنت أنام وأصحو .. هكذا أتخيل .. ولكن من المؤكد أن أمي قد نامت .. تراجعت إلى الوراء واستغرقت في النوم .. مرهقة .. حياتها شاقة .. لا أعرف كيف تعيش . من النادر أن أراها سعيدة أو أسمعها تقول ذلك .. مسكينة تقف أمام الوابور بالساعات تحاول أن تصنع طعاماً .. أحسن طعام . ولكن المسكينة لا تكاد تضعه في بطنها ، حتى تعيده .. ويكون لذلك صوت وصراخ .. لا تأكل ما تصنع يدها .. فلا يبقى في معدتها إلا القليل من كل شيء .. وعلى هذا القليل تعيش .. فإذا غضبت فإن الذى ينزل من بطنها يكون له لون الدم .. أو هو الدم .. وهى لا تفرح بأى طعام مهماً كان شهيًا .. فالنتيجة معروفة .. وجاء الدكاترة وذهبوا وهم يقولون كلاماً متشابهاً معدتها عصبية .. مصرانها عصبي .. كلها عصبية .. هذه حالها ، وليس لها علاج ! .

ولكنها الآن نائمة .. ونظرت عبر الزجاج إلى والدى يبدو انه نام أيضاً . فوالدى يتباهى بأنه أسرع الناس في النوم . وكان يطلب إلينا أن نعد من واحد لعشرة إذا دخل السرير ..

فلا يكاد نصل إلى خمسة حتى يكون استغرق فى النوم تماماً ..

عندى فرصة نادرة أن أرى أبى وأمى معاً .. فليس إلا قليلاً جدًا أن أجدهما معاً .. وأن أجدهما صامتين . لا أحد يقول ولا أحد يرد .. ولا شكوى منى .. ولا من أى أحد ..

لابد أن هذا هو القرف .. فأنا فى حالة من الصمت .. وفى حالة من الضيق .. وفى حالة من العجز .. ولا أقول الخوف .. فلا شىء أخاف منه .. فأنا لا أعرف أى شىء عن هذه الرحلة .. ولا عرفت قبل ذلك عن أية رحلة .. أو مغامرة أو مخاطرة ، وإنما أسمع هذه العبارة دائماً : أعمل حسابك .. سوف نلملم متاعنا ونسافر إلى بلدة أخرى .. بعد غدٍ ..

لماذا ؟ لا أسباب ! إلى أين ؟ لا أعرف ! ومعنى ذلك أن مثل هذه الأسئلة لا معنى لها . وإذا كان لها معنى فعند والدى .. وعند أمى .. وليس من المفروض أن أعرف .. لأننى إذا عرفت فلن يغير ذلك من خط السير .. أو الظروف أو القدر .

أمى قالت مصر .. ووالدى قال مصر . إذن هى مصر . فما هى مصر .. لابد أن تكون مدينة أكبر من المنصورة عشرات المرات وعماراتها أعلى وأضخم .. واناسها مختلفون .. ولابد أن بها مكتبات أكبر .. وزملاء أكثر .. وإذا سكنا فى دور أعلى فهذه هى المعجزة .. أنا قلت معجزة ؟.. نعم أنا الذى قلت ذلك لأن سكنى الدور الأرضى قطعة من العذاب .. الجدران متقاربة باردة .. والجير يتساقط من السقف .. كأن السقف يريد أن ينطبق على الأرض وتتحول الغرفة إلى مدفن .. وكم حاولت أن أتقى البرد .. فكنت أضع مكتبى فى وسط الحجرة . ولكن الغرفة باردة . وكنت أرتدى البالطو والروب وكل ما عندى من ملابس .. وتظل الغرفة باردة .. ثم اهتديت إلى أن وضعت حصيرة بينى وبين الجدار .. وظلت الغرفة باردة .. فلففت الحصيرة حولى .. وظلت الغرفة باردة .. وارتديت الجورب الصوف والطاقية الصوف .. ولم أعرف طعم الدفء .. وكأن البرودة فى البيت قد انتقلت إلى الدنيا كلها .. فكل شىء بارد جامد .. حتى أيدى الناس عندما أصافحها أجدها باردة.. ويجدون يدى أكثر برودة .. إلا يد أختى .. فهى دافئة . وكثيراً ما وضعتها على خدى .. وأحياناً فوق قلبى .. وهى عندما تضع يدى على خدها تشكو من البرودة..

ومددت يدى إلى يد أمى ولمستها برفق حتى لا تصحو .. ووجدتها دافئة .. وصحت

أمي من نومها وظهرت على وجهها ابتسامة اختفت بسرعة .. ثم فتحت عينيها لتقول : انت تفعل ذلك دائماً .. حتى وأنت نائم .. تمد يدك إلى يدى .. نم ياولدى .. حاول أن تنام.. أمامنا مشوار طويل ..

انظر يميناً وشمالاً . كأننا فى زورق يهتز بشدة .. مع سماع أصوات الصيادين .. ويخيل لى أننى سمعت أصوات الدجاج .. فسألت أمى إن كان معنا دجاج .

فهزت رأسها بما معناه نعم . إذن فالدجاج فوق السيارة .. وهو آمن من الثعالب والذئاب ..

ونمت ..

وتوقفت السيارة مرة واحدة .. ومن النافذة نظرت .. إنه مكان غريب .. البيوت لها لون خاص .. عالية .. كبيرة .. ولها أبواب من حديد .. وأسوار من حديد .. والكلاب لها نباح مختلف . والناس أكثرهم بالملابس البيضاء .. وعرفت فيما بعد انهم الخدم والسفرجية .. وهناك سيارات تروح وتجيء ولا تتوقف .. السيارات نظيفة لامعة .. والناس لا ينظرون ناحيتك إذا نظرت إليهم .. ونزلت .

وكان لابد أن أحرك قدمى .. حتى ينقلوا الصناديق من السيارة .. هناك اناس انتظرونا .. انتظروا والدى .. فعندما نزل انحنوا على يده يقبلونها .. وسوى والدى ملابسه .. وأمى أيضاً .. وأشار والدى أن أتمشى وأتفرج بعض الوقت .. لكى أعرف المكان .. الأرض مرصوفة نظيفة .. كل بيت له حديقة .. وأصحاب الملابس البيضاء كثيرون ..

وقعت فى مشكلة كبيرة جداً ..

أريد اجابة سريعة عن معنى وجود هؤلاء الناس ذوى الملابس البيضاء .. لماذا هم كثيرون وماذا يفعلون فى البيوت .. وأين أصحاب هذه البيوت .. لا أحد فى الشباك لا أحد فى البلكونة لا أحد أمام الباب .. أين الناس .. هذه مشكلة .

والمشكلة الأصعب هى : هذه الرائحة التى تنبعث من البيوت .. ما هذه الرائحة .. من أى شيء تكون .. طعام ؟ حلوى ؟ عطور؟ أدوية ؟ هل هى رائحة الناس .. فلا أكاد أمر

أمام بيت إلا تخرج منه هذه الرائحة الغريبة .. وعلى الرغم من أن البيوت كلها ذات روائح.. إلا أن هذه الرائحة أقوى فى بعض البيوت . فما هى ؟

الشوارع واسعة جداً .. والدنيا هادئة جداً.. هذه إذن الزمالك.. لا أعرف عنها أى شيء.. ولكن ربما سمعت الاسم مرة أو مرتين .. ولكن الاسم فخم ضخم له موسيقى غريبة.. ووقع ساحر.. ولم أعرف ذلك إلا فيما بعد عندما كنت أقول: اننى أسكن الزمالك..

فلا أكاد افرغ من هذه الكلمة حتى أرى النظرات تفحصنى من فوق لتحت فلابد أن سكان الزمالك لهم مواصفات خاصة لا يجدونها فى هيئتى .. ما الذى يجدونه .. وما الذى لا يجدونه .. ولكنى صادق عندما أقول إننى أسكن الزمالك .. وكنت أستعين بواحد تعرفت عليه وأصحبه فى كل مكان ليؤكد إننى أسكن الزمالك .. كأننى محتاج إلى من يقسم على صدق ما أقول .. فما الذى يجعل الناس لا يصدقون .. ربما إننى لا أتنقل بسيارة .. أو أن ليس لى مصروف كبير .. أو إنهم لم يروا بيتنا ولا والدى ولا والدتى .. ولكننى أسكن فى الزمالك .. أو أسكن الزمالك .. محتاج لأن أقسم بالله العظيم إننى أسكنها..

ومشكلة جديدة . لماذا وجوه الناس لامعة ؟ أى نوع من الماء ؟ أى نوع من الصابون ؟ أى نوع من الطعام ؟ هل هم من جنس آخر لابد إنهم من جنس آخر وإلا ما سكنوا الزمالك .. وكانت لبيوتهم هذه الرائحة الغريبة .. وإلا ما كانت لهم سيارات وحدائق ونوافذ لا ينظرون منها وبلكونات لا يشترون منها الخضار .. ثم لا يوجد بائع خضار ..

ومشكلة أخرى : ما الذى يعمله هؤلاء الناس لتكون لهم مثل هذه الحياة ..

وكانت هذه الأسئلة تلتف حول رقبتى .. تلتف حولى كلى .. ولذلك فأنا لا أمشى فى الشارع وإنما أنا أدور حول نفسى .. لعلى أفلت من هذه التساؤلات التى هاجمتنى .. وهذه سيدة .. شكلها مختلف .. جسمها .. وجهها .. ذراعاها .. ساقاها .. شعرها .. أهم من كل ذلك مشيتها .. فلم أر أحداً يمشى هكذا .. مشية موسيقية لها وقع على الأرض مع اهتزازات غريبة .. لأول مرة أرى شيئاً كهذا .. وواحدة ثانية .. وثالثة .. وأطفال صغار ..

بيض .. شعورهم ذهبية والعيون زرقاء .. والخادمات سمراوات ويرتدين فساتين بيضاء أيضاً ..

ولا يوجد أطفال فى مثل سنى .. فالناس اما صغار جداً أو آباء .. أما الشبان الصغار فلم أر واحداً .. لابد أن الاطفال هنا .. والشبان فى مكان آخر . أنا الذى أقول لنفسى . ولا توجد عبارة لا تنتهى بكلمة · افندم ..

اتفضل افندم .. افندم ماذا تقول . افندم ياأفندم ..

ووجدت مقعداً عند مدخل أحد القصور . وجلست . وجاء واحد من أصحاب الجلاليب البيضاء والعمامات البيضاء وجلس إلى جوارى .. وسألنى فقلت له من انا .. وكان هو البواب ..

وسألنى . جنابك ابن مين ياافندم ؟

قلت له : هل يوجد هنا أطفال فى مثل سنى ؟

ـ افندم موجود ..

ـ أين هم الآن ؟

ـ فى المدرسة .. أو فى النادى ..

ـ متى يعودون ؟

ـ قبل الغداء .

ـ متى الغداء .

ـ فى الثانية ..

ـ كل الناس هنا يتناولون الغداء فى الساعة الثانية .. فى وقت واحد .

ـ نعم يا افندم .

ـ ألا يوجد أحد يتغدى قبل ذلك .

ـ يوجد .

ـ أو بعد ذلك .

ـ طبعاً .

ـ إذن كل إنسان حر يتغدى فى الوقت الذى يحب ..

ـ ولكن هـذه فوضى .. لابد من النظام يـاأفندم .. الطباخ له مواعيـد .. والسفرجى .. والسواق والبواب .. لأنـه لابد من الاستعداد للعشـاء .. والعشاء له مواعيـد .. كل شىء بنظام ..

ـ والناس الذين يرتدون الجلاليب البيضاء بالضبط ماذا يصنعون ؟

ـ أفندم ؟

ـ إننى أراهم دائماً فى الشارع أليس لهم عمل ؟

ـ طبعاً لهم عمل .. إنهم الذين ينظفون ويكنسون ويغسلون ويرتبون البيت .. ومنهم الطهاة .. والسفرجية .. طبعاً الطباخ لا يمكن أن يكون سفرجيًّا فى نفس الوقت ..

ـ لا أفهم .

ـ ليس معقولاً أن الطباخ يطبخ الطعام وهـو الذى يضعه فى الأطباق وينقلها بعد ذلك إلى السفـرة ويرتـب الفـوط والشوك والسكـاكين والأكواب .. هـذا شغـل السفرجيـة .. والسفرجى لا يكنـس ولا يغسل لأن هذا شغل الخادم أو الخادمـة .. وهو لا يستطيع أن يقوم بفسحة الأطفال .. فهذا شغل الدادة ..

ـ الخادم والسفرجى والطباخ والدادة والبواب .

ـ آه والشوفير كمان .. السواق ..

ـ السواق !.

لكننى لم أر السائق الذى نقلنا إلى الزمالك .. كل هذه المسافة .. كل هذه الساعات وأنا أنقل عينى بين أمى وأبى وكتبى والساعة على ساقى .. ولم ألاحظ أن للسيارة سائقاً ..

ـ أمال جنابك عندك ايه ؟

ـ يعنى ايه ؟

ـ طبعاً .. فيه سواق وسفرجى وطباخ وداده .. وبواب ..

ـ هل هؤلاء هم الأولاد الذين تحدثت عنهم ؟

ـ هؤلاء خواجات ..

ـ ومتى يجيء المصريون ..

ـ حالاً .. لماذا تنهض .. هـل تعرف واحداً منهم .. أين تسكن .. ومـن هو الذى تسأل عنه . وأنا أعطيه عنوانك أو تليفون جنابك لكى يطلبك .. تحت أمرك ياافندم ..

افندم . وجنابك .. وتحت أمـرى .. تليفونى .. وعنوانى .. وما جـدوى أن أعرف أحداً منهم أو من غيرهم .. فكلها كم يوم ويجيء الليل بسرعة وندخل تابوتًا له عجلات يغوص فى الظلام .. ونصبـح قطعة سوداء فى ليلـة سوداء فى عربـة سوداء والناس نيـام ونحن أيضـاً.. لعلى فى الليل أنسـى النهار ومن عرفت ومـا عرفت استعداداً لانـاس جدد .. جدد بعض الـوقت أعرفهـم لكى أنساهـم .. أو من الضرورى أن افعل ذلـك .. يوماً بعـد يوم وشـهراً بعد شهر ... بعد سنـوات من تابوت إلى تابوت امتدت حياتـى كل ليالى الطفولة .. ومن المؤكد كانت ألوف الليالى ، ولم تكن هناك طفولة واحدة ..

من أنا : إحدى مقذوفات من الماضى إلى المجهـول .. زجاجة ألقاها بعض البحارة من سفينة تغرق .. وفى الـزجاجة استغاثـة .. لعل أحداً يدركهم ــ كل الزجاجـات قد أدركها الناس بعد أن غرقت السفينة وأصحاب الزجاجة .. وبقيت الرسالة دليلاً على ماض أليم.. وعلى أن هناك أملاً غير معقول فى النجاة .. وهناك اناس يفضلون أن يكونوا الزجاجة وأن يكونوا هم الرسالة التى لا يدركها أحد ..

ومن كل هذه الأنواع من الغرق كانت طفولتى ..

ومن كل الذين أوشكوا على الغرق .. والذين أعدوا الزجاجة .. ومن الذين وضعوا فيها رسالة إلى المستقبل .. ومن الذين ألقوها ومعهـا كل آمالهم فى النجاة .. فأنـا خوف أمى ورضا أبى .. وقلقى .. فى سجن زجاجى .. صوت زجاجى .. صدى زجاجى !.

٣٠

لم اتصور لحظة واحدة أن اجد نفسي وحدى فى البيت ـ أى فى غياب أمى ولم أتصور ان تغيب أمى لاى سبب .. حتى اذا مرضت فهى تبقى فى البيت .. وحتى عندما تذهب إلى المستشفى أو إلى الطبيب فبعض الوقت . وقبل أن تذهب إلى عيادة الطبيب تكون قد أعدت كل شيء قبل ذلك بيوم .. الطعام أعرف مكانه .. وإذا سألت عنها احدى صديقاتها فماذا أقول .. واذا لم تسأل فمن الواجب أن أذهب إليها .. ولا أقول إن ماما مريضة .. وانما أقول إنها ذهبت للعزاء . وفى إحدى المرات قلت ذلك فسألوها عن الذى ذهبت للعزاء فيها . فكان ردها : أنه لم يكن عزاء وربنا لا يأتى بسوء لاحد ـ وإنما هو الذى أخطأ ـ أى أنا الذى أخطأت .

فأمى لا تريد أن يقال إنها مريضة أو يسأل احد عن مرضها .. أو يلاحقها بالسؤال عن صحتها وارسال الأطعمة أو الشاى والسكر الذى يجب أن ترده بنفس الكمية أو أكثر منها ..

وحتى عندما مات خالى لم تتركنى وحدى . وإنما طلبت منى أن أذهب معها وإلا آتى بكتب .. لا داعى لذلك . وهى تعرف مدى حبى للكتب ثم أنها هى حريصة على ألا أضيع وقتى . ولما سألتها قالت إنها تخاف من الحسد ..

وكانت تقول : لا تأكل مع أحد .. أنا سوف آتى لك بالطعام .

ولكن هذه المرة سافرت أمى لان احدى أخواتها مريضة جدا .. وأنها تريد أن تراها قبل أن تموت .. ووجدت أمى قد ارتدت فستانا أسود .. ومنديلا أسود .. حتى المناديل

التى فى جيبها لها أطراف سوداء .. ثم أنها نزلت إلى السوق واشترت سكرا وشايا وصابونا .. وجاءت سيارة وأخذت أمى إلى حيث أختها .. وقبل سفر أمى كان والدى قد حضر .. هو الذى سوف يبقى معى فى البيت فى غياب أمى . مفاجأة أخرى ! فهذه هى المرة الأولى التى اكون مع والدى .. صباحا ومساء . وكنت فى غاية الاضطراب .. كأننى اراه لأول مرة .. ولا أعرف كيف ابدأ الكلام معه .. ولا أعرف هل أذهب إلى المدرسة .. هل ابقى فى البيت .. ما الذى يجب أن أفعله .. كأنه رجل غريب .. ورحت أرقب والدى بمنتهى الدقة والعناية .. انه مختلف تماما عن ماما .. أنه اهدأ .. وحركته أبطأ .. ثم أنه ليس مستعجلا على أى شىء .. وظللت انتظر ما الذى سوف يفعله فى الافطار وفى الغداء . وكيف نمضى الوقت معا ..

إذا دق الباب كان هو الذى يسبقنى إليه .. ويجىء اناس يسألون عن أشياء لا أفهمها.. ثم يتركون خبزا ساخنا وبيضا .. ويجىء من يحضر الفطير المشلتت الساخن والقشدة وعسل النحل .. ثم يتهامسون . ويقوم والدى باعداد الطعام .. ويضع الفطير المشلتت فى طبق كبير .. ويضع القشدة فى طبق . والعسل فى طبق ويطلب أن نجلس معا .. وفى نفس الوقت يكون قد أعد الشاى بالنعناع ..

وقلت . أحب أن أكون معك ..

ـ ممكن أن أكون معك وزملاؤك معنا أيضا .. على كيفك .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ أريدك أن تكون مبسوطا .. وحتى لا تشعر بأنك وحدك ..

ـ ولكن أنا مبسوط وأنا معك ..

ولم يكن هذا شعورى بالضبط .. فانا أشعر بأننى غريب عن والدى .. وأنه هو أيضا غريب .. وكنت أنظر إليه وهو يأكل .. وأنظر إلى أصابعه .. إلى وجهه .. أنه أبيض أحمر وعيناه خضراوان . وله منظار أبيض .. وله شارب وشعرات بيضاء هنا وهناك فى رأسه .. وعيناه صافيتان .. ونظراته ثابته هادئة .. وليس فى عينه أى نوع من القلق .. وقال لى : أنا سوف آكل معك رغم أننى مصاب بمرض السكر ..

وكـانت هـذه هى المرة الأولى التـى أعـرف أن والدى عنـده سكر .. وشرح لى معنـى الاصابـة بالسكر .. وقـال ضاحكـا : لن تصاب بهذا المرض .. وإنما بعـض أولادك فهذا المرض يصيب الاجداد والاحفـاد .. فقد كان جدى مصابا بـالسكر .. وهذا المرض يجىء من الاسراف فى تناول السكريات . أو يجىء من الحزن الشديد أو يجىء بالوراثة .. وأنا لا أعرف أى هذه الاسباب قد أدت إلى اصابتى بالمرض .. ولكن اعتقد أنه الهم والحزن يا ولدى..

يقول : الهم والحزن ..

إذن فهذا الهدوء على وجـه والدى وهـذه الخفة والمرح ليست إلا شيئـا ظاهـريا .. أو ليست إلا محاولـة لنسيان مـرضـه .. أو هو نـوع من السلوك التعـويضى ليخفـف عنه السكر أو حتى لا يصاب بما هو أكثر من السكر ..

وسألته : وهل ماما عندها سكر

قال : لا . الحمد لله ..

سألته · ولن تصاب بالسكر ..

قال . إن شاء الله لن تصاب يا ولدى

قلت: إن جدى كان قويا .. ولم يكن مصابا بهذا المرض ..

قال . الحمد لله أن السكر لن يصيبك إن شاء الله .. هل تحب الفطير .

ـ جدا .

ـ سوف آتى به كثيرا ..

ـ وأذا بعثت إليك فـاعط زملاءك الذين تحبهم .. لانهم لا يعرفـون كيف يصنعونه فى المدن .. فى الريف فقط ..

ـ حاضر .. ومتى ستبعث ذلك ؟

ـ عندما اسافر

ـ اليوم ؟

ـ لا .. بعد ثلاثة أيام عندما تعود ماما ..

وأسعدني أن يبقى والدى ثلاثة أيام .. أريد أن أقول له كثيرا وأن اسمع منه .. ولكن لا اجد شيئا أقـوله .. أنني في غاية الاضطراب .. مـع أن والدى عندما يكون مسـافرا اتخيل حوارات طـويلة معه .. واتخيل نفسـي على صدره .. وفجأة سـألت والدى : بابـا .. هل الانتحار حرام ؟

ـ الانتحار ما هذا الذى تقول يا ولدى . ما الذى جعلك تسأل عن هذا الشيء الفظيع .. طبعا حرام .. ولكن لماذا هذا السؤال يا ابنى . أزعجتني !

ـ مجرد سؤال ..

ـ ولكن لماذا .. طبعا حـرام جدا .. ومن يفعل ذلك يدخـل جهنم وبئس المصير .. أعوذ بالله .. تعال اقترب منى يا ولدى ..

والقيت نفسـي على صدره وجعل يضع يده على رأسي ويقول : سلام قـولا من رب رحيم .. سلام قولا مـن رب رحيم .. ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين .. ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين .. والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .. والله خير حافظا وهو ارحم الراحمين .. ورجعناك إلى امك كـي تقر عينها ولا تحزن .. وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت ارحم الراحمين فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضر . وكشفنا مابه من ضر وكشفنا ما به من ضر.. ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم فنجيناه وأهلـه من الكرب ونجيناه وأهله من الكـرب العظيم .. تعرف هذه السـورة ..

ـ نعم .. سورة (الأنبياء) ..

ـ الله يفتح عليك .. قل معى .. بسم الله الـرحمن الرحيم .. اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون .. ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون .

وقلت . لا هية قلوبهم ..

قال : لاهية بالفتح وليس بالضم ..

قال مرة أخرى : بسم الله الرحمن الرحيم ..

قلت : لاهية قلـوبهم وأسروا النجوى الذين ظلمـوا . هل هذا الا بشر مثلكم افتـأتون

السحر وأنتم تبصرون .. قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ..

ولاحظت أن والدى ظل منزعجا طوال اليوم . وفجاة قرر أن نتناول غذاءنا فى بيت احد أصدقائه .. ثم طلب منى أن أغير ملابسى لأننا سوف نخرج ونقوم بعدد من الزيارات .. وكلما نظرت إلى وجه والدى وجدت شحوبا وقلقا فى عينيه ..

حتى الكلام الذى بينه وبين أصدقائه طوال اليوم كان موجها لى .. والكلام كله عن وسوسة الشيطان الذى يهمس فى أذن الإنسان ليعصى ربه .. وإنه فى كل مرة يشعر الإنسان إن همس الشيطان قد ارتفع يجب أن يستغفر الله من كل ذلك.. وأن يقرأ سورة « الأنبياء » ففيها كل ما أصاب الأنبياء من عذاب .. ثم كيف نجاهم الله من كل ذلك ..

ثم حدث شىء فظيع غير متوقع ونحن نتناول طعاما فى بيت الحاج عبد اللطيف وهو من تجار الغلال ومن أحب الناس إلى والدى جاءت زوجته بعد أن بدأنا الطعام وسلمت واخفت جانبا من وجهها وسألها الحاج عن سبب غيابها فقالت : والله يا حاج مصيبه كبرى !

ـ خير إن شاء الله .

ـ خير يا حاج .. الحمد لله على كل شىء .. انه فريد ابن الدكتور شوقى .. الولد شرب زجاجة يود .. وكان سيموت فيها .. ولكن ادركوه على آخر لحظة ..

ـ لماذا ؟

ـ يا سيدى إنه يحب بنت الجيران ويريد أن يتزوجها ولكن والدته رفضت لأنها تريد أن يتزوج بنت أختها ..

ـ والله بنت اختها أجمل .. ويتمناها أى إنسان .. ثم إنها كانت زميلته فى الجامعة .. وغنية وفى غاية الكمال ..

قال والدى . والله حرام ..

وقالت هى . يمكن الانتحار ليس حراما عند الاقباط ..

قال والدى : حرام فى كل دين ونهايته جهنم وبئس القرار .. ما رأيك يا حاج .

قال الحاج حرام والعياذ بالله . والله أن لا أفهم يا سى محمد لماذا ينتحر هؤلاء

الشبان .. هـذه هي المرة الثانية التـي اسمع فيها عـن شـاب حـاول الانتحار .. قبـل ذلك سمعت عن ابن المأمور جودت .. قالوا إنـه مريض .. وأنه دخل المستشفى وذهبنا نسأل عن ذلك .. ولكن احدا لم يقل لنا ماذا جرى له .. واحد قال . معدته . وواحد قال: ضيق في التنفس .. وواحد قال : أصـابة في دماغه بعد أن سقط من البسكلت .. والحقيقة أن الولد المسكين انتحر .. لقد امسـك سكينا وقطع عرقا مـن يده .. وظل ينزف حتـى أغمى عليه وادركوه في آخر لحظـة .. والسبب تافه جدا فقـد ضربه أبوه قلمين أمام زمـلائه لانه بليد ولا يذاكر .. فاسرع الولد واتى بسكين وأغلق على نفسه باب حجرته .. وبعد ذلك كسروا الباب .. وانقذوه في آخر لحظة ..

اما الاضطـراب الذى أصاب والدى ففظيـع .. وقد رأيت اللقمة تـرتجف في يده . ولا يعرف ما الـذى يفعله وهو يحاول أن يتفادى النظـر ناحيتي .. ولكننى وجـدت الرعب في عينيه .. ويبدو أن والدى تأكد من أننـى لم أكن أقصد الا مجرد السؤال .. ولم تساورنى أية فكرة من هذا القبيل .. وهذا واضح في هدوئي وصمتي .. واستمرارى في تناول الطعام دون أن ارفع عينى .

وفي الطريق إلى البيت سألنى والدى . ما الذى اقرأ هذه الأيام ..

فقلت : قصة بوليسية ..

فضحك والدى هو يقول : لابد أن البوليس اطلق النار على القاتل ..

فقلت : قبل أن يدركه البوليس فقد انتحر .. وعلق نفسه بحبل من السلم ..

واستراح والدى وقـال : إنه رجل مغفل .. لم يكـن هناك سبب لان يقتل نفسـه .. ولو سلم نفسـه لدخـل السجن بضع سنوات وخرج يستأنف حياتـه بصورة أفضل .. ولكن مادام قـاتلا فهـو يستحق الإعـدام .. ولكنه استعجـل إلا إذا كان في حـالة جنـون .. لقد أصابة الجنون فقتل نفسـه .. فله العذاب في الدنيا والآخرة .

وكان والـدى يحاول أن يطرد الموضوع تماما مـن دماغى.. يريـد أن يطمئن على أن هذه الفكـرة قد قرأتها وإنها لم تخطر على بـالى .. بعد أن تحدث والدى عـن الحزن الذى أصابه بمرض السكر .. ولم يصب والدتى بعد .. ولعله حاول أن يعرف بالضبط ما الذى

جعلنى اتحدث عـن الانتحار .. هـل أنا أيضـا قد ضقـت بهموم الحيـاة .. بمتاعـب أمى ومتـاعب والـدى .. الحياة الشـاقة الحزينـة التى نعيشهـا جميعا .. أو هـل هى الكتب الفلسفية التى بدأت اقرأ فيها رغم أننى لسـت فاهما تماما لكل ماتقع عليه عينى .. أو أن هذه الفكرة قد تولدت فى الوحدة والعـزلة والانطواء والبعد عن الناس .. والقلق والشعور الدائم بـالغربة .. وبأن لا شـىء يمسكنى .. لا ارض تحتى .. ولا البيت ولا هـو يشغلنى بحوارات طويلـة بينى وبينه .. لقد ظل يستعين بـأصدقائه جميعًا على قتـل هذه الفكرة وإبادتها نهائيًا ..

فهو دائم التلاوة للقرآن .. وصـوته جميل .. والآيات التى يختارهـا من سور مختلفة الدلالـة . وتدعـو إلى الصبر والإيمان .. واقتراب الفرج .. ثـم أنه كـان يغنى أيضـا وهو يصنع الشـاى .. وصوته جميل أيضا ..

وفى الليل عندما أنام مبكرا يجىء ويغطينـى .. وكلما وجدنى قد تمددت تحت اللحاف والبطانية رغم حرارة الجو يضحك . ثم ينحنى يقبلنى على جبهتى ويتلو آيات من القرآن الكريم .. ثم يخرج ..

وفى الصباح يفتح كل النوافذ والباب .. ولاول مرة أنظر من النافذة واكتشف أن البيت يقع عند طرف احدى الحدائق .. شىء عجيـب أننى لم أفكر فى دخول هذه الحديقة .. ولا خطر لى أن افتح النافـذة .. ولما انفتح الباب .. وباب آخر مواجه لـه ، كان الهواء مندفعا ، وقـد أدى فتح النـوافذ والابـواب إلى أن تغيرت رائحة البيـت .. أن الهواء ينعش .. فهـذه الابواب والنوافـذ المفتوحة تجعل البيـت أوسـع ..وتجعل السقف أعلى .. فـالافق والسماء والحقول كلها اضيفت إلى البيت .. وجاءت الاصوات والنداءات ورائحة البرسيم والزهور، ورائحة الـدخان ثـم رائحة الطعام مـن بيوت مجاورة .. هنـاك أكثر من عـلاقة تـربطنا بالآخريـن : الاصوات والروائح .. والذيـن يدقون الباب رغـم أنه مفتوح ويسألـون عن ماما.. ويسلمـون على بابا ثم إذا وجـدونى سألونـى عن حالى فى المدرسة .. أو مـا الذى اقرؤه اليوم .. أو أن كنت زرت زميلى فلانا لانه مريض .. أو لانه عاد من السفر .. أو لان أخته تزوجت .. الدنيا كلها تدخل من الباب والشباك !

٣١

توقعت شيئا غريبا أن يحدث .. لا أعرف ما هـو .. مع أن حياتنا ليست فيها أحداث .. فهي تمشي وليس لوقع أقدامنا صوت على الأرض ، ولا لأصواتنا صدى .. ولو أغمضت عيني في الطـريق فلن اصطـدم بأحد .. لانني شبـح .. أو ظل .. أو انني وهـم .. أو انني جلباب ملىء هواء .. ملىء فراغا .. وفي بعض الاحيان كنت أدق بطني بيدي .. فقد توهمت في بعض الاحيان انني بـلا بطن .. بلا معدة .. بلا قلب .. بلا أحشـاء .. ولا أعرف من أين جاء هذا الشعور ولا حتى ما معناه . وكنت دائم النظر إلى جسمي وإلى أجسام الناس .. وأذكر أنني نهضـت من نومي في حالـة من الفزع لان احد الاطفال ضرب الكـرة ناحيتي فدخلت بطني وخرجت من الناحية الأخرى .. حتى الجلباب نفذت منه دون مشقة .. كأن جلبابي من نسيج العنكبوت .. شيء غريب هذا الشعور وهذه المعاني ..

ولكن النظرات التي لم آلفها من أبي وأمي تدل على أن هناك شيئا ما يقولانه دون أن اسمعه .. حتى لا اسمعه ..

واقترب مني والدي وقال تعال نخرج .. فأنا أريد أن أجلس معك ..

ـ الله .. تجلس معي ؟

ـ تعال ..

وتعلقت بـذراعي والدي .. وتركـت الباب مفتوحـا ونظرت إلى الباب الذي لم أتـركه مفتوحا قط .. ولكن هذه المرة تركته دون أن أبـالي بغضب أمي .. أو كأنني لا ابالي بالبيت كله مادمت مع أبي ..

ولا اعرف كم طال الطريق .. ولكن والدى اتجه إلى احد المطاعم وقال · هنا سوف نجلس ونتناول غذاءنا ، فماما لا تستطيع اليوم أن تعد لنا طعاما .. وأنا اتفقت معها على أن نجلس معا ثم نعود إليها ..

أول مرة أذهب إلى مطعم .. أول مرة اسمع من والدى أنه يريد أن يجلس معى .. ويريد أن يكلمنى وأن يكون ذلك فى مطعم بعيدا عن البيت .. ويكون الكلام أثناء الطعام وهو الذى يريد أن يتكلم .. وكنت سعيدا أن أجلس إلى والدى وأن أراه وأن استمع إليه وحدى وجها لوجه .. فلم اجلس إليه وجها لوجه .. وإنما دائما أراه على السرير .. أو أراه يرتدى ملابسه أو أراه داخلا أو خارجا .. ولكن جالسا معه وفترة طويلة شىء جديد .. مثير ..

وسألنى : ماذا تريد أن تأكل ؟

ـ لا أعرف

ـ هنا كل شىء .. لحمه وفراخ وسمك وأرز ومكرونه .

ـ كل هذا

وضحك والدى وهو يقول اختر أحسن هذه الاشياء

ـ ما ستأكله أنت .

ـ اذن أختار لك مكرونه وسمكا مقليا وصلصة وبطاطس بالدمعة . موافق ؟

ـ نعم .

ورحت املأ عينى من والدى .. أن والدى وجهه أبيض احمر مشرق .. وله عينان خضراوان هادئتان تماما وشعره أسود .. وجبهته متوسطة .. وشفتاه ممتلئتان .. وعنقه طويل .. ويضع عطورا جميلة هادئة .. ويداه ناعمتان .. واصابعه أيضا .. وله قميص بزراير ذهبية فى الاكمام . وله ساعة ذهبية بسلسلة تتدلى على الصديرى .. وله طربوش أحمر غامق ..

قلت : يا بابا هل نحن فقراء

ـ لا ..

ـ لماذا عندى هذا الشعور ؟

ـ من الذى تراه غنياً من أصدقائك ؟

ـ لم أفكر فى ذلك ..

ـ هل لا تجد الطعام فى البيت ؟

ـ أجد الطعام ..

ـ إذن لسنا فقراء !

ـ ولكن البقال يطلب منى فلوسًا .. وصاحب الأجزخانة .. لماذا لا تدفع لهم فلوسهم ..

ـ لأن ماما هى التى تدفع .

ـ ولماذا لا أدفع أنا ؟

ـ لأن ماما أعطتك الفلوس فى إحدى المرات فجاءك شحاذ فأعطيتها كلها له .. أنت نسيت؟

ـ هذا حدث ..

ـ وحدث مرة أخرى .. أن جاءك شحاذ وكانت تمشى وراءه زوجته وأولاده وانتظروك عند باب المدرسة .. لانهم يعرفون أن قلبك طيب .. وبكى الرجل وراح يقبل يديك .. فأعطيته المصاريف المدرسية .

ـ هذا صحيح .

ـ ولذلك فوالدتك لا تعطيك أى مبلغ من المال حتى لا يخدعك هؤلاء الشحاذون النصابون..

ـ لماذا ماما مريضة دائما ؟

ـ أنها ترهق نفسها فى شغل البيت .. وترفض أن يقيم معكم فى البيت أى خادم أو خادمة .. أنا حاولت كثيرا ولكن ماما ترفض ذلك .. حتى خالتك مرة أتت معها بخادمة . ولكن ماما طردتها ..

ـ لماذا ماما تخشى أن أكون فقيرا؟

ـ هي تحبك وقلقة عليك ..

ـ يعني لن أكون فقيرا ؟

ـ لا .. إن شاء الله .

ـ من هو الفقير يا بابا ؟

ـ هـو الإنسان الـذى لا يجد طعامـا ولا ملابـس ولا بيتا ولا يستطيع أن يذهـب إلى المدرسة ولا يقدر على شراء الكتب والادوية ..

ـ إذن نحن لسنا فقراء ولكن لماذا أنت تقول كلاما وماما تقول كلاما آخر .. أيكما على حق.

ـ ماما على حق .. وأنا على حق أيضـا ..

ـ ولكن ماما لا تقرأ الكتب التى تأتى بها أنت .. وقد طلبت إليها أكثر من مرة أن تقلب فيها وسوف نجدها جميلة ومسلية .. ولكنها رفضت ..

ـ ماما تخاف أن تنشغل بها عن الدراسة .. فمامـا ترى أن أخوتك الذين انشغلوا عن الدراسة لم يكملوا تعليمهم .. وهي لا تريد لك هذا المستقبل ..

ـ لماذا لا تقنع ماما برأيك هذا ؟

ـ حاولت ولكنها مصرة على موقفها ..

ـ اذا أنا قـرأت هذه الكتب ، أرضيتك وأغضبتها .. فكيف أكـون أبنا لكما أنتما الاثنان وأكون هكذا مختلفا ..

ـ انظـر إلى أية شجـرة يا ولـدى .. هذه الشجـرة خرجـت من بـذرة وضعت فى أرض سـوداء .. وهذه البـذرة عاشـت على الطين وعلى الهواء وعلى الماء .. ومع ذلـك فالشجـرة مختلفة تماماً عـن الماء والهواء والطين .. هذا طبيعى يا ولدى .. ولكن عنـدما تكبر سوف يتسع وقتـك لكى تفكر ويكون لـك رأى خاص .. أنا عنـدما كنت صغيرا كنت احـب أبى واحب أمى .. وكانا يتشاجران ويختلفـان واجد نفسى حائرا بينهما .. وكان والدى يقول لى . أنت عاوز إية .. فـأقول عاوز العب فى الشـارع .. فيقول . العـب .. وكانت أمى تخاف من الخناقات المستمرة مع أخوتى وأولاد عمى ..

ـ ماذا أكون فى المستقبل ؟

ـ ليس الآن يا ولدى .. عندما تحصل على الابتدائية .. سوف تفكر أين تذهب ..

ـ ماما تريدنى وزيرا .. يعنى ايه ؟

ـ ماما لها ابن خال وزير وهى ترى أنه أعظم إنسان فى الدنيا .. وهى تريدك أن تكون أعظم منه .. أنها أم .. وتحب لابنها كل شىء ..

ـ أخى الاصغر هل أنت تحبه !

ـ طبعا

ـ وماما أيضا ..

ـ ولكن لماذا لا يخرج معى .. ويلعب معى .. ؟

ـ أنه مختلف عنك .. ويجب أن يبقى دائما إلى جوار أمه .. وهى تحب ذلك ..

ـ ولماذا ماما تحبنى فقط .. وأنت أيضا لا تحب أخوتى .. وتحبنى أنا أكثر من الجميع..

ـ بل احب كل أخوتك .. وأنت أكثر .

ـ لماذا ؟

ـ والله يا ابنى لانك أطيب . لانك مجتهد .. لانك ذكى .. لانك على خلق .. لان عندنا احساسا بأنك سوف تعوضنا عن كل أخوتك .

ـ يعنى أعمل ماذا ؟

ـ يعنى تكون بالضبط كل ما نتمناه ، لكل الاولاد ..هذا عشمى فى الله سبحانه وتعالى.. يالله بنا .. لقد تأخرنا .. ولابد أن نسافر حالا ..

ـ نسافر ؟!

ـ نعم .. هات يدك .. هات .. سوف نذهب إلى بلد احسن .. سوف يكون لك بيت أوسع.. واصدقاء أكثر .. بلدة جميلة .. وفيها مكتبة كبيرة .. وبالقرب من البيت رجل يبيع كل أنواع الكتب .. وقد عرفت أن صديقك سامى سوف يسكن فى البيت المجاور لنا ..

* * *

ولم اعد استمع إلى ما يقوله والدى ..

ولا أعرف كيف وصلنا بهذه السرعة إلى البيت . ووجدنا الباب مفتوحا . ووجدنا والدتى قد ارتدت ملابسها السوداء وجلست على احد المقاعد .. والمنديل على رأسها أسود.. ووجهها ازداد بياضا وهدوءا .. ونظرت والدتى إلى أبى ثم اعادت النظر واقتربت منها واحتضنتى وراحت تقبلنى .. وتقول كلاما لا أعرفه .. ولعلها أرادت أن تطمئننى ..

وتلاحقت الاحداث بسرعة .. وجاءت سيارة وقفت أمام الباب .. وجاء السائق وفتح الباب فدخلت أمى وأنا من بعدها ثم والدى . واستقرت ساعة الحائط على ركبتى .. كأنها تابوت سوف ادخله .. أو كنت فيه وخرجت منه .. أو أنه الحوت الذى سوف يبتلعنى تماماً كالنبى يونس عليه السلام .. رحت أرى البيوت والأشجار .. فكل شىء أبعد وكل شىء يتحرك بعيدا .. يمشى فى عكس السيارة .. واضع رأسى على كتف والدتى . ثم على كتف والدى .. وأرى البيوت سحابا يعلو ويهبط .. أو موجا يحيط بالسيارة من كل جهة.. كأن السيارة قذيفة محشوة بشرا .. وكنت وأنا فى السيارة كأننى الذى أجرها وأنا فى داخلها .. أو كأنها تمشى فوقى ..

وانظر إلى أمى لقد نامت ..

وإلى ابى لقد نام هو أيضا ..

وإلى الساعة التى على ركبتى إنها هى الأخرى قد نامت ..

وفجأة وقفت السيارة أمام بيت جديد ..

اذن لقد نمت أنا أيضا .. وصحونا على شوارع خالية من الناس .. وبيوت خالية من الناس .. والسماء خلت من الشمس .. والأرض خلت من التراب ورأسى خلا من أى فكر .. وقلبى من أى خوف ..

وكل شىء قد وقف هناك بعيدا فى حالة استعداد وانتظار لأى شىء ؟ وأنا وقفت كأننى باب فى بيت .. كأننى بيت فى شارع .. كأننى شارع واقف على حيله .. كأننى ظل لانا .. كأننى صداى .. كأننى واحد بين أنا وهى وهو والآخرين .. أو كأننا جميعا .. فى انتظار أمر بالتحرك من المجهول إلى المجهول !

كتب للمؤلف

(أ) ترجمة ذاتية :

١ ـ فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ ـ عاشوا فى حياتى
٣ ـ إلا قليلا
٤ ـ طلع البدر علينا
٥ ـ البقية فى حياتى
٦ ـ نحن أولاد الغجر
٧ ـ من نفسى
٨ ـ حتى أنت يا أنا
٩ ـ أضواء وضوضاء
١٠ ـ كل شىء نسبى

(ب) دراسات سياسية :

١ ـ الحائط والدموع
٢ ـ وجع فى قلب اسرائيل
٣ ـ الصابرا (الجيل الجديد فى اسرائيل)
٤ ـ عبد الناصر ـ المفترى عليه والمفترى علينا
٥ ـ فى السياسة (٣ أجزاء)
٦ ـ الدين والديناميت
٧ ـ لا حرب فى أكتوبر ولا سلام
٨ ـ السيدة الأولى
٩ ـ التاريخ أنياب وأظافر
١٠ ـ الخالدون مائة ـ أعظمهم محمد (صلى الله عليه وسلم)
١١ ـ على رقاب العباد
١٢ ـ ديانات أخرى
١٣ ـ وكانت الصحة هى الثمن
١٤ ـ الغرباء
١٥ ـ الخبز والقبلات

(جـ) قصص :

١ ـ عزيزى فلان
٢ ـ هى وغيرها
٣ ـ بقايا كل شىء
٤ ـ يا من كنت حبيبى
٥ ـ قلوب صغيرة
٦ ـ شارع التنهدات
٧ ـ فوق الركبة
٨ ـ هذه الصغيرة (وقصص أخرى)
٩ ـ عريس فاطمة
١٠ ـ يوم بيوم
١١ ـ إنها الاشياء الصغيرة

(د) نقد أدبى :

١ ـ يسقط الحائط الرابع
٢ ـ وداعا أيها الملل
٣ ـ كرسى على الشمال
٤ ـ ساعات بلا عقارب
٥ ـ مع الآخرين
٦ ـ شىء من الفكر

٧ ـ لو كنت ايوب

٨ ـ يعيش .. يعيش ..

٩ ـ الوجودية

١٠ ـ عذاب كل يوم

١١ ـ طريق العذاب

١٢ ـ وحدى .. ومع الآخرين

١٣ ـ مالا تعلمون

١٤ ـ لحظات مسروقة

١٥ ـ كتاب عن كتب

١٦ ـ أنتم الناس ايها الشعراء

١٧ ـ أيها الموت .. لحظة من فضلك

١٨ ـ أوراق على شجر

١٩ ـ في تلك السنة

٢٠ ـ دراسات في الأدب الامريكي

٢١ ـ دراسات في الأدب الالماني

٢٢ ـ دراسات في الأدب الالماني

٢٣ ـ فلاسفة وجوديون

٢٤ ـ فلاسفة العدم

(هـ) رحلات :

١ ـ حول العالم في ٢٠٠ يوم

٢ ـ بلاد الله خلق الله

٣ ـ غريب في بلاد غريبة

٤ ـ اليمن ذلك المجهول

٥ ـ أنت في اليابان وبلاد أخرى

٦ ـ أطيب تحياتي من موسكو

(و) مسرحيات كوميدية :

١ ـ مدرسة الحب

٢ ـ حلمك يا شيخ علام

٣ ـ مين قتل مين

٤ ـ جمعية كل واشكر

٥ ـ الأحياء المجاورة

٦ ـ سلطان زمانه

٧ ـ حقنة بنج

٨ ـ العبقري

٩ ـ الكلام لك يا جارة

(ز) مسرحيات مترجمة :

* للأديب السويسري فريد ريش ديرنمات :

١ ـ رومولوس العظيم

٢ ـ زيارة السيدة العجوز

٣ ـ زواج السيد مسيسي

٤ ـ الشهاب

٥ ـ هي وعشاقها

* للأديب السويسري ماكس فريش .

١ ـ أمير الأراضي البور

٢ ـ مشعلو النيران

* للأديب الفرنسي جان جيرودو :

١ ـ من أجل سواد عينيها

* للأديب الامريكي آرثر ميللر :

١ ـ بعد السقوط

* للأديب الامريكى تنسى وليامز .

١ ـ فوق الكهف

* للأديب الامريكى يوجين أونيل ·

١ ـ الامبراطور جونس

* للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:

١ ـ تعب كلها الحياة

* للأديب الفرنسى اداموف :

١ ـ الباب والشباك

* للأديب الاسبانى أرابال

١ ـ ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية :

١ ـ الحنان أقوى

٢ ـ من أول نظرة

٣ ـ طريق العذاب

٤ ـ ألوان من الحب

٥ ـ شباب .. شباب

٦ ـ مذكرات شاب غاضب

٧ ـ مذكرات شابة غاضبة

٨ ـ جسمك لا يكذب

٩ ـ اثنين .. اثنين

١٠ ـ الذين هاجروا

١١ ـ غرباء فى كل عصر

١٢ ـ أظافرها الطويلة

١٣ ـ هموم هذا الزمان

١٤ ـ الحب الذى بيننا

١٥ ـ عذاب كل يوم

(ط) دراسات علمية :

١ ـ الذين هبطوا من السماء

٢ ـ الذين عادوا إلى السماء

٣ ـ القوى الخفية

٤ ـ أروح وأشباح

٥ ـ لعنة الفراعنة

رقم الايداع : ١٩٩١/٣٩٤٥

الترقيم الدولى : ٦ـ٠٠٦٥ـ٠٩ـ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت ـ ص.ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

البقية في حياتي!

لوحات تذكارية على جدران الطفولة

كأنني حجر متحرك .. يتشكل ويتلون لأنه يتحرك .. ولأنه يتحرك فلا ينبت عليه العشب .. عشب الأمان .. وزهور المودة .. وثمرات الحب ..

والناس أنواع : أناس يمكن تحريكهم وأناس يستحيل تحريكهم .. وأناس ولدوا متحركين ..

كأنني ولدت على ظهر سفينة .. وأظل شبابي أتعرف على الموج والشاطئ والرياح ..

كأنني سحابة صغيرة جاءت من بعيد لتسقط أمطارا في أماكن مختلفة لا تعرفها .. كأنني بطاقة شخصية سطرها الأول : اسمه : فلان .. موطنه : مجهول .. نهاره : قلق .. ليله : أرق ..

آه لو كانت الأرض قد هدأت قليلا .. آه لو تمكن الحجر قليلا .. آه لو استقرت الحروف في السطور غير مرتجفة ..

إن ميلاد طفل واحد خائف هو موت للحب والعدل ..

إن مستقبل كل إنسان في ماضيه .. ففي الطفولة كل الودائع .. وفي الشباب كل القروض .. وفي الرجولة فوائد الودائع والديون ..

وفي الطفولة نحن مثل يونس عليه السلام الذي ابتلعه الحوت .. ليست معجزة للحوت .. ولكن المعجزة أن نبقى أحياء في بطن الحوت .. وأن نخرج منه ونحاول العمر كله أن نتقي الحوت ..

والحوت هو : القدر .. الناس .. أوجاع الطفولة .. تحديات الشباب .. حكمة الرجولة ..

وعندما نتغلب على الطفولة ونحاول تحجيمها وتخطيطها وتعليقها لوحات تذكارية على جدران الطريق .. فهذه هي بداية الحرية والحكمة ..

وقد حاولت صادقا .. وكل ما كتبت هو شيء من الفكر الشفاف والفن الجميل .. أروع ما كتبه الكاتب الكبير أنيس منصور في سيرته الذاتية .. التي بدأها في كتبه العديدة : في صالون العقاد كانت لنا أيام .. وعاشوا في حياتي .. وإلا قليلا .. ثم هذا الكتاب :

البقية في حياتي

لوحات تذكارية على جدران الطفولة

أنيس منصور

To: www.al-mostafa.com